الأعظم

THE GREATEST

قصة النبي محمد

THE STORY OF PROPHET MUHAMMAD

كَرِيم الشَاذِلِي

دار أجيال

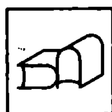
ذكرى لـ نورسين

اللهم أنزل على قبرها

الضياء والنور والرحمة والسرور

وتقبلها في عبادك الصالحين

آمين



إخراج داخلى : شيماء محمد

تصميم غلاف : أحمد فرج

مراجعة لغوية : محمد عبدالله



رقم الإيداع 15544 / 2018

ISBN 978 - 977 - 773 - 067 - 9



الطبعة الأولى 2018

هاتف : 01224242437 (+2) Dar.Ajial 

الأعظم
THE GREATEST

قصة النبي محمد

THE STORY OF PROPHET MUHAMMAD

كريم الشاذلي

الفهرس

الفهرس

الفصل الثاني (في دولة المدينة)

إهداء،،

سيدي...

وإليك تُهدى النفوس لا الكتب...

طِبْتَ حيًّا... وميتًا

شِبه مُقدمة

... فلا مقدمات يمكن أن تهيِّئ لظهور العظماء، فكيف الحال إذا ما تحدثنا عن الأعظم؟!

عشر سنوات كاملة وأنا أغالب قلمي كي يخطَّ هذه الكلمات، عشر سنوات والحياء يلفُّني، ورغبتي تغالبني، وخوفي يمنعني من المضيِّ قُدمًا كي أكتب عن العظيم الذي حضر إلى الدنيا فغيَّر وجهها قبل أن يرحل في هدوء...

وإن كان صعبًا أن يكتب يتيمٌ عن أبويه، وعاشقٌ عن معشوقه، فالأصعب يقينًا أن يكتب الصغارُ عن الكبار، والتافهون عن العظماء، والحائرون عن اليقين...

ولأن التردد لن يُسلمني إلا إلى مزيد منه، فقد حسمت أمري أن أكتب حكاية

النبي الأعظم محمد ﷺ بشكل لا يشبه ما كتبه الأفاضل ممن سبقوا، فهي ليست سيرة بالمعنى العلمي للكلمة، وإنما هي رؤيتي لجانب واحد فقط من حياة الرجل الذي عرَّفني بالله... جانب العظمة والقيادة.

ذلك أنني ومع كل ما كُتب عنه ما زلت مؤمنًا بأن لدينا الكثير لنرويه عنه... الكثير جدًّا...

الأمر أكبر من كل ما سمعناه من قبل، وأعمق من مجرد حكاية نرويها ونحن نمصمص الشفاه، ثم نمضي لنفعل عكس ما أُمرنا به!

لقد قررتُ أن أحكي لك عن الرسول في رحلة كفاحه...

أنفاسي اللاهثة ستسمعها يقينًا وأنت تجمع جهدك وتنظر بعين مُدققة إلى ذلك الشاب اليتيم الذي لطالما رعى غنم قريش في صحرائها، وكيف هبط ذات ليلة من أعلى الجبل ليعلن الحرب على تجار الرقيق في مكة، وأرستقراطيي الطائف، وقيصر الروم وكسرى الفرس...!

ليس معه إلا المحرومون، والفقراء، والعبيد...

ستشاهده ـ بعين عقلك ـ وهو يمزق دثار الخوف والحيرة والرهبة التي اكتنفته بعد لقاء الوحي، ثم يمضي بعدما اطمأن إلى كُنْه الرسالة وطبيعتها، متخطيًا

الأزمة تلو الأخرى، ضاربًا قيم الجاهلية في مقتل، صانعًا انقلابًا جذريًا على أبجديات العصر وطبيعة الواقع ومفردات القوة والجبروت القائمين.

ستراه، بعين قلبك، وهو يحمل أصالة في روحه يكمل بها حكمة أخيه لُقمان، وعزمًا في سيفه فتتعجب من القوة إذ تحكمها أناةٌ لطالما غابت عن أخيه موسى، فضلًا عن منطق لسانه الذي لم يحْتجْ إلى هارون يعضده...

سترى رحمته وقد فاضت على أعدائه قبل أصحابه فيذكِّرك بأخيه عيسى، بيد أنها رحمة المقتدر لا عديم الحيلة...

سترى الكمال متجسدًا في إنسان...

لكنه ـ وياللعجب! ـ كمال باعث على التأسي والتعلم!

أنا من المؤمنين بنبوة سيدنا وسيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ، أؤمن برسالته، ومنهجه، وأفكاره، ومعجزاته... غير أنك لن تجد في ما أحكيه وقوفًا عند معجزة، أو تأملًا لآية، أو تبجيلًا مهما زدت فيه؛ فهو فوقه.

لقد غالبت نفسي كي أتتبع جانبًا واحدًا أرى أننا الآن بحاجة إلى تأمله. وأكرر، إنه ليس كتابًا في السيرة، وإنما تأمُّل للمسيرة، وتدبُّر للخطوات...

بذلتُ جهدي كي أقف على الموثوق منها، وكان ترجيحي في الغالب لما وثّقه

«محمد بن إسحاق» في سيرته، والذي أثنى عليه الإمام الشافعي بقوله: «من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق».

واستفدت كذلك من كتابات المعاصرين، ولا سيما شيخنا محمد أبو زهرة، ومولانا الشيخ محمد الغزالي، عليهم جميعًا رحمة الله ورضوانه.

وأعتذر في الأخير لنبيي الأعظم ﷺ، فلو كان شرط الكتابة عنه هو مقياس العظمة لما كتب عنه أحد، ولَاسْتَصْغَرَ كلُّ مؤرخٍ شأن نفسه إذ ينظر إليه...

اللهمَّ إني أحب حبيبك... فاللهمَّ شربةً من يديه، وصحبةً في الجنة...

القاهرة في

٢١ رمضان ١٤٣٩

الموافق ٦ يونيو ٢٠١٨



قبل أن نحكي

في دستور الطغاة يقولون: «إنْ لم تستطع أن تفنِّد الرسالة، فاقْتُل الرسول!».

ارفع سيف إرهابك واقضِ على من أعجزك منطقُه، وأرهقتك فلسفتُه، وصدمك منهجُه...

اجبر كسر قلة حيلتك بسلطان قوتك، واقطع الطريق على مَن لم تستطع مجاراته، بالدم إنْ أمكن، بالتشويه، بحرب الإشاعات... لا منهج أخلاقي يردعك حينها ولا شرف.

تنجح هذه الحيلة كثيرًا، فكم من رسالات وُئدت، ومصلحين صُودرت أفكارهم وانتهت أحلامهم، وسطا أهل السوء عليها، لا لضعف فيهم، اللهمَّ

إلا ترفُّعهم عن لعب المباراة بقوانين لا يحتملها نقاء معدنهم، وتلقوا الطعنة في ليل غدر لا قمر فيه ولا نجوم.

يُلقي موسى بعصاه وتظهر الآية، فيَصدر قرارُ القتل الجائر، مما يضطره إلى الهرب بقومه بحثًا عن أملٍ ونجاة.

تُحاك المؤامرات حول عيسى فيتلفت باحثًا عن حواريين ينصرون دعوة الله بعدما ضرب الأعداء صفحًا عن آياته المُعجزة. تُقدَّم رأس يحيى إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل والناس شهود...!

منذ بدأ قابيل المشوار والطريق عامرٌ...!

اقتل الرسولَ تنتهِ الرسالة...

حدث هذا كثيرًا ويحدث، غير أن القاعدة تلك لم تمضِ بشكل جيد مع النبي محمد ﷺ.

لقد كان النبي العربي مرهِقًا أشد الإرهاق لأعدائه، ذلك أن رسالته كانت مفخخة بالأفكار، دعوة فكرية صادمة لخصوم لا يملكون فضيلة الحوار، ولا يحترمون العقل، وبينهم وبين المنطق ألف باب وسور.

هدوءُ محيَّاه كان مستفزًا لمعارضيه، وسهولة منطقه ويسر تعاليمه وقوة وخطورة

ما يدعو إليه جعلت التكالب عليه أمرًا محتومًا، وقتْله شيئًا يجب أن يتم بأقصى سرعة.

وما حدث أن المؤامرات لم تجدِ نفعًا، وعجز السيف أن يفصل في الأمر، حتى النَّيْل من قواه العقلية وسُمعته لم يكن لهما أدنى أثر على دعوة الرجل، الذي أكمل مشواره حتى لبَّى نداء ربه ودعوته قد تثبَّتت أركانها، وبات كسرى وقيصر على موعد مع كابوسهم المفزع...

لا شيء قادرًا على إيقاف دعوة النبي محمد ﷺ وقتذاك.

لقد نجحت الرسالة... ونجا الرسول ﷺ!

عقود مرت، بل قرون، ورسالة الرجل تصل إلى كل زاوية في العالم، صافية حينًا، ومشوَّهة أحيانًا أخرى، كل هذا وأعداؤه تلوك قلوبهم حسرة الهزيمة، ومرارة الفشل.

حتى دار الزمان دورته، وقامت دول وذهبت دول أخرى، وأتى عصر الوهن.

أتباع النبي في ضعف رغم كثرتهم الواضحة؛ مغلوبون بلا معركة، صدئت سيوفهم على مهل وهم في غفلة، ولا أحد منهم يعرف جوابًا لسؤال بدهيٍّ:

كيف صار الحال هكذا...؟!

بيد أن السؤال الأشد حيرة، هو سؤال أعداء النبي محمد ﷺ في القديم والحديث:

كيف تعيش رسالة مهزوم أتباعُها؟! وما القوة التي امتلكها هذا الرجل لتعيش أفكاره رغم كل ما أُنفق في أربعة عشر قرنًا من عدة وعتاد من أجل إفنائها؟!

بيد أن الشر ـ كعادته ـ لا يعدَم حيلة؛ وعليه لجأ أعداؤه إلى تغيير جوهري في خطتهم، ذلك أنهم وبعد فشلهم في تفنيد الرسالة، وقتل الرسول، عمدوا إلى السطو على الرسالة ومصادرة المنهج، خطة بديلة تقوم على تشويه سيرة الرجل، ووسم رسالته بالسوء والشر، والضغط على أتباعه حتى يتملكهم الخجل من التعبير عن ولائهم للدين الذي بُعث به نبيهم...

أرهقوهم في محاولة التبرير المستمر، جعلوهم متهمين على الدوام، أطاحوا بثبات تركيزهم في معركة الدفاع.

أصبحوا مطالَبين طوال الوقت بإثبات أنهم بَرَاء من تُهم التعصب، والجهل، والدموية، وبدائية الفكر...

وبهذا صاروا إلى ما هم عليه؛ كُثُرٌ غير أنهم كغثاء السيل، لا بصمة لهم في الحياة، وتخلو صفحة الحاضر من أي أثر لهم.

يدافعون عن أفكارهم ودعوتهم دفاع العاجز المنكسر، وللأسف قلب الحياة لا يحتمل كل هذا الثقل المميت، فتم لفظهم ونفيهم ليصبحوا على الهامش... سنة الله الذي خلق كل شيء ماضية.

لا محاباة حتى لأتباع النبي الخاتم، إنهم وجهًا لوجه أمام مسؤولياتهم، فإما فهمًا جديدًا لأصل الرسالة، وإما بقاءً هكذا إلى الأبد.

المزية التي لا يلتفتون إليها كثيرًا أن منهج نبيهم يحمل في طياته أسباب نجاته، ولذلك بقيت الرسالة رغم كل شيء.

ومثلما تم إرهاقهم في معركة الدفاع، فإن المعسكر الآخر واقعٌ في فخ مطالبته بتأكيد أكاذيبه ومحاولة إثباتها، وحبل الكذب وإن لم يكن قصيرًا فإنه واهن ضعيف، ربما يستمر حينما لا يجد مقاومة جادة تقطعه، لكنّ هذا لا يغيِّر من الحقائق شيئًا؛ الخداع سيظل خداعًا، والكذب سيظل كذبًا، نعم سيعيش لفترة قد تطول، ولكن متى ما نهضت الحقيقة من سبات رقدتها، ستنكسر كل أصنام الباطل، ويتمزق حبل الأكاذيب بنصف جهد أو أدنى من ذلك.

وكي يحدث هذا، علينا أن نسأل أكثر الأسئلة بداهةً، وأشدها وضوحًا:

مَن محمد؟ وما أفكاره...؟

من أين بدأ؟ وما النهاية التي رسمها لأتباعه وأرادهم أن يمضوا إليها؟

كيف انتصر قديمًا؟ وما نقاط قوته؟

لقد قام بثورة عارمة، فما مبادئ ثورته؟ وكيف بنى صرح دعوته وثبَّت أركانها بهذا الذكاء النادر؟

نعم، أتباعه يؤمنون بأنه نبيٌّ له من الله دعم وسند، بيد أنه كان بشرًا يمشي بين أصحابه مؤكدًا قيمة التفكر والتأمل والأخذ من الأمس لليوم، وتدبر أحوال الأمم والتعلم من دروس الحياة.

دعُونا، إذن، نتأمل بعين عقولنا ولو مرة واحدة سيرة هذا الرجل، ونعرف جيدًا ما القصة...

قصة النبي محمد.



الفصل الأول

يحدث في مكة

«إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»

المزمل: 5

الثورة

لم يكن أهل مكة يتوقعون أن تكون خاتمة اليوم عاصفةً بهذا الشكل، لم يتصور أحدهم أن اسم محمد بن عبد الله سيكون حاضرًا في المجالس والبيوت، وأن الرجل الذي عرفوه هادئًا، وتحيروا من صمته المستمر، سيقول ما قال!

بلا شك تحدث بعضهم عن خلوته البعيدة في غار حراء، ومخاصمته لآلهتهم، واعتزاله مجالسهم... بيد أن هذا لم يدفع أحدًا منهم إلى تصديق ما حدث.

هذا يتيم بني هاشم يدَّعي أنه نبيٌّ، مرسَلٌ من قِبل السماء، محمَّلٌ برسالة تهديد لنا!

لا حديث هنا إلا عن وقوف محمد على جبل الصفاء مناديًا بني عبد مناف وبني هاشم وغيرهم من بطون مكة، متسائلًا عن قيمته لديهم، مختبرًا صدقه

عندهم، قبل أن يقول بعدما أقرّوا بمكانته الكبيرة، إنه نبيٌّ من عند الله! لا يملك لأحدهم نفعاً ولو كانت ابنة أو عمة! إلا أن تنقذهم أفعالُهم، والتي يأتي على رأسها اتِّباع دينه والإيمان به.

النفوس حائرة؛ فبطلُ القصة لم يُعرف عليه ميلٌ إلى الظهور المباغت، بل على النقيض طوال عقود أربعة هي عمر الرجل، لم يُرَ منه إلا اتزان الحركة، وقوة المنطق، وحسن السيرة، وطهارة اليد، وقلة الكلام.

مُستبعَدٌ أن تكون ثمة لوثة أصابت الرجل، إذ للجنون علامات لا تتفق مع ثبات محمد واتّزانه، ولقد اختبره غير قليل منهم في أمور التجارة ومعاملات الحياة فلم يعهدوا عليه كذبًا ولا تدليسًا، فما الذي دفعه إلى قول ما قال؟!

وعلى الرغم من أن مكة وقتذاك كانت تحتل مكانة روحية مهمة لوجود الكعبة بها، فإن ما أتى به الرجل لم يكن أبدًا قابلًا للنقاش، ذلك أن المكانة الروحانية تلك لم تكن منفصلة عن الوضع الاقتصادي للبلدة التي لا تمتلك من مقومات العيش إلا كونها مركزًا يأتيها الناس طلبًا لحجٍّ وتجارة... وما يدَّعيه لن يكون أبدًا في مصلحة مكة، أو بالأحرى كُبَرَاء مكة وأشرافها.

غير قليل ممن تنصروا بدين عيسى، لم يتحدث أحد عن أن هناك نبيًّا منتظَرًا، حتى هؤلاء الذين لم يستسيغوا عبادة هُبَل واللات والعُزَّى وغيرها من الآلهة

التي تملأ شبه جزيرة العرب وتسمَّوا «الأحناف» أقصى ما فعلوه هو الاعتزال، اعتزال تغلب عليه روح حائرة، وبحث عن شيءٍ لا يعرفون له كُنهًا أو طريقًا.

حيرة لم تظهر على محمد وهو ينادي الناس، ثم يختص قبيلته بحديث النبوة والرسالة، لقد خطب فيهم بثبات لا تتحمله خطورة الكلمات، ناظرًا في أعينهم بعزم ينبئ أنه ماضٍ إلى ما يدَّعيه، ولولا استهزاء عمه «عبد العُزَّى» به ومقاطعته العنيفة لَمَّا انتهى اليوم.

جيدٌ أنّ أول مَن ردّ عليه كان من عشيرته وأهل بيته، والأمل كل الأمل أن يردعه هذا ويعيده إلى رشده، ويوقفه عن المضيِّ في هذا الأمر.

ولكن... يبدو أن العم أبا طالب يعلم شيئًا لا تعلمه قريش، إنه معهم وبينهم، يحترم آلهتهم ولا يتعرض لها، غير أن القلق الذي بدا على وجهه وهو يستمع إلى مقالة ابن أخيه كان قَلَقًا على الرجل لا منه.

لم تخطئ العيون نظرته الثاقبة إلى محمد وحالة التحفز التي طرأت عليه كأنه سيهمّ بالدفاع عنه إذا ما جدَّ خطبٌ.

لم يُفاجأ أبو طالب كباقي الناس.

النظرة التي تبادلها مع عليٍّ، ولده، كانت ذات مغزى. ما الذي يعرفه كبير بني عبد مناف وشريفها؟ ولماذا لم يوقف ابن أخيه ويردَّه عمَّا قال؟ الكل يعلم مقدار حبه لمحمد وحب محمد له.

مصيبةٌ لو كان بين القوم داعمون لهذه الدعوة الوليدة! كارثة لو أن ما ظهر على السطح الآن سبقه تدبير وتخطيط، أو أن له أتباعًا ومصدِّقين!

الأسئلة الحائرة جعلت ليل مكة غير جالب للنوم والراحة، والقلق الذي سرى في نفوس الناس ـ ولا سيما كبرائهم ـ أطال الليل، وأبعد فجرًا انتظروه على أعصابهم كي ينظروا ما الذي سيغيِّره خطاب محمد في عامة الناس.



حائرًا جلس أبو الحكم بن هشام يقلِّب الأمر على كل الوجوه.

ذكاء الرجل لم يدفعه إلى الاستهانة بما قيل. لم يذهب إلى ما ذهب إليه «عبد العُزَّى» من الاستخفاف بالأمر.

هذه ليست مجرد ريح عابرة، إنه رجل خبير بطبائع الرجال، ويعرف جيدًا أن أمثال محمد بن عبد الله ليسوا ممن يرفعون سيفًا ويغمدونه دون قتال.

هناك خطر قادم، وإنهاؤه مبكرًا هو الحل الأسلم، مهما تطلب الأمر، أو دُفع فيه من ثمن.

أخرجه صوت ابن أخته «مسور بن مخرمة» من بئر أفكاره قائلاً: «يا خال، هل كنتم تَتَّهِمُون محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال؟».

كأنه يحدِّث نفسه رد عليه: «يا ابن أختي، والله، لقد كان محمد فينا وهو شابٌّ يُدْعَى الأمين، فما جَرَّبْنَا عليه كذبًا قطُّ!».

علت الدهشة وجه «مسور»، قبل أن يترجمها قائلًا: «يا خال، فما لكم لا تَتَّبِعُونه؟!».

هنيهة صمت غرق فيها أبو الحكم، قبل أن يضغط على أحرف كلماته: «يا ابن أختي، تنازعْنا نحن وبنو هاشم الشرفَ، فأَطْعَمُوا وأَطْعَمْنَا، وسَقَوْا وسَقَيْنَا، وأجاروا وأَجَرْنا، حتى إذا تجاثينا (تساوينا) على الرُّكَبِ وكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ، قالوا: مِنَّا نبيٌّ، فمتى نُدْرِكُ مثل هذه؟!».

هذا هو الأمر بكل بساطة، ليس لدينا نحن كُبَرَاء مكة أدنى قابلية لسماع ما سيقوله محمد أو حتى مناقشته فيه.

لقد تقاسم الناس غنائم المنطقة بعد طول صراع، فكيف سنسمح لأحد بأن يغيِّر قواعد اللعبة، ويعيد تشكيل القوى، ويرفع ويخفض وفق قوانين جديدة لا نطمئن إلى وقوفها معنا!

دَعْكَ من أن مُدَّعيها ينتمي إلى معسكر منافس، مجرد موافقتنا على ما يقول وتصديقنا له يعد ضربة قاصمة لنا لحساب بني هاشم!

لم ينسَ أبو الحكم أبدًا العداء التاريخي القائم في مكة؛ إن العرب تنفس على قريش مكانتها، وقريش تنفس على بني قصيّ مكانتها، وقصيّ وغيرها تنفس على بني عبد مناف مكانتهم.

كُبَرَاء مكة جميعًا تُحركهم بواعث العصبية الغالبة؛ فهذا أبو سفيان وقومه ليسوا بعيدين عن نفس المنطق، فما زال تنافُس هاشم جد محمد وأمية جد أبي سفيان حاضراً في الذهن، وخروج أُميَّة ناقمًا إلى الشام يذكِّر أهل بيته بالخصومة القديمة، وبكثير عمل ودهاء استطاع أبو سفيان أن يكون من أعمدة مكة وأحد كُبَرائها، فهل يتنازل بسهولة ويتبع هذا الهاشمي؟!

بوضوح تام، كانت دعوة محمد محاطة بأعداء تاريخيين؛ فعاداها مَن عادَوا قصيًّا، وعاداها كارهو عبد مناف، وعاداها مَن نقموا على بني هاشم.

ولطالما كانت نفوس الناس جالبة للاستغراب، ومطامع النفس غالبة على صوت العقل وحديث المنطق، وعليه تشابهت بطون مكة على رفض دعوة محمد، والقلق مما ستأتي به الأيام قد سيطر على الجميع.



قريش

في ظل حرب ضروس بين كلٍّ من الفرس والروم على زيادة توسعاتهما الجغرافية، بدا كأن شبه جزيرة العرب استثناء، قطعة لحم غثة لا غذاء فيها ولا طمع، ذلك أنه ورغم بعض التغيرات التي يمكن أن تفرِّق بين شمال الجزيرة وجنوبها، فإن خصائص الجدب وشظف العيش، وقسوة الطبيعة، وعبوس الجو، وكثرة التقلبات، كانت تصمّ الجزيرة كلها.

غير أنها كانت مع كل هذا، في عين ساكنيها، بيئة تستضيء بالنجوم وتأنس بها، تطرب لصوت الرعد، ولا تعدم هنا أو هناك مرعى لغنم، وبئرًا لعطشان.

في واقع كهذا تمكنك رؤية طباع أناس يمتلكون خصوصية مدهشة؛ يُغِير بعضهم على بعض ويعتبرون هذا النهب جزءًا من معركة لقمة العيش،

سيوفهم مُشهرة دائمًا، ليلهم الطويل يحبل بشعراء جهابذة، مولد الواحد منهم كان مَدعاةً لأن تشعل قبيلته النار ابتهاجًا وفخرًا.

كانت فيهم الحمية، والكرم، والنخوة، وفيهم كذلك الطبقية، والطغيان، ومراكز القوى التي لا يمكن المساس بها.

أما في مكة ذاتها ـ منزل الوحي ـ فكانت الأمور تختلف في بعض الجوانب، فمكة ـ التي يمكن اعتبارها قرية ـ كانت تجمعًا عمرانيًّا محدودًا، ذكرها القرآن بأنها «وادٍ غير ذي زرع» وهو وصف دقيق، حيث الوادي مُنخفَض بين مرتفعين ـ أو بين جبال كما في حال مكة ـ لا زرع فيها، حيث شح الطبيعة وقسوتها، وقلة الماء وندرته.

بيد أن موقعها كان مميزًا، حيث لعبت الجغرافيا دورًا مهمًّا فجعلتها نقطة ارتكاز مهمة لوقوعها في ملتقى الطرق من اليمن إلى الشام، ومن الحبشة إلى العراق، لذا كانت قِبلةً تجارية يأتيها بدو الصحراء للحصول على البضائع التي تأتي من أركان المعمورة الأربعة، مما لعب دورًا مهمًّا في تكوين مراكز قوى مالية، وشبه سيطرة على معظم التجارة بين اليمن والشام.

وأضافت السماء بُعدًا مهمًّا آخر لتلك البقعة، فهنا بنى الجد الأكبر إبراهيم الخليل أهم قِبلة يسير إليها العرب، ومذ تعرَّب أبوهم إسماعيل، ابن الخليل إبراهيم، والعربية لسان القوم وفخرهم.

كانت مكة حرمًا آمنًا يقدِّسونه، ينزهونه من وقوع المظالم، يبذلون جهدهم ألا يُدنَّس، أو تدور في رحاه ثمة شبهة، حتى إنهم حينما جاء السيل وأطاح بجزء من بيتهم العتيق لم يستطيعوا بناء البيت كاملًا لاشتراطهم أن كل درهم سيُوضع في أعمال البناء يجب أن يكون حلالًا خالصًا، وهو ما لم يستطع أن يفي به القوم!

كل هذا نضح في مظاهر اجتماعية ميَّزت أهل مكة، أهمها على الإطلاق تمسكهم بعقائد دينية احتلت الوثنية وعبادة الأصنام ركنها الأعظم، وإنْ تعدَّتْها في بعض الأحيان النادرة إلى عبادة شجر أو حيوان أو شمس وقمر!

فعلى الرغم من وجود الكعبة عندهم، فإن القوم كانوا ينظرون إلى النصارى واليهود بمناهجهم وكتبهم المقدسة، فيظنون أن تلك المنطقة لا ربَّ لها! فتحايلوا على الأمر بوسطاء يقرِّبونهم إلى إله السماء!

وكان فراغ القوم عن جدّ الأعمال مدخلًا للتفنن في أمور عدة كالشعر والفروسية، وأيضًا عبادة الأصنام وصناعتها، حتى إنه كان في كل بيت صنم، يتعبد به القوم، ويطوفون حوله، ويذبحون له.

كان هذا وضعًا عامًّا في قريش، تُستثنى منه زُمرة غير مجتمعة، كانت تُنكر هذه العبادة، وترنو بنظرها إلى دين الحنيفية، ملة إبراهيم وولده إسماعيل.

حتى إنه يُروى أنه ذات مساء وقريش قد اجتمعت في يوم عيد لها عند صنم من أصنامها كانوا يعظِّمونه وينحرون له، انتحى من بينهم أربعة أشخاص يتناجون في ما بينهم بلهجة آسفة.

قال أحدهم: «تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، يلتمسون حجراً لا يسمع، ولا يبصر، ولا يضر»، فهز القوم رؤوسهم في أسى، ثم انطلقوا يتلمسون هدايةً أو جواباً...!

ثمة ورقة بيضاء في كتاب التاريخ تحوي أسماء هذه الفئة الحائرة، أولهم كان ورقة بن نوفل الذي حاول البحث عن دليل في كتب النصرانية فاستحكم فيها، وعبيد الله بن جحش فلم يغيِّر وضعه القائم حتى ظهرت رسالة محمد فالتحم بها مؤمنًا، وهاجر إلى الحبشة غير أنه تنصَّر ومات على النصرانية، وعثمان بن الحويرث الذي قدم على قيصر ملك الروم وتنصَّر وأقام هناك، والأخير كان زيد بن عمرو بن نفيل الذي رغم كبر عمره فإنه كان يجلس مسنداً ظهره إلى الكعبة صارخًا فيهم: «يا معشر قريش والذي نفسي بيده، ما أصبح منكم أحد على ملة أبيكم إبراهيم غيري!».

ثم يرفع رأسه إلى السماء متضرعًا في لهجة حائرة: «اللهمَّ لو أني أعلم أيَّ الوجوه أحب إليك لعبدتُك به ولكني لا أعلمه»، ثم يجدّ على راحتيه.

بعد عقود من هذا المشهد بشَّر النبي محمد ﷺ بأن هذا الرجل سيأتي أمام خالقه يوم القيامة أمة وحده!

من المُشاهَد هنا أنه حتى الفئة التي خاصمت دين القوم كان خصامها غير باعث على التوتر، ذلك أنهم على قلَّتهم كانوا يهيمون على وجوههم بحثًا عن إجابة، وحتى من صرخ فيهم أنهم ليسوا على شيء، رفع بصره الحائر مؤكِّدًا أنه لا يعرف الوجهه الصحيحة، وبالتالي لم تلتفت قريش إلى مثل هذه الدعوات، ولم ترَ فيها أي تهديد لمكانتها ودينها وأصنامها.

ومع هذا التمسك المختلّ بعقيدة الوثنية، نحتت البيئة في نفوس القوم صفات أخرى بعضها حميد مما تفاخروا به كالنجدة والمروءة والذّود عن المحارم ورعاية الجوار والحلم والصبر وسرعة الخاطرة، وكل ما سجلوه في أشعارهم وأدبياتهم من مفاخر، غير أننا يجب أن نفهم هذه الخصال من منطلق دواعي البيئة التي تأويهم، ودوافع الحياة التي تحيط بهم، ذلك أن غيابها كان يعني نهايتهم، فكان تمسكهم بها ضرورة للبقاء أكثر من كونها صفات نفسية ذات دوافع خلقية أو تنطلق من قانون أخلاقي أو تربوي.

ومع كل هذه الصفات كانت تكتنفهم خِلالٌ أخرى قبيحة ومرذولة، كالمقامرة، والخمر، والربا، ونصرة القريب الظالم والفتك بخصمه، وإكراه الإماء على

البغاء، ووأد البنات... وهي في منهج أيِّ فطرة سليمة شيء مرذول، لكنها كانت نمط حياة طبيعيًا بالنسبة إليهم.

دَعْكَ من خرافات الأزلام والأنصاب والطواف حول الكعبة عراة... وغيرها مما تستغربه، إنْ لم تستقبحه نفوس الأسوياء.

وكلُّ هذا شأنٌ وحروبهم القائمة كل يوم شأنٌ آخر، حيث الحرب طقس يومي في شبه الجزيرة، فإن لم تكن في الجنوب فهي في الشمال، وإذا لم تكن في نجد فإنها في تهامة، وإذا لم تكن بين قبائل حِمْيَر كانت بين نزار، وإذا تخطت ربيعة زارت قيس، ولقد عدَّد المؤرخون أيام الوقائع الكبرى في الجزيرة العربية وأسبابها ونتائجها، فإذا هي راجعة إلى أسباب تافهة؛ فهذه حرب حول مرعى غنم، وتلك لحماية حليف، وثالثة أخذًا لثأر... وحسبنا أن نعرف أن أشهر حروب القوم «حرب داحس والغبراء» والتي استمرت أربعين عامًا وحصدت من النفوس عددًا كبيرًا، كانت بسبب تغليب فَرَسٍ على فَرَسٍ في سباق!

كلُّ هذا نحت في شخصية أهل الجزيرة العربية طباعًا قاسية، فالعداوة دائمًا موجودة بين القبائل، والقطيعة بين الناس جزء من شخصيتهم، والقانون الوحيد الذي يحكمهم هو قانون القبلية بكل ما فيه من شدة وقسوة وغباء!

ومن جوهر القول، تأكيد أن هذا الطبع رسَّخ منظومة حكم الفرد القوي في

قبيلته، ومن نافلته تأكيد أنه لا حقوق يمكن أن تتوفر لضعيف، أو مسكين، أو امرأة.

فأيُّ شرف إنسانيَ يمكن أن يتوفر في قوم لا غضاضة لديهم في إشعال الحرب لأن فَرَس صعلوك منهم تراخى في السباق لحساب فَرَس آخر؟! وأيُّ احترام لقوم يرث الابن الأكبر - أو الأقوى - زوجة أبيه فيضمها إلى نسائه؟!



... ثم ظهر النبي

مهلًا...

سنعود قليلًا لنرتفع بزاوية الرؤية إلى بني هاشم قبل أن يظهر فيهم نبي!

أأمل ألا ننسى أننا نحاول قراءة الواقع الذي جاء منه الرجل، كي يتسنى لنا تقدير خطواته، وفهم منهجه وفقًا للظروف القائمة، إن المرء منا وفق ما ذهب إليه كثير من علماء التربية وعلم النفس هو الابن الشرعي لبيئته، وأيُّ استثناء هنا يجب النظر إليه من زاوية مختلفة، بها تقدير لمقاومة الشخص للظروف القائمة، ومخالفته للعرف السائد، خصوصًا إذا ما كان الشخص يحمل همًّا عامًّا أرقى من فكرة الخلاص الفردي.

هنا سنحتاج إلى التدقيق أكثر في كل خطوة، ومحاولة فهم الدوافع، وتفسير كل

حدث بدقة، ومنع النفس من القفز الأرعن فوق الأحداث ومحاكمة الماضي بأبجديات مغايرة، تظلم الشخصية وتخصم من عظمتها ورقيها.

قلنا سابقًا إن الجو العام في شبه الجزيرة عامة ومكة خاصة كانت تحكمه القبلية، وخصال العرب النفسية بها من الشهامة والطغيان، والمروءة والعصبية، والشرف وانعدامه!

صفات تجعل دراسة الشخصية العربية بها بعض الغموض، وقائمة على عموم صفات المرء دون خِلْعَةٍ من أثر قبيلته فيه؛ ذلك أننا لاحقًا سنرى كيف أن كُثُرًا ممن اقتنعوا ـ عقليًا ونفسيًا ـ برسالة النبي محمد قد عادوها وحاربوها، لا لشيء إلا لأن موقفهم الداعم للرجل سيأتي مخالفًا لرأي القبيلة، أو مزعزعًا لتماسكها.

وذِكْرُنا المختصرُ لسلسلة العائلة المحمدية سيُفهمنا إلى حد كبير جزءًا من العداوة التي قابلت الرجل في مبتدأ حياته؛ ذلك أن قبيلته كانت دائمًا ذات حضور وأثر كبير في مكة، ولها من الإجلال والتقدير الشيء الكبير، وكذلك الحسد والضغينة.

لننظر الآن إلى الفرع المنسوب منه الرجل «عبد مناف» ونبدأ من جده الأكبر «قصيّ».

كان قصيّ بن كلاب في سن الفطام حين هلك أبوه، تزوجت أمه رجلاً من قضاعة، فارتحل بها وبقصيّ إلى الشام، وعندما كبر قصيّ وصار رجلًا عاد إلى موطنه، وتزوج من «حُبي بنت حليل بن حبشي» من قبيلة خزاعة أكبر قبائل مكة آنذاك، وكان زواجًا منطقيًّا نظرًا إلى أصل قصيّ من جهة ونباهته الظاهرة من جهة أخرى، وما هي إلا سنوات حتى صار له مال وولد، وطمح إلى سيادة مكة، فتحقق له ذلك بعد كثير من التدبير، وغير قليل من حرب مع قبيلة خزاعة التي كانت تتوسد شرف قريش.

لا أخبار مؤكدة لدينا عن سبب نزوع قصيّ إلى ذلك، بيد أن كل الشواهد تثبت أن الرجل كان محبوبًا عند القوم، يطيعونه ويُجِلُّونه، ولقد بنى دار الندوة وجعل بابها إلى الكعبة، وفيها تتم مناقشة كل الأمور المهمة في البلدة، ويجتمع بداخلها كُبَرَاء القوم وأشرافهم؛ فيها يكون الزواج، والحرب، والمشورة في كل أمر حتى في خروج العِير للتجارة، واستقبال الغائب.

كانت كلمة الرجل حاسمة، واتِّباع أمره واجبًا، وأمسك بيده الشرف كله: سقاية الحجاج، والرفادة، والندوة، والقضاء، وحكم مكة كلها.

مات قصيّ، وخَلَفَه ولده «عبد مناف» متخطيًا ابنه البكر «عبد الدار» الذي كان ضعيفًا لا رأي له، ونال عبد مناف إجماع القوم، وأحبوه واحترموه لحزمه

وسداد عقله وشجاعته، وجدير بالذكر هنا أن جُلَّ المؤرخين يُرجعون النسب الأهم والجد الأول للنبي محمد إلى عبد مناف، ذلك أنه حينما نادى عليهم بعدما جاءه الأمر «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»، ختم الرجل مناداته ببني عبد مناف، وانتظر حتى رجع الناس وبقيت فقط ذرية عبد مناف فذكر لهم أمر الله له.

وعندما مات عبد مناف خلفه ولده هاشم، وكانت له من خصال الخير الشيء الكبير، وله في قريش فضل الإبداع والتجديد، حيث إنه أول من سنَّ فيهم رحلتي الشتاء والصيف، وكان يخرج بنفسه على رأسها إلى اليمن شتاءً، وإلى الحبشة، بل استطاع بدبلوماسية غير معهودة أن يبرم اتفاقًا مع قيصر الروم كي تمر قافلة الشام في الصيف دون أن يتعرض لها أحد.

كان هاشم كريم الطبع، يتحدث الحجيج عن جوده وسخائه، وكان ذا رأي، وأمن خطوط سير قوافل قريش كان هو سببه، سواء باتفاقيته مع قيصر الروم في ما يختص برحلة الشام، أو القبائل العربية بسماحه لها أن تنقل قريش بضائعها على عِيرها دون ثمن.

كل هذا جعل اسم هاشم يتخطى حدود مكة، ويعلو في شبه الجزيرة، بل ويُعرف في الحبشة والشام واليمن، ويجمِّل شيئًا من وجه القبلية المتعصبة المرسومة في الأذهان عن تلك البقعة من العالم.

ثم يأتي عبد المطلب الجد الأدنى إلى النبي، والذي يشبه إلى حد كبير جده قصيّ بن كلاب، سواء في ظروف نشأته أو في نوازع الشرف والطموح لديه، كان اسمه «شيبة» ويقال إنه سمِّي كذلك لبياض شعره، وفي كتب التاريخ كلام عن وسامة في الرجل وجمال ذكوري فيه مسحة كبرياء وشرف.

وفي حياة عبد المطلب حادثتان مهمتان قريبتا العهد بميلاد الحفيد محمد، بطل الأحداث المقبلة، أما الأولى فهي حفر بئر زمزم.

دَعُونا هنا نُعِدْ تأكيد أن الماء هو أعز شيء في مكة، ولقد كان القوم يعرفون أن بالقرب من الكعبة بئر أبيهم إسماعيل، لكنّ مكانها كان مجهولاً بالنسبة إليهم. يتحدثون عن البئر في لياليهم حديث الأماني لا أكثر، حرمة الكعبة كانت تصدّهم عن التفتيش والحفر بحثًا عنها.

لا أحد يستطيع أن يجعل من الحرم مكان تنقيب، وعليه اكتفوا بالحديث عن البئر، حتى ظن بعضهم أن هذه البئر من جملة الأساطير، غير أن غالبهم كان يدرك حقيقة وجودها وحتميتها، ولكن أين هي؟

في كتب التاريخ أحاديث كثيرة بعضها يخالف المنطق في أمر اهتداء عبد المطلب إلى مكان البئر، غير أن الثابت يقيناً أن عبد المطلب لا غيره هو من اهتدى إلى مكانها.

كان عبد المطلب هو القائم بشرف سقاية الحجيج، وكان دائم القلق من فكرة ندرة الماء وشحِّه، إنه يأتي به من آبار مكة البعيدة والمتناثرة، فكيف الحال لو لم يستطع الوفاء بسقاية ضيوف البيت الحرام، لا سيما أنه لا يملك من الأبناء إلا ولدًا واحدًا وهو الحارث، والمنافسون «بنو عبد شمس وبنو عبد الدار» يرقبون سببًا لنقل هذا الشرف إلى أحدهم.

وفي أثناء مخاوفه تلك تأتي أكثر الروايات توثيقًا لتؤكد رؤية الرجل لحلم أو رؤيا متكررة تأمره بحفر بئر، بل وكانت في تلك الرؤيا إشارات إلى مكان هذه البئر «هي بين الفرث والدم عند نقرة الغراب الأعصم»، كان الموقع واضحًا بالنسبة إلى عبد المطلب، إنه حيث يقف الغراب عند الموقع الذي يذبحون فيه.

وذات صباح لم يَنْسَه أهل مكة أبدًا، وسجلوه في حكاياتهم كالأساطير، رأى القوم عبد المطلب يعدو وقد حمل معوله وخلفه ابنه الحارث، حتى إذا ما بلغ المكان المقصود بدأ بالحفر لثلاث أيام كاملة، هو يحفر وحارثة يحمل أثر الحفر ويلقيه خارجًا، وفي يومه الثالث ظهرت له البئر المطلوبة فكبَّر، فعرفت قريش أن الرجل وجد غايته.

وبعيدًا عن البُعد الدرامي في القصة، فإن الثابت من الأحداث هو وجود بئر إسماعيل، وأنها قد رُدمت لأسباب ما ـ سواء طبيعية أو بفعل إنسان ـ وأن أول

من اهتدى إليها بعد عقود كان عبد المطلب، وأن هذا الاكتشاف كان جزءًا مهمًا من مكانة الرجل في قومه.

ونأتي للحادثة الثانية والتي تختلف فيها الروايات، غير أنها جميعًا تؤكد أن عبد المطلب لأسباب ما نذر إنْ وهبه الله عشرة ذكور أن يذبح واحدًا منهم، وغالب الظن في رأيي أن الأمر يعود إلى أن عبد المطلب لم يكن له غير ولد وحيد، وأنه رأى حينها وفِّق في اكتشاف ماء زمزم كيف أن القوم حاولوا مرارًا أن يقاسموه ماءها، فأحزنه ضعف العُصْبة وقلة الولد فنذر نذره.

وعندما وهبه الله عشرة أبناء، جمعهم وأخبرهم بما لديه، فأطاعوه جميعًا، وأسهم بينهم (اقترع) فخرج له سهم عبد الله.

الروايات كلها تقول إن هناك اعتراضًا جرى تجاه تنفيذ عبد المطلب قراره ذبح عبد الله، دون توثيق مَن الذي اعترض، هل هم أهل قريش، أم بناته، أم أخوال عبد الله، لكن المؤكد أن الأبناء لم ينبثوا ببنت شفة، كانوا تحت أمر أبيهم طوال الوقت.

ومع الإلحاح تم فداء الرجل بمئة ناقة... وتستمر الحياة بعبد المطلب ليتزوج ثانيةً وينجب فوق أبنائه العشرة رجلين آخرين هما حمزة والعباس، والمدهش أن يكون ولده حمزة أخًا في الرضاعة للولد الوحيد الذي سيُرزق به عبد الله لاحقًا... محمد.

نقف هنا وقفة نفسية مهمة، لا سيما وقطار التاريخ يأخذنا إلى المحطة الأهم في رحلتنا وهي مولد البطل، نقف لنؤكد أن مسحةً من الحزن ظللت حياة عبد الله بن عبد المطلب، واستمرت معه حتى وفاته.

في يقين كل إنسان منا أنه لا أحد يمكن أن يخصم من رصيد عمره ليعطي منه لآخر، إلا الوالدين، يهبانه لأبنائهما طوعًا وحبًّا، فما بال عبد الله ينظر إلى أبيه وقد سن شفرته وهمَّ بذبحه، لا لشيء إلا تنفيذًا لنَذْرٍ هو وإن كان عند العرب شيئًا كبيرًا، إلا أنه في أصداء النفوس المستقيمة لا يصح بأي حال.

نحن هنا لا نتحدث عن نبيٍّ، كالجد إبراهيم، إذ يأمره اللهُ بذبح ولده فيطيع... نحن أمام مشهد مغاير، نَذْرٌ من نذور الجاهلية التي وإن تماشى الناس مع بعضها، فإننا لا يمكن قبولها والأمر يتعلق بحياة رجل يُذبح بيد أبيه.

هل شفي عبد الله من أثر هذا الوجع؟ هل عادت حياته إلى ما كانت عليه بعد تلك الحادثة المخيفة؟! لا أظن.

بل غالب ظني أن تلك الحادثة صنعت حول الرجل هالة من الشجن، مما دفع أبيه إلى تزويجه من امرأة فاضلة، من أصل ونسب، وذات سمعة طيبة، وقريبة الشبه في هدوء الطبع واتزان السلوك من الابن الحزين، وهي آمنة بنت وهب.

تزوجها عبد الله ولم يمكث معها كثيرًا، إذ ارتحل بعدها إلى الشام في رحلة

تجارية، وفي أثناء عودته مرض مرضًا شديدًا، فتخلف عن الرحلة عند أخواله في يثرب، وعندما عادت الرحلة إلى مكة وأخبروا عبد المطلب بالأمر، أرسل ولده حارثة ليطمئن عليه، فوجده قد مات ودُفن هناك...

علمت آمنة بالخبر فأفجعها موت زوجها الشاب، غالب الظن أنها لم تنسَ شجنًا في عينيه لم يستطع إخفاءه، تحسست بطنها المنتفخة قليلًا، ولعلها تساءلت عن نوع الحياة التي سيعيشها طفلها اليتيم، غير أنها يقينًا لم تَدْرِ أن يتيم بني هاشم هذا سيغيِّر وجه الدنيا في ما بعد.



اليتيم

مهمومًا جلس أبو طالب يقلِّب الأمر على كل الوجوه.

يظن الناس أن لمحمد مكانة كبرى في قلب أبي طالب، ولا يعرفون أنه فوق هذا هناك تقدير واحترام غير موصوف من قِبل العم تجاه ابن أخيه، هناك ثقة كبيرة في تقدير الرجل للأمور، ووعي بالحياة من حوله، لا أحد في مكة يدرك صلابة محمد تجاه مواقفه الأخلاقية والنفسية كالعم الذي استقبل الفتى وربَّاه على عينه.

كان أبو طالب يدرك أن قريش لن تنصاع لدعوة ابن أخيه، وأن قوانين القبيلة صلدة، وتحتل في نفوس القوم مكانة الدين، وأن الأمور لن تهدأ حتى يتخلى أحد الفريقين عن رأيه، حتى وإن قامت حرب، وسالت دماء.

ثمة رعشة سرت في جسد الرجل، وسؤال حائر عن قدرة ابن أخيه على مواجهة القادم...

محمد... شجن بني هاشم وقِبلة أحزانها.

ابن عبد الله، الشاب الذي أنقذته الرعاية من الموت تحت أقدام هُبل، وتلقته المنون بعيدًا عن زوجه وعشيرته، ابن آمنة الوفية المخلصة، التي لم تتزوج بعد وفاة زوجها وآثرت العيش في ذكراه القصيرة، بل إنها تجهزت لزيارة قبره بعد سنوات خمس، قاطعة رحلة تبلغ خمسمئة كيلومتر ذهابًا إلى يثرب، غير مثيلتها في الإياب، ومعها خادمتها «أم أيمن» وطفلها محمد، آمنة التي ما إن قامت بواجب الزيارة وهمَّت بالعودة إلى مكة حتى ظل المرض والموت يلحّان عليها حتى قُبضت روحها وهي في منطقة تسمى «الأبواء»، ماتت ودفنتها خادمتها المشدوهة، ماتت وتركت اليتيم ابن خمس سنين.

عادت الخادمة وفي يدها محمد وحيدًا فألقته في حضن الجد عبد المطلب، فكان له في قلب الرجل مكانة لم يحتلها ولد ولا حفيد، أفرغ عليه من عطفه وحبه الشيء الكثير، غير أن قصة الطفل محمد مع الفقد لم تنتهِ، فلقد رحل عبد المطلب من الدنيا وعمر الحفيد ثماني سنوات، مات بعدما أوصى ولده أبا طالب برعاية محمد وتربيته، وهو ما كان.

تنهيدة حارَّة خرجت من صدر أبي طالب وهو يتذكر السنوات التي عاشها محمد في كنفه، لقد تشكل وعي الفتى سريعًا، ما زال يذكر إصراره وهو ابن الثلاثة عشر عامًا على الخروج معه في رحلة الشام متاجرًا، ثم بعد عودته عندما شاوره في أمر عمله برعي الغنم ثم التجارة، لقد انتبه محمد إلى أن أبا طالب كثير العيال قليل المال، فلم يشأ أن يكون عبئًا زائدًا على كاهل العم الحنون.

أخرج الرجلَ من تفكيره طارقٌ على باب بيته، إنهم وفد قريش إليه يأتونه للمرة الثانية خلال أيام معدودة، لقد أحسن لهم القول في المرة الأولى، ووعدهم بمراجعة محمد، غير أنه وجد من ابن أخيه تصميمًا، فلم يَزِد على أن أظهر دعمه له في كل ما سيذهب إليه، وها قد أتى القوم مرة ثانية، فأيُّ رد هذه المرة يمكن أن يهدئ من غضبهم وعصبيتهم؟

وكما هو متوقَّع، كان الكلام أشد عنفًا هذه المرة، قالوا كلمتهم وانصرفوا، غير أن صدى ما قالوه ما زال يتردد في نفس الرجل الكبير: «يا أبا طالب، إن لك فينا سنًّا وشرفًا، وإنَّا قد استنهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل، وإنا - والله - لن نصبر على مَن شتم آلهتنا وآباءنا، وسَفَّه أحلامنا، حتى تكفَّه عنّا أو ننازله وإيَّاك في ذلك، إلى أن يهلك أحد الفريقين».

عَظُم الأمر على أبي طاالب؛ النوازع القبلية تحكمه، ومحمد يضعه في مأزق لا

يعرف له مخرجًا، لململم الرجل عباءته فوق كتفه وذهب إلى محمد وفي نيته أن يكون أشد صلابة، ويضعه أمام مسؤوليته، فما إن رآه ابن أخيه حتى رحَّب به مبتسمًا كعادته، غير أن أبا طالب بادره قائلًا في لهجةٍ على ما وضع فيها من جهد حزمه على ما كان بها من الشفقة والحنوّ: «لقد كان من أمر قريش كذا وكذا... يا بنيّ، أبْقِ على نفسك وعليَّ، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق».

ظن محمد أن العم قد فرغ جهده، وأنه قد بدا له رأي، فلم يستطع أن يمنع عَبْرَة انفلتت من بين أهدابه قبل أن يقول له كلمته الفاصلة: «يا عماه... والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهِره الله أو أَهْلِك فيه... ما تركته».

لم تجرِ الدموع على خد محمد إلا وكان صداها في فؤاد عمه أبي طالب، فقال له في حزم خالص هذه المرة: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمك لشيء أبدًا».



في مجتمع يؤمن بالعصبة والقبيلة، مضى النبي وحده دون سند...

عماه، حمزة والعباس، وقفا موقفًا محايدًا، أما أبو طالب شيخ البَطْحاء فقد حسم أمره بأن يحمي الرجل وإن لم يؤمن به، حماية مفهومٌ دوافعها، فمحمد بالنسبة

إليه أكثر من ابن أخ، إنه ابنه الذي لم ينجبه، وفوق هذا فقد كان لأبي طالب خصائص نفسية وصفات سلوكية معروفة بين الناس، فهو رجل يكره الظلم والضيم في المطلق، ونال مكانته بين الناس ببذل الجهد في مساعدة الآخرين، حتى إنه ذُهِل عن تكوين ثروة كأخيه «عبد العُزَّى»، أو أبي لهب كما تسمَّى في ما بعد.

إن الصفات النفسية بين الرجلين هي التي حددت موقف كل واحد منهما تجاه ابن أخيه.

ففي الوقت الذي قرر أبو طالب أن يكون سندًا للرجل، متكئًا على أصالة نفسية فيه، رأى أبو لهب في تلك الدعوة مصدر تهديد له كرجل رأسمالي، فهو وإن لم تكن له مع محمد عداوة سابقة بل إنه زوَّج ولديه «عتبة وعتيبة» لبنتي محمد «رقية وأم كلثوم»، إلا أن المصالح المادية عنده كانت أهم من كل اعتبارات أخرى، ناهيك بفكرة انقياد الكبير للصغير، تبعة السيد الكبير صاحب المركز الاجتماعي لابن أخيه اليتيم كانت شيئًا صعبًا على نفس أبي لهب في ما يبدو.

ولعلنا نضيف فوق هذا عداء زوجته الأموية «أم جميل» ـ أخت أبي سفيان ـ لمحمد وزوجته خديجة، والتي يبدو أن دوافعها كانت قائمة على شيء من الحسد التاريخي بين العائلتين، وأشياء من الحساسية والغيرة بين الحماة وزوجات بنيها،

غير أن الثابت أنها كانت عداوة عنيفة من المرأة وزوجها، كان من أثرها إيذاء نفسي ومعنوي، وتطاوُل على الرجل، وإجبارٌ للأبناء على تطليق زوجاتهن!

المنطق هنا يقول إن دعوة محمد لم تكن قبلية أو ترمي إلى محاباة قبيلة على أختها، بل إن الظاهر حتى الآن أنه لم يؤمن بالرجل إلا أهل بيته القريب: خديجة «زوجته»، والفتى «عليّ» الذي يعيش في كنفه، ومولاه زيد، بينما يتشكك البعض في أن الرجل الأربعيني «عتيق» صديق محمد الأقرب قد آمن به هو الآخر، فقد كان بين الرجلين راحة نفسية وثقة واحترام مُشاهَدة.

لم يعلم أحد بعد أن «عتيق» الذي يناديه صاحبه بـ«عبد الله» ومن بعد تسمَّى «أبا بكر» كان قد أسلم من فوره، بل لم يفطن أحد إلى الدور الذي لعبه في استقطاب كلٍّ من: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبي عبيدة بن الجراح، وأبي سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم «الذي اتخذ النبي من داره الواقعة على الصفا مخبأ سريًّا لدعوته»، وعثمان بن مظعون وأخويه قدامة وعبد الله، وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد وزوجته فاطمة أخت عمر بن الخطاب.

كانت الأمور تجري في الخفاء، لا سيما أن جُلّ من سارع إلى تلبية الدعوة في مهدها كانوا من البسطاء، أرقّ الناس نفسًا وأقلهم طموحًا، وأكثرهم ترفعًا

إلا عن احتياج روحي يضمِّدون به جراحًا طالتهم من كِبْر قريش وغِلْظتها، آمن عمّار بن ياسر وأبوه وأمه، وبلال العبد الحبشي، وخبّاب بن الأرت، وكُثُرٌ من ضعفاء البلدة وعبيدها.

غير أن المثير للدهشة أن رسالة النبي محمد لم يكن هناك ما يعضِّدها ويقوِّيها في نفوس الناس إلا منطقيتها، وتدعمها سيرة الرجل وسابق فضله بين الناس، ليست هناك معجزة أو آية خارقة يمكن أن تثير الدهشة أو تُطمئن نفسًا مرتبكة مترددة.

كانت دعوة الإسلام، كما بيّنها ما نزل من القرآن في مكة، تقوم على أربعة محاور رئيسية:

أما الأول، فهي عبادة إله واحد لا شريك له، والكفر بما دونه، وبالتالي مخالفة كل ما هو قائم ويعكف عليه الناس، وعليه فإن آلهة قريش كانت في منهج الإسلام الذي أتى به النبي محمد مثلها مثل حجارة البيوت أو أدنى من ذلك.

أما المحور الثاني، فكان تأكيد وجود حياة أخرى بعد الموت، وحساب، وجنة ونار، مما يترتب عليه مراقبة المرء لسلوكه ونيته، فهما زادُه الذي سيذهب به إلى نعيم دائم، أو إلى عذاب لا يتوقف.

والمحور الثالث، كان يدور حول الارتقاء بالروح، سواء عبر عبادات

مفروضة كالصلاة، أو حسن الخلق وتهذيب السلوك قولًا وعملًا، لقد كانت وصايا محمد تتجه كلها ناحية الإحسان إلى الوالدين - ولو كانوا على دين مختلف - وعدم قتل الأبناء، والابتعاد عن الزنا والربا، وعدم التعدي على الآخرين، ومراعاة مال اليتيم والتحذير من أكله ظلمًا، وعدم الغش في الميزان، وعدم قول الزور حتى ولو في مصلحة القبيلة وذوي القربى.

أما المحور الرابع، فكان يدفع في اتجاه تماسك الجماعة، من خلال نصائح تؤكد أهمية نصرة الحق، وعدم التنابز بالألقاب، والأخوة والإيثار بين أبناء المعتقد الواحد، ونصرة المظلوم، وتقوية الضعيف.

قد تبدو هذه المحاور اليوم أمرًا بدهيًّا منطقيًّا، غير أنها كانت شديدة الخطورة على تماسك قريش، ليس فقط في جانب العقيدة وما يتعلق بمصير آلهتهم التي تحيط بالكعبة، ولكن في التهديد المباشر للفوارق الطبقية.

كيف يمكن لعاقل - وفق زعمهم - أن يضع بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي جنبًا إلى جنب بجوار أبي سفيان وأبي الحكم؟! أيُّ أُخوة تلك التي يتكلم عنها محمد! هل يريد أن يساوي بين العاص بن وائل وعمار بن ياسر؟!

ثم - وتلك لَعَمْري ثالثة الأسافيّ - كيف يريد محمد هدم النظام القبلي وجمع الناس

تحت راية واحدة، لها قوانينها الأخلاقية والنفسية والاجتماعية، والتي تنسف كل قوانين البداوة القائمة؟! ليست مفهومةً بأي حال فكرة أن يتخلى المرء عن محضنه القبلي ليدخل عالمًا مختلفًا، حيث التمييز بالأصل والشرف وعظمة الأثر لا تساوي الشيء الكثير، لحساب - ما يسميه محمد - التقوى!

حسنًا، إذا كان بنو هاشم وكبيرهم أبو طالب يحمون محمد، فمن سيحمي الأتباع المفتونين؟! لِيعِدْ كل سيد منا عبده إلى رشده ثانية... هكذا حدَّث القوم بعضهم بعضًا، لتبدأ بعدها وقائع المذبحة...!



جدٌّ لا هَزْل فيه

يؤمن الطغاة في كل زمان ومكان بقيمة البطش، وعليه فإن أول خيار يلجأ إليه كل ظالم متجبر هو الاستخدام المفرط للقوة والتعذيب وأساليب الردع على جميع مستوياتها الجسدية والنفسية.

الطغاة يمقتون الحوار، يُعجِزهم المنطق فيسعفهم السَّوْط، لم يتغير شيء منذ حَجَر قابيل حتى اليوم!

فلا مستغرَب إذن أن تتوحد عصبة قريش على اتِّباع نفس المنهج، وينفردوا بأتباع محمد فيسومونهم سوء العذاب، سيما وأن غالب أتباع الرجل من الضعفاء، وغير قليل منهم عبيد عند سادة البلدة المتحفزين ضد الدين الجديد.

كانت عيون أهل مكة ترقب محمدًا بمشاعر شتى؛ فما بين شامت سعيد بأزمة

الرجل وهو يرى أصحابه وأتباعه يعذَّبون في صحراء مكة لا حول لهم ولا قوة، وآخر حزين لحزن الرجل وأساه، كان هناك آخرون تتأرجح مشاعرهم بين هذا وذاك، جُلُّ الضعفاء والعبيد كانوا يتابعون الأحداث في شغف، الدعوة الجديدة تكشف لهم من أنفسهم جانبًا ظن الجميع - بمن فيهم هم أنفسهم - أنه مات، جانب الكرامة والعزة والإنسانية، لكنّ سطوة الواقع كانت مخيفة، ومصير بلال بن رباح وآل ياسر أمام أعينهم ماثل!

بلال الفتى الأسمر، الذي عاش حياته كلها عبدًا لسيده أُميَّة بن خلف، كان قبل سماعه عن دين الإسلام ودعوة محمد بن عبد الله مجرد عبد مطيع هادئ الطبع، غير أنه في حقيقة الأمر كان مُرهَفًا بحق!

ولعل ما جعل من بلال أيقونة مهمة في الكفاح الأول للدعوة أنه أظهر جلدًا غير متوقَّع، فهدوء محيّاه، وطاعته لسيده، ونباهته ودأبه في أداء عمله، وفوق هذا عدم ميله إلى أيٍّ من آلهة قريش، كل هذا لم ينبئ بملامح تمرد في شخصية الرجل.

وتلك دلالة على أن النفوس قد تطوي بين جنباتها نارًا لا يظهر شررُها، وإنما تستعر جملة واحدة!

وبين جنبات بلال كانت نيران العبودية مشتعلة دائمًا، كل الآلهة التي تزدحم

بها أسواق مكة ونواديها وبيتها الحرام، كانت تذهب إلى تأكيد عبوديته وانعدام كرامته، ولهذا مقتها جميعًا.

ساعدته طبيعته الهادئة على أن يُخفي كل أوجاعه فلا تبدو قط، وذهب إلى الانغماس في مهام عمله تحت إمرة سيده، إلى أن استمع للخبر.

لم يكن بلال بحاجة إلى كثير كلام، يكفي أن يخبره أحدهم أن هناك إلهًا يحترمه، إله لا يؤمن بالتمييز ولا العصبية ولا الكراهية، إله يرى الإنسان إنسانًا، لا لون ولا عرق ولا نسب يميزه، فقط حُسْن الطوية وجميل السلوك والحفاظ على مكارم الأخلاق، تلك التي ترفع الناس وتخفضهم.

وعليه ما إن جاءه خبر الرجل الذي يقول «أكرمُكم عند الله أتقاكم»، والناس سواسية أمام الله كأسنان المشط، حتى تبعه مؤمنًا بما يقول.

المدهش في أمر بلال بن رباح أن سيده أُميَّة بن خلف كان من أكثر الناقمين على دعوة محمد، ولذلك تفنن في تعذيب عبده المارق، فكان يمنع عنه الماء يومًا وليلة ثم يأخذه إذا حميت شمس الظهيرة، ويقلّبه على الرمال الملتهبة ظهرًا لبطن، ويأمر بوضع صخرة جسيمة على صدره، صارخًا فيه بلهجة سيد لعبد: «لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعُزَّى».

ثم يضع في عنقه حبلًا ويأمر الصبيان أن يجرنه، فيتم سحل بلال على الرمال

الملتهبة، فيسيل العرق على عينيه فتختلط أمامه الصور، فيهتف من أعماق قلبه أن: أَحَدٌ... أَحَد.

وسر تلك الكلمة «أَحَدٌ... أَحَد» يرويها بلال لأصحابه لاحقًا، مخبرًا أنه كان يتفوه بكلمات عدة فيهتف باسم محمد تارة، وينطق الشهادة تارة أخرى، غير أنه وجد أن الكلمة التي كانت تثير قريش ـ وعلى رأسهم أُميَّة ـ كانت تلك الكلمة، فقرر أن يجعلها أنشودته المحببة!

ومثل ما لاقى بلال لاقت عائلة «ياسر»؛ زوج وزوجة وابن يُعذَّبون جملةً واحدة، فيسقط الأب ياسر ميتًا من شدة العذاب، وتلحقه زوجته سمية بعدما طعنها أبو الحكم بحربة، وأنهكوا الابن عمّار حتى ردد كلامهم في سبِّ محمد، والذي ما إن عرف حتى هدّأ روع الابن المكلوم مؤكدًا أن طمأنينة القلب بالإيمان هي العامل الأهم، وأن هناك موعدًا في الجنة ستجتمع فيه العائلة مع نبيهم.

هل أفرغتْ قريش جهدها في تعذيب هؤلاء المساكين؟ الحقيقة أن جعبة القوم كانت مليئة عن آخرها بكل سوء.

انظر معي، حاول أن تستدعي خيالك ليرسم لك صورة واضحة لرجل أربعيني يخرج من باب بيته فيجد الفضلات والنجاسة أمام عتبة داره، يمشي فتتلقاه عشرات العيون والألسنة بالغضب والسخرية والاستهزاء والتعدي.

تخَيَّلْ معي إحساس رجل لم تكن له عداوة قط وهو يُشيَّع في ذهابه وإيابه بعبارات: يا مجنون... يا ساحر... يا كذاب...!

يمر على القوم ومعه بعض أصحابه فيصفرون ويصفقون وهم يصرخون فيهم بتهكم: «ها قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون ـ غدًا ـ على ملك كسرى وقيصر»!

أريدك يا صاحبي أن تتخيل شعور رجل منبوذ، ليس بسبب ثُلْمَة في رجولته، ولا عيب ارتكبه، أو عمل مشين قام به، بل لأنه قرر أن يقول ما يعتقده ويؤمن به.

حتى في موسم الحج والتجارة، كان أهل قريش يتقاسمون مداخل مكة، يحذِّرون الناس من ساحر بني هاشم الذي يفتن الناس ويُطير رشاد عقولهم، ويفرِّق بين الرجل وأهل بيته، ويمشي بالفتنة بين الناس.

حسنًا، دَعْكَ من كل هذا وَلْتَرِق السمع ـ بقلبك هذه المرة ـ لصوت محمد وهو يتنقل بين الحجيج في مجامعهم وهم يتحاشون لقاءه، فيقول لهم: «ألا رجل يحملني إلى قومه! فإن قريش قد منعوني أن أبلغ كلام ربي».

لم يكن الطريق سهلًا أمام الرجل... أبدًا.



نبيٌّ بلا معجزة

لكلِّ نبيٍّ آية، ولكلِّ رسول معجزتُه الخاصة...

هذه وإن كانت حقيقة في عقيدة من يؤمنون بالله ورسله، إلا أنها ليست كل الحقيقة!

ذلك أن أكبر المعجزات على سطح الأرض هو ذلك العضو الصغير المسمى «العقل»، ولا يوجد نبي لم يستخدم المنطق سبيلًا، كل أنبياء الله كانت طرقهم غير ممهدة لأنهم كانوا الأكثر عقلًا، ومنطقًا، ويقظة، كانوا - بدأب يليق بالأنبياء - مهتمين طوال الوقت بالاشتباك مع الأفكار القائمة، وتفنيد الآراء العتيقة، وخلخلة تربة الفكر الفاسد، والناس طوال تاريخهم أعداء ما يجهلون، التحامهم بالمألوف يجعل رفضهم للفكرة سريعًا، وردود أفعالهم عنيفة، فما بالك لو كان المألوف دينًا وعقيدة!

يتساوى في الأمر من يعبد بقرة، أو حجرًا، أو شمسًا، أو قمرًا، إن اطمئنانهم بما يعرفون واستكانتهم إلى المُجرَّب صار يقينًا، وكل من يحاول هدمه هو عدوٌّ معتدٍ!

وأمام هذا التعنت كان الله يشد عضد أنبيائه بالمعجزات؛ كان لكلٍّ واحد منهم فعلٌ غير مألوف، خارق للطبيعة: إبراهيم يُلقى في النار فلا يحترق، ونوح يبني سفينة في الصحراء ليأتي طوفان غير متوقَّع فتبدو معالم معجزته، وعيسى يشفي الأبرص والأعمى بلمسة من يديه، وموسى يشق البحر بضربة من عصاه!

ويعنُّ لي أن أرى في معجزات الأنبياء وجهًا مختلفًا، لا سيما أن العذاب كان نتيجة غالبة للذين رأوا الآيات فلم يؤمنوا، كأن الآية تلك كانت الإنذار الأخير في جعبة النبي لقومه.

وظنِّي أن المعجزات كانت تأكيدًا أن ضعف النتائج التي يحققها بعض الأنبياء ليست من منطلق فشلهم في عرض رسالتهم، أو ضعف منطقهم، أو انتهاء حيلهم الفكرية، وإنما لتعنت عاطفي قائم، لا دخل له بالعقل والمنطق، وإلا لكانت المعجزة حاسمة في أمر إيمان الناس وتصديقهم.

فلو قلنا جدلًا إن نوح لم يستطع إقناع ابنه بالرسالة، فما الذي كان يحتاج إليه الابن دليلًا أكبر من رؤية طوفان غير منطقي ولا متوقَّع يجتاح الصحراء والسفينة الوحيدة التي يمكن أن تنجده تلك التي بناها أبوه من أجل يوم كهذا؟ وما

الذي يحتاج إليه فرعون وجنوده أكثر من رؤية رجل يشق البحر بعصاه؟ وأيُّ دليلٍ على صدق رجل أبلغَ من أن يمسح على الوجه فيبصر الأعمى؟!

إن ابن نوح، وفرعون، وقوم عاد، وقوم ثمود، وغيرهم ممن كفر بالآيات لم يكونوا بحاجة إلى المزيد من المنطق، ولا المزيد من الآيات، ولا المزيد من الرسل، المشكلة كانت قائمة بداخلهم هم، كانوا بحاجة إلى المزيد من العقل، المزيد من الجرأة، المزيد من الجسارة، المزيد من الإنسانية.

ولعل هذا ما عناه جان جاك روسو حين قال: «لو أفرغنا رسالة عيسى من المعجزات لصارت أكثر تأثيرًا وعبقرية!».

الرجل هنا يتحدث عن العقل والمنطق، ويرى أن رسالة الله لنبيه عيسى كانت تحتوي على قوتها المعتمدة على المنطق وحسب.

بيد أن أكبر تحدٍّ مرَّ على النبي محمد في فتراته الأولى أنه جاء بعد سلسلة من الأنبياء تسبقهم معجزاتهم الحِسِّية، وفكرة وجود نبي بلا معجزات بَدَت غريبة على قومه، واستطاعوا استثمارها في الهجوم عليه.

وأتى القرآن ليحسم هذه النقطة، بتأكيده أن كل المعجزات التي أعطاها لأنبيائه من قبل تمت ترجمتها على أنها سحر من عمل الشيطان، حيث قال الناس لعيسى عندما ظهرت آياته المُعجزة: «إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ»، وقالوا لموسى: «فَلَمَّا

جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى»، فما الداعي إذن أن يمضي النبي في نفس الطريق، لا سيما أنه تم وصفه بأنه «ساحرٌ كذَّاب» وتم وصف كلام ربه بأنه «سحرٌ مبين»؟!

بل يمكننا أن نرى الأمر من زاوية أكثر براحًا ونؤكد أن عدم وجود معجزات كان من قبيل قَطْع الطريق على قريش، ونسف حجة السحر الجاهزة لديهم، وجعل الأضواء كلها مُركزة على مضمون الرسالة بعيدًا عن الخوارق والمعجزات، وتأكيد الأسلوب الفريد لدعوة الإسلام وأنها قائمة على التأمل والمشاهدة والتجريب والحجة والبرهان، حتى إن معجزةً مثل الإسراء والمعراج لم تكن ردًّا على أحد، فلم يقل النبي إنه قد صعد إلى السماء ردًّا على طلبهم، بل كانت تكريمًا للنبي، ولقد اتخذها المشركون سبيلًا لمهاجمة المسلمين وتشكيكهم في نبيهم.

دَعْكَ بطبيعة الحال من أن رسالة النبي محمد تختلف بشكل كامل عن كل الرسالات التي سبقتها، فهي رسالة للناس كافة، وستعيش حتى آخر الزمان، وها نحن اليوم بعد أكثر من ألف وأربعمئة عام نرى أكثر من مليار ونصف المليار في كل بقاع الدنيا يؤمنون بهذه الرسالة، وعليه فإن رسالة بهذا الطموح لا تكفيها معجزة آنيَّة تتحقق، بل كانت تحتاج إلى مثل هذا العنت من جانب المختلفين، ونفس هذا الإصرار من جانب الرسول كي تتأصل منهجية الدعوة

في قادم الأزمان، منهجية قائمة على طرح الأفكار والحوار والنقاش والجدل، وعلى أتباعها إن أرادوا نصرًا أن يتسلحوا بالمنطق في مواجهة العنت، والطرح العقلي أمام شطط التفكير، والنظرة الناقدة تجاه الشكوك القائمة.

في كل الديانات السابقة كان الإيمان يأتي بعد المعجزات، لكن الإسلام كان فريدًا؛ المعجزة فيه لاحقة تتبع الإيمان، معجزة فكرية تضرب العقل، وليست خروقات مادية باعثة للدهشة والتعجب.



كان هبوط جبريل على النبي محمد أمرًا مزلزِلًا، وحدة الرجل في كهف بعيد أيامًا وليالي طويلة شحذت حواسّه، وأصابت روحه بحالة من السكينة جعلت تقبله لأمر خارق كهذا مزلزلًا، سيما وأنه وحيد بين الجبال، ولا دعم يمكن أن يطلبه الرجل أمام ما يراه ولا يعلم حقيقته من وهمه إلا انضباط سلوكه واتزانه النفسي والعقلي، وعلى ما نعرفه من ثبات الرجل إلا أنه جزع وارتبك وخاف، هبط مسرعًا إلى زوجته خديجة ليخبرها بما حدث معترفًا بمشاعره كلها قائلًا «لقد خشيتُ على نفسي».

فما كان من خديجة إلا أن قامت بكل ما يؤكد أنها كانت امرأة استثنائية، فقدمت الدعم النفسي والروحي والعاطفي لزوجها، أكدت له أنه عظيم الشأن في نظر أهل الأرض، عظيم القيمة في ميزان السماء، هدّأته كثيرًا، ثم قامت من فورها

وذهبت إلى العجوز ورقة بن نوفل، كان ورقة من أقاربها المشهورين برفضه لضلالات قريش، القارئ في الديانات، المتعمق في المسيحية، فما إنْ سمع كلامها حتى أكد لها أن ما حكته ينبئ ببوادر نبوة متوقَّعة، ثم قال لها ـ ومحمد يستمع: «يا ليتني كنت حاضرًا حينما يخرجك أهلك»!

انتبه محمد لقولته، إنه يبشِّره بالحرب والطرد، فقال مندهشًا: «أومخرجيَّ هم؟!».

فحسم ورقة الأمر مؤكدًا: «لم يأتِ أحدٌ بما أتيتَ به إلا عودي».

حيرة النبي محمد وتعجبه لم تأخذ الوقت الطويل، قدرة الرجل على استيعاب الأمور كانت كبيرة، وكل خطواته القادمة ترينا كيف أنه تعامل بذكاء مدهش مع معطيات الواقع، واستطاع أن يدير معركته الشرسة بنباهة وصبر لا يتوفر إلا للعظماء من البشر.

أعيدُ تأكيد أنني مهتمٌّ بمعرفة أساليب الرجل البشرية، فتلك لَعَمْري هي الوسيلة الوحيدة لفهم النبي محمد، تتبُّع خطواته، وفهم استراتيجياته، واستيعاب فلسفته العامة في الحياة هي لا غيرها الطريقة المثلى لفهمه وفهم تعاليمه وأفكاره.

ولقد ظهر هذا جليًّا بعدما اطمأن الرجل إلى حقيقة ما حدث له، وتأكد من أنه

نبيٌّ مصطفى من قِبل السماء، وعليه بنى خطته في نشر فكرته على ثلاث مراحل مهمة:

المرحلة الأولى ـ تلمُّس الواقع المحيط، واكتساب أتباع مخلصين، مؤمنين، قادرين على صنع النواة الأولى، وعليه كانت الدائرة الأقرب سواء من الأهل أو الأصحاب المقربين، سيبرز عندنا هنا خديجة، والفتى عليّ، والمولى زيد، والعمّة صفية، والزبير بن العوام، ومن الأصدقاء سنرى اللاعب الأهم عتيق بن أبي قحافة «أبا بكر»، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله.

المرحلة الثانية ـ عشيرته الأقربون، ولدينا هنا اختلاف تاريخي بين المؤرخين، هل بدأت الدعوة الجهرية عندما وقف النبي على جبل الصفا مناديًا على عشيرته بعدما جاءه الأمر «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»، أم أن بداية الجهر كانت بعد ثلاث سنوات من بعثته وامتثالًا لأمر ربه «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»؟

وما أراه أن النبي محمد وبعدما اطمأن إلى دائرته الأقرب، قرر أن يتوجه بخطاب في ظاهره نخبوي، وفي باطنه عام، حيث إنه عندما قرر أن يجتمع بقبيلته لينذرهم لم يرسل لهم ليلاقوه في صحن بيته، أو في جلسة خاصة، وإنما ناداهم وهو واقف على جبل، وعندما جاء الناس لينظروا ما الذي يقوله محمد، أرجعهم جميعًا إلا بني هاشم. غير أن تلك اللحظة على ما بها من خصوصية

كانت عامة، حيث انتشر أمر الرسالة بين الناس، دون أن تثير أزمات كبيرة في بدايتها، إنها مرحلة «جس النبض» بالتعريف الحديث، تهيئة للتربة كي تصبح أكثر استعدادًا لما هو قادم.

المرحلة الثالثة ـ كانت في الدعوة العامة، حيث الخروج إلى عموم الناس، ومقابلة الحجيج، والنزول إلى المجتمع بشكل واضح، كان يدعو ليلًا ونهارًا، الأحرار والعبيد، في المجالس والأسواق، في قلب مكة وحول شعابها.

وحينما جاء الأمر بهذا، كانت هناك ثلاث سنوات كاملة قد مرت، هناك جماعة مؤمنة بالدين الجديد، تستخفي في شعاب مكة لتصلي، وتتذاكر، ويشد بعضها أزر بعض.

ويتكرر السؤال، ويجب أن يتكرر دائمًا: ما المثير في دعوة الرجل؟ ما المدهش؟ ما الشيء الذي آمن به الأرستقراطي عثمان بن عفان، والعبد بلال بن رباح، واحتل كيان رجل الأعمال أبي بكر، وأثار شغف سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والأرقم بن أبي الأرقم؟!

حتى هذه اللحظة مغارم الفكرة باهظة، وتبنِّي المرء لها سيجعله منبوذًا، فما المثير فيها إذن؟ ولماذا التحمت بها تلك العُصْبة الأولى؟

الشواهد كلها تقول إن قوة الفكرة كانت في ثلاث نقاط مهمة: سيرة الرجل

بين الناس من جهة، حيث إن الداعي للفكرة كان من أصحاب الضمائر الحية، والسيرة الحسنة، والخلق الراقي، وتلك صفات لا يسعنا الالتفاف حولها أبدًا.

فعلى كثرة أعداء الرجل لم نسمع بشبهة طالت سيرته، وحتى تُهَم «السحر، والجنون» التي رموه بها، هي تُهَم عقلية وليست نفسية أو أخلاقية، ومعلومٌ لأهل مكة ـ على الأقل ـ أنها غير ذات حيثية في الصراع القائم، ولم يصدقها عموم الناس.

ثم تأتي ثانية النقاط في قوة الدعوة، وهي منطقيتها وقربها من الفهم المستقيم، قلنا سابقًا إن تعاليم الرجل كانت أخلاقية في المقام الأول، وتَعْمَد إلى تأكيد قيمة الإنسان وحريته وكرامته، وغيرها من المعاني التي لن تَعْدَم نفسًا مستقيمة تتقبلها وتؤمن بها.

ثم النقطة الثالثة والأكثر أهمية، هو ما يتلوه عليهم من كلام الله، نحن هنا نتعامل مع أناس يعرفون اللغة جيدًا، ولديهم قدرة على استيعاب المعاني والمفردات، في طبيعتهم حس ناقد تجاه التراكيب اللغوية، وعليه كان ما يتلوه النبي محمد من آيات له عامل نفسي ووجداني مهمّ في تصديق الفكرة والإيمان بها.

وَدَعُونا نَذْكرْ شاهدًا على هذا في قصة إسلام واحد من بني غفار يسمَّى «أبا ذرٍّ الغفاري»، ذلك أنه عندما سمع بأمر الدين الجديد أتى ومعه أخ له، فوقف

على أطراف مكة وأرسل أخاه ليستطلع الخبر، وعندما رجع الأخ قال: «رأيت رجلًا يدعو إلى الفضائل والمكارم، ويقول كلامًا لا يشبه الشِّعر»، فقال له أبو ذر: «ما شفيتني»، ثم هبط بنفسه وجلس ثلاثة أيام يتلمس أثر محمد، ويستمع إلى أحاديث الناس، ويحاول فهم ما يحدث، فالتقى الفتى عليّ بن أبي طالب، وحدث بينهما حديث كانت نتيجته أن ذهب به إلى النبي، وما إن استمع إليه حتى آمن به من فوره، فقط بعدما استمع للقرآن وعرف بعضًا من وصايا الدين الجديد وتعاليمه، وسنجد مثل هذا الموقف كثيرًا، حيث كان القرآن وسحره عاملًا مهمًا في إيمان كُثُرٌ من العرب وقتها.

نعود إلى النبي محمد لنؤكد أنه وطوال السنوات الأولى كان يتحمل وحده تكاليف الدعوة، محاولًا قدر الإمكان إبعاد الأتباع عن الصدام المبكر مع المجتمع، لذا لم يكن متحمسًا لطلب صديقه أبي بكر المجاهرة بالفكرة والخروج في حشد من الأتباع، غير أنه فعلها ذات مرة، ربما لجسّ النبض، حيث خرجا كثنائي، الصديقان «محمد وأبو بكر» ذهبا إلى الكعبة، جلس محمد وقام أبو بكر يخطب في الناس حتى أسكتوه وضربوه، فكان أمر النبي لأتباعه أن تظل دعوتهم داخلية كمرحلة أولى.

واستمر قطار الدعوة يمضي بهدوء، يظنه الأتباع بطئًا، غير أن القائد كان مدركًا للطبيعة البشرية الملولة، وآفة البشر في استعجال النتائج، فكان دائم التذكير

على أن الطريق طويل وشاقّ، محذرًا من الاستعجال، منبهًا إلى حقيقة مهمة جدًّا، أن الأتباع في زيادة، وأنه لم يدخل في دين الإسلام أحد ثم نكص عنه... هذه دعوة تضرب في الوجدان فلا تنفلت منه أبدًا.

بكل المقاييس ما أتى به النبي محمد كان ثورة إنسانية، اجتماعية، فكرية، غير أنها - غير كل الثورات المعروفة - لم تلعب على وتر الحماسة الغالبة، والانفعالات الهائجة، والصواعق المرسلة، ولو أراد فعلها لنجح فيها يقينًا، غير أن حسابات أهل المبادئ والعقائد تختلف عن حسابات الثوار الطامحين إلى قلب الطاولة مللًا أو غضبًا، إن طريق العظماء أصحاب الأفكار الكبيرة يكون أطول وأشقّ، ونتائجهم أبطأ، لكنه الأسلوب الوحيد الذي يجعلهم جزءًا من الفعل لا رد الفعل، ويجعل قيادة المشهد كاملًا في أيديهم حتى وإن طال زمان المحنة.

وعليه كان النبي محمد حريصًا طوال الوقت على أن يُرشِّد الحماسة، ويصادر الانفعالات لحساب الأهداف المرجوّة، ويركز على النتائج دون أن يفصلها عن الأسلوب، كان الأمر واضحًا وبشدة؛ سنستمر في التأسيس الدؤوب لدعوتنا العظيمة، وبكل الأساليب المشروعة.

وتلك لو تدري كانت معضلة قريش وأزمتها، فثبات الرجل وأتباعه كان مثيرًا للدهشة، كان يملك قدرة عبقرية على وضع قواعد للعبة تضمن له السيطرة على المشهد، رغم كل ما يُبذل من عنف وتشهير وضغط مستمر.

الأمر الواقع

في أدبيات علم التفاوض أن الأمر الواقع له قوته في أي نقاش، وأن المكاسب المتحققة على الأرض تقفز بالمفاوضات إلى مراحل تالية، وتخفض كثيرًا من سقف المأمول للطرف الآخر.

كان النبي محمد يعرف هذا جيدًا، وعليه انشغل كثيرًا في كسب أرض لفكرته، تنقله من مرحلة الاستهزاء والاستخفاف المباشر، والتعذيب والتنكيل المستمر، إلى مرحلة مناقشة الفكرة ووضعها على طاولة المفاوضات، لا لشيء إلا من أجل نقل المعركة إلى الساحة الأهم، وهي ساحة الجدال والنقاش.

كان مدركًا أن أزمة رسالته في نفوس الناس قائمة على الاستنكار لا الإنكار!

الإنكار منطقيٌّ ومتوقَّع، أن يرفض الناس فكرة جديدة شيء لا يمكن أن يكون

مفاجئًا، هذا أمر نراه كل يوم وساعة، لكن الاستنكار أمر مختلف، إنه دافع سلوكي عدائي تجاه الفكرة، وتحفز موجه نحو من يقول بها أو يؤمن بمبادئها.

استنكار قريش كان عنيفًا للأسباب التي ذكرناها، سواء العداء التاريخي تجاه عائلة النبي محمد، أو للأسباب الاقتصادية والأدبية التي رأوا أنها تعادي النظام القائم وتدخلهم في عالم مجهول، وبقوانين لم يعرفوها.

أمام هذا كانت فكرة الدعوة السرية، فالإيمان يجب أن يكون في الخفاء، العبادة كذلك بعيدًا عن العيون، لا بأس من أن يكون لقاء الأتباع مع القائد نادرًا، حتى إنه حدث يومًا في اجتماع سرِّي أنْ قال أحدهم: «والله ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجهَر به من قبل»، فقال عبد الله بن مسعود من فوره: «أنا سأُسمعهم به!»، فحاولوا منعه قائلين: «إنما نريد رجلًا له عشيرة يمنعونه من العدم إذا أرادوه»، فقال لهم في إصرار: «دعوني، فإن الله تعالى سيمنعني».

ثم قام ابن مسعود حتى إذا كان الضُّحى، وقريش في أنديتها، نهض وقرأ بصوت عالٍ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ بُهِتَ الناس لما يسمعون، حتى قال أحدهم: «إنه يقرأ قرآن محمد»! فانهالوا عليه ضربًا وهو يقرأ، حتى إذا ما عاد إلى أصحابه عاتبوه أن ما خشوه قد حدث، فقال بإصرار مضاعف: «ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم

لأعاودنَّها عليهم غدًا»... فقالوا له: «حسبك، حسبك... لقد أسمعتهم ما يكرهون»!

هذا المشهد يؤكد لنا أن دعوة الرجل كان سرِّية، ويؤكد كذلك أن غيظ قريش من جهر أحدهم بإعلان إيمانه بدين محمد كان شديدًا لأنه يذهب إلى تأكيد فكرة سريان الدعوة، ومن ثم أسلوب الأمر الواقع.

إلى أن كانت اللحظة الفارقة، والتي نقلت الدعوة إلى مرحلة أهم تتعدى فكرة الاستخفاف وتدخل في طور الحدث القائم، بدأها حمزة، عم النبي محمد وأخوه في الرضاعة، وثبَّتها عمر بن الخطاب، فصار الأمر بعده غير ما قبله.

لا وقائع ثابتة تخبرنا عن التفاعل النفسي من قِبل حمزة تجاه دعوة ابن أخيه، غير أن التحليل المتأني لمواقف الرجل تؤكد أنه شخص ذو بأس، فارس له ثِقل، صاحب حضور واحترام بين الناس، بالإضافة إلى نزعة دينية تتملكه، حيث كان الطواف بالكعبة طقس ثابت لديه.

وَدَعُونا نذهبْ سريعًا إلى الظهور المباغت لحمزة وأثره الكبير في دعوة ابن أخيه، بدأ الأمر بمشاكسة يومية من أبي جهل مع النبي محمد؛ سبَّه وأغلظ في القول له كالعادة.

مأمورًا بالإعراض عن الجاهلين لم يردّ النبي محمد على أبي جهل، فزاده هذا

حنقًا ونزقًا وسفهًا، حتى اجتمع الناس يستمعون إلى بذاءة الرجل، وينقلون البصر بينه وبين محمد الهادئ عَفٍّ اللسان.

في ذلك الوقت كان حمزة عائدًا من رحلة قَنْصٍ، وقد كان مشهورًا برحلات صيده، وكعادته لم يرجع إلى بيته مباشرةً، وإنما ذهب إلى الكعبة فطاف بها، ومر على أندية قريش يتحدث مع الناس، حتى جاءته امرأة كانت قد شهدت واقعة الإهانة التي قام بها أبو جهل ضد ابن أخيه محمد، فقالت له بلهجة آسفة: «يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم آنفًا، لقد وجده جالسًا فسبَّه، ونال منه ما يكره، كل هذا ومحمد صامت لا يرد عليه».

يقينًا كان حمزة مدركًا للصعوبات التي يلاقيها ابن أخيه في ما يختص بدعوته التي جاء بها، غير أن الموقف هذه المرة كان مباشرًا، يصعب على ذوي النفوس الحرة وأصحاب المروءة، بل ويتنافى مع القبلية والعصبية التي ما زال يؤمن بها حمزة، وعليه امتلأت نفسه غضبًا، وبَرَقَت عيناه حتى كاد الشَّرر يخرج منهما، وقام من فوره يبحث عن الرجل الذي تعرض لابن أخيه، فما إن وجده بين قومه حتى وقف أمامه مباشرة، ودون مقدمات رفع القوس الذي كان في يده وهبط به على رأس الكبير أبي الحكم فشجَّه، ثم صرخ صرخة تليق بأسد غاضب: «أتسب محمدًا وأنا على دينه، وأقول ما يقول... هيّا، ردّها عليَّ لو استطعت»!

على الفور قام رجال من بني مخزوم ليدافعوا عن أبي جهل، لكنه أوقفهم وهو يتلمس أثر الضربة على رأسه: «دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا!».

خرج حمزة وقد استبدل بغضبه حيرة، لا يدري كيف يتصرف، إنه ليس أرعن كي يقول شيئًا ويتراجع عنه، كما أنه ليس على دين محمد.

بات حمزة ليلتها يتقلب على فراشه وقد ضاق صدره، وأعجزته حيلته عن تلمس مخرج مما هو فيه، حتى إذا ما أصبح ذهب إلى ابن أخيه يحدِّثه، وقد قرر أن يعطي لذهنه فسحة من التأمل في ما يقوله الرجل، فإما إيمانًا حقيقيًّا، واتباعًا عن يقين، وإما بحثًا عن حيلةٍ ما للخروج مما هو فيه، ولن يتقرر شيء قبل أن يجلس ويستمع... وهو ما كان.

تلقّى محمد حمزة بالبِشر، وناقشه، ورد على أسئلته، وأسمعه من القرآن، وبيَّن له أصول الفكرة وحدودها، فَبَرَقَت عينُ حمزة، شعر بطمأنينة روحية ترجمها بقوله: «أشهد أنك الصادق، فأظهِر يا ابن أخي دينك، فوالله ما أُحبُّ أنَّ لي ما أظلَّته السماء وأنا على ديني الأول».

وهذه العبارة تفسر حجم اليقين الذي لفَّ حمزة بعد لقائه هذا، لقد حسم أمره وقرر أن يكون على دين ابن أخيه، وبالأسلوب الذي بدأت به القصة... الصدام.

لأول مرة في تاريخ دعوة الإسلام تكون هناك ندِّية في التعامل، رد فعل عنيف مقابل، غير أن هذا كان - في يقين النبي محمد - جزءًا غير كافٍ للتحول، نعم حمزة مهاب الجانب، لكنه يظل رجلًا واحدًا.

لا يعرف أحد متى كان إسلام حمزة بالتحديد، لكن الشواهد تؤكد أنه كان قريبًا من إسلام عمر، ولقد أسلم عمر في العام السادس من البعثة، بعد وقت قليل من هجرة المسلمين إلى الحبشة.

تلك الهجرة التي سمح بها النبي لبعض أتباعه تلمسًا لأرض جديدة ربما تصلح محضنًا أو نقطة انطلاق، أو على الأقل حصنًا آمنًا من الأذى، وفوق هذا تعد خطوة استراتيجية في تشتيت تركيز العدو، وهو ما حدث حينما أرسلت قريش إلى النجاشي حاكم الحبشة كي يسلمهم أتباع محمد، وهي خطوة على ما يبدو فيها من الضعف وانعدام الحيلة، إلا أنها كانت تصبّ في خدمة الهدف القادم... فرض أمر واقع.

وهل هناك أوقع من أن ترسل قريش وفدًا دبلوماسيًّا ليقابل ملك الحبشة، وتتفاوض من أجل عودة الفارّين، ثم خيبتهم من رفض النجاشي، وزيادة خطواتهم الفاشلة في محاربة الرجل خطوة أخرى؟!

نعود إلى عمر بن الخطاب، الشاب الذي ضربت القبلية قلبه فأنبتت تعصبًا ورعونة، يحمل طبائع نفسية مخيفة: شديد، قاسٍ، عنيف، يميل إلى الصدام

كأسلوب محبب في إدارة أي شأن، ندرة من المقربين من عمر الذين يعرفون أن كل هذه الصفات على تفجُّرها لا تعبِّر عن نفس عمر الحقيقية، إنه يحاول إخفاء عواطف نفسية ربما يراها مرذولة في بيئته البدوية كالشفقة والعطف، وفي ما سنحكيه تفسير لما قلناه.

دخول عمر لفصول قصة الإسلام بدأت من مشهد فرعي، لو اقتربنا سنجد في صدارة المشهد امرأة اسمها «أم عبد الله بن خثعمة» تتجهز للسفر إلى الحبشة، وبينما هي واقفة تعيد ترتيب متاعها القليل، إذا بها ترى عمر يقف بعيدًا متابعًا لها، وقد فطن إلى ما تفعله، فما إن رأته حتى لفَّها شيء من الارتباك، إنها تعرف عمر جيدًا، إنه من الفئة التي تعذب المسلمين بيدها، لم يكتفِ بدور العداء للفكرة، وإنما هو من المناهضين والمحاربين لها. بيد أن ما فاجأ المرأة هو تلك اللهجة التي قابلها بها عمر، حيث أشار برأسه إلى المتاع ثم قال مستفسرًا: «إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟».

فأجابت بلهجة محتدّة علّها أرادت منها أن تُخفي ارتباكها: «نعم، والله لنخرجن في أرض الله، لقد آذيتمونا، وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا».

صمتت المرأة، وصمت عمر، لكن ما أشعل بركان الحيرة والدهشة في صدرها تلك الرِّقّة التي ظهرت على وجه ابن الخطاب، ذلك الأسف الذي بان في حروف كلماته وهو يقول لها مودِّعًا: «إذن، صحبكم الله».

أقبل عليها ابنها عامر فرآها مشدوهة، قبل أن تقول له بعين زائغة: «لو رأيت عمر بن الخطاب آنفًا، ورقَّته وحزنه علينا».

ثم صمتت والحيرة لا تزال تلفُّها، غير أن تلك الحيرة اصطدمت باستنكار عامر، إذ سألها غير مصدق: «أَطَمِعتِ في إسلامه؟!»، فأجابت بلهجة خافتة مترددة: «نعم».

وكأنه يريد إيقاظها من أحلامها، قال مستهزئًا: «لا يسلم إلا إذا أسلم حمار ابن الخطاب».

في هذا المشهد تظهر لنا الصورة الذهنية عن عمر، إن عداوته الشديدة للإسلام كانت باعثة على اليأس من مجرد طرح فكرة إيمانه بالدين الجديد، وفي نفس الوقت، هذه اللحظة الخاطفة بحوارها القصير تكشف جانبًا من الشخصية العمرية، جانب الحس والشعور؛ أساه الظاهر هنا لم يكن تعاطيًا مع الإسلام، ولا قبولًا به كفكرة، أبدًا، بل على العكس ربما كان هذا المشهد باعثًا على مزيد من الحنق تجاه محمد ودينه، وتحميله المسؤولية عن الاضطراب الذي يحدث في مجتمع قريش، ويُذهب بتماسكها، لكنه في ما يبدو هو عداء قبلي أرعن، عداء مبنيٌّ على ردة فعل تجاه طرح مختلف، عداء ككثير من عداءاتنا الحاضرة لو أُتيح له أن يرى نور الحوار والمنطق لانطفأ ولربما تحول إلى حب وتأييد.

ولا شيء أسوأ من الغضب إذ يستعر في الصدر، ويذهب بالمرء منا إلى ارتكاب الحماقات...

ذلك أن أسى عمر السابق دفعه إلى أن يفكر في إنهاء أمر محمد، فأخذ سيفه ومضى في طرقات قريش يسأل عن مكانه، حتى إذا ارتاب بعضهم من منظره سألوه عما يريد، فقال بغضب: «أريد محمدًا، هذا الصابئ الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله»، فاستنكروا ما قاله عمر، وحذَّروه من أن بني عبد مناف لن يدعوه يمشي على ظهر الأرض ساعة إنْ هو فعلها، وأمام تحفزه وإصراره قال أحدهم ولعله يريد صرفه عن ارتكاب حماقة غير محسوبة: «أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، أختك فاطمة وابن عمك سعيد بن زيد، لقد تبعا محمدًا وآمنا بدينه».

وكأن هذا ما كان يحتاج إليه عمر، زلزال مفاجئ أصابه، فرجع إلى بيت أخته فاطمة وهو غير مصدق، وما إن اقترب من بيتها حتى هدّأ من وقع خطواته، وأدنى أذنه من الباب فسمع صوتًا يتحدث بكلام غريب، فطرق الباب مناديًا على أخته، التي كانت تجلس مع زوجها في حضرة زميلهما في الدعوة الجديدة خباب بن الأرت وهو يقرأ عليهما من صحيفة بعض آيات القرآن.

حالة من الجزع انتابت الجمع، وبسرعة اختبأ الخباب في مخدع لهما، بينما وضعت فاطمة الصحيفة تحت فخذها، وقام زوجها ليفتح الباب لعمر، الذي دخل كالعاصفة مطيحًا بسعيد بن زيد صارخًا فيهم: «لقد بلغني أنكما على دين محمد»!

من فورها قامت فاطمة لتطمئن على زوجها الذي أطاح به أخوها، فتلقّتها كف الأخ فأطاحت بها وخلَّفت خيط دم لا يُعرف له منبع، وعندها قام سعيد وفاطمة وهما ينظران إليه بتحدٍّ قائلَين: «نعم، قد أسلمنا، وآمنّا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك».

وللمرة الثانية ينكشف لنا شيء من طبيعة عمر الأصيلة، ذلك أنه لم يكمل اندفاع غضبه، لقد آذته الصفعة التي قابل بها فاطمة، وأجزعه مرأى الدم إذ جرى على وجهها.

عمر هنا مرتبك، ثمة حرب نفسية قائمة بين مشاعره الأصيلة وطبيعته التي يغالب كي يفرضها على جوارحه، أخذ نفسًا ثم أشار إلى الصحيفة التي تمسكها فاطمة بقوة، وقال بلهجة هادئة: «أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفًا، أنظر ما الذي جاء به محمد».

غير أن فاطمة رفضت، فأقسم لها بالآلهة أنه سيعيدها إليها ثانيةً، فاستأذنت منه أن يغتسل قبل أن يمسكها لأنه في عقيدتها كلام لا يمسه إلا المطهرون، والغريب أن عمر فعلها، وعاد ثانية فقرأ، ثم تمتم مشدوهًا: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه».

في هذه اللحظة فوجئ عمر بمن يخرج من إحدى الغرف مبتسمًا، إنه الخباب بن

الأرت، فسأله عمر عن مكان النبي ليسمع منه ويسلم، فأخبره عن بيت عند الصفا، هناك سيجد النبي مع بعض أصحابه.

بسرعة خرج عمر لملاقاة النبي، ما زال سيفه الذي خرج به أول الأمر بيده، فما إن طرق الباب ورآه أحد المسلمين واقفًا ممسكًا بسيفه حتى عاد إلى النبي محذِّرًا.

كان حمزة جالسًا، فأشار إلى الباب قائلًا: «ائذنوا له، فإن كان يريد خيرًا بذلناه، وإن كان يريد شرًا قتلناه بسيفه»، نظر القوم إلى النبي، فأشار إليهم أنْ أدخلوه.

فُتح الباب ودخل عمر، فقام له النبي، وأمسك بتلابيب ردائه في حزم قائلًا: «ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى حتى يُنزل الله بك قارعة».

فقال عمر: «جئت لأؤمن بالله ورسوله».

فكان أنْ كبَّر النبي تكبيرًا سمعه أهل البيت، وعرفوا من فورهم أن ثمة نصرًا قد تحقق، والحقيقة أن فرحة النبي محمد كانت في محلها، فإسلام عمر كان فارقًا، واكتملت بانضمامه ملامح الخطوة القادمة.



عمر

وعمر هنا ليس اسمًا لشخص، وإنما إجمالٌ لما خبره الناس من اندفاعة الشجاعة، وقوة الحق، وملامح العزة، وشدة البأس.

عمر الذي سمَّاه النبي محمد «الفاروق»، نظرًا إلى الفارق الذي صنعه بانتمائه إلى الدعوة، عمر أحد أهم الأعمدة التي استطاعت دعوة الإسلام أن تكشف مخبوء كنوزها، وتدفعه إلى إظهار كل قوته النفسية والأخلاقية والقيادية، وتنظف شوائب روحه من كل أثر جاهلي، وسلوك قَبَلي.

عمر... جاء في الوقت المناسب...

يؤكد عبد الله بن مسعود أنّ «ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم قاتل قريشًا، حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه».

ذلك أنه وفور إيمانه بالدين الجديد، توجه إلى النبي محمد بسؤال: «يا رسول الله، علام نخفي ديننا ونحن على الحق، ويظهرون دينهم وهم على الباطل؟!».

نظر النبي حينها إلى عمر، إنها الروح الجديدة التي كانت تحتاج إليها دعوته، ثم أجابه: «إنّا قليل، وقد رأيت ما لقينا».

وكأن عبارة النبي أتت كالصفعة على وجه عمر، فما يشير إليه قائده عن الأذى السابق، كان عمر أحد القائمين عليه، فكان أنْ رد على نبيه بحسم وسرعة: «والذي بعثك بالحق، لا يبقى مجلس جلست فيه أنادي بالكفر، إلا أظهرت فيه الإيمان».

صمت النبي وأصحابه، فقام عمر مستئذنًا، غير أنه رمق أبا بكر بنظرة غامضة... ثم انصرف.

من فوره توجه إلى الكعبة فطاف بها، قريش ترقبه في شك، إن كلامًا يجري بين الناس يقول إن ابن الخطاب قد لحق بمحمد وآمن بدعوته، من بعيد لمح عمر أبا جهل وهو قادم إليه، والذي ما إنْ واجهه حتى قال له مستنكرًا: «يزعم فلان أنك صبأت؟».

جال عمر بعينه في الحضور، ثم خطا خطوتين ناحية رجل بعينه، ثم قال بصوت

عالٍ «أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله»، وفي اللحظة التي هجم فيها الناس عليه ليضربوه، اندفع وهم فوقه نحو الرجل الذي حدده، نحو عتبة بن ربيعة، ثم انهال عليه ضربًا!

وعتبة هذا كان واحدًا من أشد الناقمين على محمد، ومعروف إيذاؤه للمسلمين، بيد أن الواقعة الأكثر شهرة هو تجرؤه وضربه لأبي بكر، صديق محمد والرجل الأبرز في دعوة الإسلام.

وفي الوقت الذي ارتقى الناس فوق ظهر عمر غاضبين من إسلامه، كان هو - وهم فوقه - فوق عتبة ينهال عليه ضربًا وصفعًا، ثم دفع بسبابتيه في عين الرجل حتى علا صراخه وبكاؤه، فقام الناس من فوق عمر محاولين إنقاذ عتبة من يديه، ولكن بعد ماذا، لقد نال منه عمر وأهانه، وجعل ليلته قائمة.

وحين عاد عمر إلى قائده، كانت أخبار المعركة قد سبقته إلى النبي وأصحابه، بدا كأن عمر بخطوته تلك قد شفى صدورًا أنهكها استقبال الظلم بشكل مستمر.

كانت ابتسامة أبو بكر حاضرة، لقد أدرك سر النظرة الغامضة التي رمقه بها عمر حال ذهابه المرة الماضية، لكن عمر كان يخطط لما هو أبعد من ذلك، وما زال في رحم الأيام متسع لمخاضات جديدة.

بَرَّ عمر بقسمه للنبي؛ برنامجه اليومي كان قائمًا على إيذاء قريش، يظهر بغتة في مجالسهم ويرفع صوته بالشهادة أو يقرأ القرآن، وقبل أن يهمّ القوم بضربه يكون قد حدد هوية ضحيته، وكان دائمًا لا يختار إلا الكُبَرَاء وأشراف القوم، والمشهورين بإيذاء الدعوة... كان يضرب ويُضرب، لكنَّ نتائج المعركة الحقيقية لم تكن في الصفعات ولا اللكمات التي يخلِّفها الحدث، وإنما في الواقع الجديد، صوت الاستغاثات التي كان يطلقها أتباع محمد استُبدلت بها هجمات عنترية من عمر، بدا كأن هدف ابن الخطاب هو تصدير الهم والنكد إلى القوم، ولقد نجح في هذا إلى حد كبير.

فهل اكتفى عمر بهذا؟ بالطبع لا!

شخصية عمر لم تكن قادرة على هضم الحال الذي عليه أصحابه، طبيعته الحَدِّية كانت ترى الأمور بمنظار صارم وحاد، كان يؤمن بأن أقصر الطرق بين نقطتين هو الخط المستقيم، لا مهادنة، ولا كثير أخذٍ وردٍّ.

ومن حسن طالع الرجل أنه جاء في الوقت المناسب، وتحت قيادة عبقرية، فدعوة الإسلام لم تكن أبدًا لتتحمل حركة عمر السريعة في بدايتها، عمر يحتاج إلى مساحات أكبر في اتخاذ القرار، والحركة، والقيام بضربات مفاجئة، وكان هذا هو أنسب وقت لظهوره.

ثم علينا أن نعترف بأن كل عبقرية وموهبة عمر لم تك شيئًا من دون النبي محمد، لقد استطاع استثمار مواهب عمر بشكل فريد، وكان قادرًا على أن يلجمه ويحبس حركته في الوقت الذي يراه مناسبًا.

وكعادته، تقدم عمر نحو النبي وطلب منه أن يخرجوا جميعًا للصلاة في الكعبة، وتمت الموافقة على الطلب، خرج يومها المسلمون في صفين، على رأس كل منهما أسد؛ حمزة وعمر.

رأت قريش المسلمين، فراجعوا أنفسهم كثيرًا قبل أن يتعرضوا لهم، ما زال أثر ضربة حمزة تؤلم رأس أبي جهل، وآثار أصابع عمر على عيني عتبة، فتم المراد، وبدأت مرحلة جديدة، جديدة في نوعية الدعوة، وجديدة كذلك في نوع الاضطهاد الموجَّه إلى محمد وأتباعه.



لم تجد قريش بعد الخطوة الأخيرة بدًّا من مراجعة خططها، وتغيير الاستراتيجيات المتَّبعة مع الدين الجديد، الإيذاء والتهديد الفردي لم يعد وحده كافيًا بعد انضمام عناصر جديدة لا يصلح معها هذا الأسلوب، وعليه سلكت قريش ثلاث سبل مبدئية وهي:

- محاولة استمالة قائد الدعوة النبي محمد، ففي يقينهم أن لكل شيء

ثمنًا، ولكل شخص مطالب ومطامع، ربما منعهم غرورهم من التفاوض مع محمد سابقًا، بيد أنه لا مهرب الآن من فعل هذا.

- تفنيد الرسالة، بالجدال والنقاش، ومحاولة إحراج النبي.
- الضغط المستمر على أبي طالب، فما زال ظهر النبي محمد محميًّا بدعم عمه له، ولولا طريقة أبي طالب الدبلوماسية في منعهم عنه لربما انتهت الأزمة مبكرًا.

ولك أن تتخيل أنه وبعد ست سنوات تقريبًا من بدء دعوة الرجل فيهم تتنازل قريش أخيرًا وترسل من يتحدث مع محمد، بدأ الأمر بصرخة غضب أطلقها النضر بن الحارث فيهم: «يا معشر قريش، إنه والله لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب وجاءكم بما جاءكم به، قلتم «ساحر»، ووالله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعُقَدهم، وقلتم «كاهن»، ووالله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم «شاعر»، وواللهِ ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه، وقلتم «مجنون» وما هو بمجنون؛ فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم».

النضر هنا يكشف الأمور بوضوح أمام قريش، ببساطة يخبرهم أن حججهم الفارغة تلك لم تعد قادرة على دفع الأمر، المعادلة ببساطة تتعلق بإشكاليتين ـ وفق ما صرّح ـ أولى تتعلق بسمعة الرجل، والذي خبروا ذمته وأمانته، وبالتالي لا يصح أن نتهمه بشيء نعلم جميعًا أنه بَرَاء منه، وبالتالي لن يصدقنا أحد إن نحن قلناه.

والثاني يتعلق بالأسلحة التي تستخدمها قريش مع محمد؛ فكرة كونه مجنونًا، أو ساحرًا، أو شاعرًا، هذا عبط واستخفاف بالمصيبة التي يواجهونها، لا سيما أنت تتعامل مع مجتمع عربي يعرف جيدًا آثار المسّ في المجنون، وعليم بالشعر ومدارسه، حتى ترانيم الكهنة وسجعهم معروفة هي أيضًا... بدا كأن النضر يضعهم أمام مسؤوليتهم الجديدة، ويكشف لهم حجم الأزمة، ويهيب بغرورهم أن يتراجع قليلًا ليسمح لهم برؤية الأمور كما هي، قبل أن يختم حديثه مشددًا ومحذرًا: «انظروا في شأنكم... لقد نزل بكم أمر عظيم».

في تلك الليلة ـ وربما في ليلة لاحقة ـ قرر أحد أهم رجالات قريش أن يقوم إلى محمد، ويبدأ رحلة التفاوض، إنه عتبة بن ربيعة الذي أطاح به عمر سابقًا.

وعتبة هذا شخصية عجيبة، فهو عاقل وذكي وصاحب منطق، وله حضور وشخصية، ولكن المصالح غالبة، والعصبية القبلية عنده فوق العقل والمنطق،

وكما سمعنا فإنها دفعت به إلى أن يشتبك في مشاجرة بالأيدي مع أبي بكر الصديق، وكثيرًا ما حمل سوطه ليضرب ضعيفًا من أتباع محمد، ثم مؤخرًا طاله شرر نزقه واندفاعه بتأديب عمر بن الخطاب له.

ولعلها كانت ساعة عقل وحكمة تلك التي توجه فيها إلى قريش قائلًا: «ألا أقوم إلى هذا الرجل، فأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، ويكفّ عنا؟».

فأجابوه أنْ: «بلى يا أبا الوليد».

جمع الرجل العاقل كل أسلحة تفاوضه وذهب إلى النبي، فبدأ حديثه بشكل عاطفي قائلًا: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من الشطر في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم: فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به ما مضى من آبائهم، فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها».

صمت عتبة منتظرًا رد النبي محمد عليه، والحق أن النبي أبدى اهتمامًا ظاهرًا للرجل، هذا ما يطمح إليه صاحب أي رسالة؛ النقاش، والجدال، والمنطق، والتفاوض، والأخذ والرد.

وعليه أجابه النبي بهدوء: «قل يا أبا الوليد... أسمع».

فقال عتبة بوضوح: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به مالًا جمعنا لك

من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفًا سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل، حتى يتداوى منه».

صمت عتبة بعدما أنهى كلامه منتظرًا رد النبي محمد...

وبتحليل بسيط لما قاله عتبة سنرى ثلاثة ملامح مهمة:

الأول، هو اعتراف ضمني بقوة النبي محمد، وشدة الأثر الذي أحدثه.

الثاني، حجم الصلاحيات التي أعطتها قريش لعتبة، وذهبت به لطرح فكرة أن يتصدر محمد المشهد القرشي بأكمله شرط التخلي عن فكرته.

أما الملمح الثالث، فهو خبث عتبة وذكاؤه.

حيث بدأ حديثه بشكل عاطفي شرح فيه حجم الضرر الذي أحدثه النبي محمد في قومه، والذي نالهم من تسفيه أحلامهم، والاستهتار بآلهتهم، والعداوة التي سرت بين أبناء القبيلة الواحدة، والحقيقة أن كُثُرًا سقطوا في هذا الفخ، وغلبهم الخطاب العاطفي فأبدوا مرونةً ما أطاحت بهم بعد ذلك، ثم انتقل إلى الإغراء، طارحًا صلاحيات ومميزات لا سقف لها، هو يعلم جيدًا أن قبول محمد لأي منها يعني انتهاءه وانتهاء دعوته، يكفي أن يُشار إليه بعد ذلك بالمدِّعي، والكاذب،

وستكون هذه المرة عن حق وبأدلّة، ثم طرح في نهاية حديثه وبنفس الشكل العاطفي مخرجًا معقولًا بأن يكون هذا كله مجرد مرض، فدعنا نتعامل معه، ونبذل جهدنا ومالنا كي يعود إليك رشدك من جديد.

ولم يَخْفَ شيء من هذا على النبي محمد، الذي نظر في عين عتبة قائلًا بنفس الهدوء: «أَفَرَغْتَ يا أبا الوليد؟».

وكأنه يقول له: هل أفرغت ما في عجبتك؟!

وعندما أجابه بنعم، رد عليه: «اسمع مني... ».

وبحماسة مصطنعة قال له عتبة: «أفعل»!

فقرأ النبي بعضًا من آيات ربه:

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾

بخشوع حقيقي تلا النبي من الآيات إلى أن وصل إلى آية السجدة فسجد، كل هذا وعتبة يجلس مستندًا إلى يديه وقد أقامهما خلف ظهره، مركِّزًا على ما يقوله النبي، منتبهًا إلى ما في كلامه من رد على رسالته، حتى إذا ما انتهى من قراءته وسجد سجدته قال له: «سمعت يا أبا الوليد؟».

فرد عليه مشدوهًا: «سمعت».

فقال له النبي بلهجة حاسمة: «فأنت وذاك»!

ومضى عتبة إلى قومه والذين ما إن رأوه إلا وأيقنوا أن في الأمر أمرًا، حتى إن أحدهم قال: «لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذي ذهب به» ثم عاجله بالسؤال: «ما وراءك يا أبا الوليد؟!».

فقال عتبة: «ورائي أني والله سمعت قولًا ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلّوا بين هذا الرجل وما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تُصبْه العربُ فقد كُفِيتموه بغيركم، وإنْ يظهر على العرب فمُلكُه مُلكُكم، وعزُّه عزُّكم، وكنتم أسعد الناس به».

أُسقط في يد القوم؛ هذا الذي أرسلناه وأعطيناه كل الصلاحيات يعود ليحاول إقناعنا نحن بأن نترك محمدًا، بدلًا من أن يقنعه هو بأن يعدل عن دعوته! فقالوا له باستهجان: «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه».

فقال لهم بنفاد صبر: «هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم».



... وماذا لو لم يكن محمد نبيًّا؟!

سؤال ألح عليَّ يومًا...!

نحن كثيرًا ما نطالب أصحاب الديانات الأخرى أن يعيدوا ترتيب حساباتهم، وينظروا إلى هشاشة عقيدتهم! ويتفكروا قليلًا.

ولماذا لا أفعلها أنا ابتداءً...؟ لماذا أتعامل بتسليم مطلق في أمر عقيدتي، وفي نفس الوقت أتَّهم الآخر بأنه غير مدرك للحق ولا واعٍ بالحقيقة؟

كلانا ورث الأمر، ولعلي لو وُلدت ديفيد، أو مايكل، لكنت الآن في معبد ما، أو كنيسة هنا أو هناك!

لِأكُن شجاعًا إذن وأبدأ بنفسي!

ولأجل الوصول إلى معرفة دقيقة لأي دين، يتطلب أن يعرف المرء منا أولًا

صفات الإله الذي يدعو إليه هذا الدين، والمنهج أو الكتاب الذي جيء به، والرسول الذي حمل همَّ تقديم هذا النموذج للناس وسيرته ومعالم شخصيته.

ولقد يمَّمت وجهي ابتداءً شطر الرجل الذي بدأ عنده الأمر كله، وفي ظني أن كلمة السر تكمن لديه؛ لو أقنعني الرجل بما يقول واحترم عقلي وأجاب عن أسئلتي وتصالح مع القيم الإنسانية العامة، فيقيني أن أكثر من ثلث المشوار قد تم بنجاح... وسلامة.

نظرتُ بتأمل إلى التهم المثارة حوله؛ قالوا إن دعوته كلها كانت انتصارًا لقبيلته، وإنه جمع قرآنه مما سمعه من الرهبان، وإنه كان دمويًّا يستخدم السيف كي يُرغم الناس على الإيمان به... وضعت كل هذا في جانب من عقلي وسرت أتلمس الحقيقة، لا سيما أن النبي محمد رجلٌ لم يَعدَم أعداء، وبالتالي فكل الشبهات التي طالته كان لها داعمون، مما يعني توفر وجهة نظر تخالف ما آمنتُ به طوال عمري.

ركبت آلة الزمن وبذلت جهدي كي أعيش معه خطواته، خطوةً خطوةً، راقبتُ تصرفاته، نظرتُ في أحواله حال الشدة والفرج، تأملتُ موقفه عند الهزيمة والنصر، تقمصت دوره وهو يناقش ويجادل ويحاور.

باختصار، ما تقرأه الآن كان رحلة بحثي الشخصية في حياة الرجل...

هل كنت محايدًا؟ يقينًا لا... أعترف أنني لم أتخفف من حبي له، ولذلك لا أستطيع أن أدَّعي النزاهة المطلقة في الحكم عليه، عيني عين محب، لكن ما حيلتي وشخصية الرجل تُغرقني فيها بالكلِّية.

ماذا أصنع وأنا مُطالب بتقييم شخص غير عادي؟ أتذكر كثيرًا أنني كنت أردد في نفسي أنه حتى وإن لم يكن محمدًا نبيًّا لاتَّبعْتُه!

والأعجب أنني سأكون فخورًا بنفسي حينها!

بشكل شخصي، هذا هو النموذج الذي تمنيت أن أكونه في كل شأني، هذا هو الشخص الذي لو امتلكت عُشر إصراره، وإيمانه بمبادئه، وإخلاصه في إعلاء فكرته، وقدرته على القيادة، لكنت في عين نفسي عظيماً.

أما عن الشيء الذي دعاني للتسليم المُطلق برسالته، وعزَّز إيماني بأنه رسول من عند الله، فهو تحقُّق أصعب نظرية في السلوك الإنساني في شخص هذا الرجل، ألا وهي انعدام الفجوة بين ما كان يؤمن به وما يفعله، دائماً وأبدًا مهما كان الرجل عظيماً ستجد في سلوكه تناقضًا مع أفكاره السامية، فجوة قد تكبر وتصغر بين ما ينادي به وما يفعله، استدعِ أيَّ عظيم في ذهنك واتعب قليلًا وقم بهضم أفكاره ثم يَمِّم وجهك شطر سيرته وسترى الفجوة التي أعنيها، الاستثناء فقط يكون في أمر الرسل والأنبياء، لا يمكن أن تجد ازدواجية في

سلوكهم، ولن تُلجئهم الظروف مهما ضاقت وقست إلى التخلي عن منظومة القيم والمبادئ التي يومنون بها، ولا تدفعهم العداوة مهما اشتدت إلى الشطط وتبني سلوك عدواني متشفٍّ، ولو حتى في صدى نفوسهم، الله يصطفي رسله قبل أن يُخرجهم للناس... والعظيم محمد كان سيد المصطفين الأخيار.

هل رأت قريش مثلما رأيت؟!

الحقيقة أنها رأت فوق ما رأيت، لكنها حسابات المصلحة، وضغط الإرث، وروح العداوة كانت تتحكم في تصرفات الكُبَرَاء، وتمنعهم من الالتحام مع الفكرة.

حتى عندما حاول عتبة بن ربيعة أن يطرح حلًا منطقيًا بأن يتركوا محمدًا وشأنه، فإنْ غلبته العربُ فقد انتصروا دون أن يرفعوا سيفًا، ولو انتصر فسيُحسب هذا النصر في كفة قريش بالتبعية، فإنهم رفضوا رأيه، وقرروا أن يتحدثوا معه جميعًا، وعليه أرسلوا في طلبه.

ما إنْ جاء رسولهم إلى النبي محمد حتى لبَّى من فوره؛ أيُّ دعوة للحوار كان مبادرًا لاحترامها، هو لم يطلب من اليوم الأول أكثر من «خلُّوا بيني وبين الناس».

إن بضاعة الرجل كلها لا تعدوا أكثر من الكلام... وللكلام ثِقل وقيمة،

وكانت قريش تعرف جيدًا أن كلام محمد خطر كله، وأطروحاته كانت قادرة على احتلال مكانة قيّمة في ذهن المستمع، لهذا كانوا يرون في كلامه سحرًا، وهو والله سحرٌ في منطقه وبلاغته واستيعابه لمحاوره.

جاء النبي فوجدهم جلوسًا، بادرهم بالسلام فبادروه بقولهم: «يا محمد... إنا قد بعثنا إليك لنُعذَر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبْت الدين، وسفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرَّقت الجماعة، فما من قبيح إلا أتيته في ما بيننا وبينك، فإنْ كنت بهذا الحديث تريد مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا من الجن طلبنا لك الطب حتى نبرئك منه أو نُعذَر فيك».

ما الجديد...؟!

نفس لائحة الاتهامات: تكدير الصفو العام، إثارة الفتن والقلاقل، إهانة الأديان، تشويه الرموز.

نفس الإغراءات: ضع الرقم المناسب، اختر المكانة التي تريدها، قُلْ نُنَفِّذْ.

بيد أن رد النبي هذه المرة كان مختلفًا، إذ قال بهدوئه المعهود: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئت أطلب أموالكم والشرفَ فيكم ولا الملكَ عليكم، ولكن

بعثني الله إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلّغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإنْ تردوا عليّ، أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم».

نظر القوم بعضهم إلى بعض، ثم قال أحدهم: «حسنًا، إن كنت غير قابل ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من العباد أضيق منا بلادًا، ولا أقل مالًا، ولا أضيق عيشًا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بها بعثك به، فليسيِّر عنا هذه الجبال التي ضاقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارًا كأنهار العراق والشام، وليبعث لنا ما مضى من آبائنا، وليكن في من يبعث فيهم قصيّ بن كلاب فقد كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عما تقول أحقٌّ هو أم باطل، فإن فعلت ما سألناك وصدَّقوك صدَّقْناك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول!».

والسؤال: هل هذه المطالب منطقية...؟

سأحاول هنا أن أنظر من الاتجاه الآخر؛ أمامي رجل يقول إنه مبعوث من عند الله، حسنًا، أرنا شيئًا خارقًا يؤيد ما تقول، تحدثْ إلى ربك ليحيي لنا مَن مات من آبائنا ويوسع لنا في الرزق، ويغير وجه البلاد، ويحيل صحراءنا جنةً، ويُجري الأنهار من حولنا... أظنها مطالب عادلة؟!

بالطبع ليست عادلة أبدًا...

لكل لعبة أصولها، ولكل حوار أسس، وفي كل المناظرات هناك منهج يحدد إطارًا عامًّا لمنهجية الطرح.

رسالة النبي محمد حددت منهجها منذ اليوم الأول، دعوته قائمة على أسس واضحة؛ ما يختص بالعقيدة، وما يتعلق بالسلوكيات الأخلاقية، ومنظومة تعايش يرى أنها هي الأفضل والأسلم وتوفر السعادة لمعتنقيها.

عدم الإيمان بهذه الأسس والأصول أمر لا يزعج النبي أبدًا، إنه على أتم الاستعداد للشرح، والتفصيل، والنقاش، والاستماع، وكثيرًا ما فعل هذا وغير قليل منه مذكور في كتاب ربه.

ثم أين ننتهي؟! هذا يطلب نهرًا، وذاك يريد أن أحيي له جده الذي مات، وثالث سيربط إيمانه بجبل من ذهب، ورابع لن يؤمن حتى أزوّجه بفتاة أحلامه، ربما في سوق عكاظ يمكنهم أن يجدوا من يلبّي طلباتهم ويرتجل لهم الشعر على المقاس! هناك المكان متسع لما يطلبه المستمعون، أما هنا، فالطرح الوحيد هو الفكرة، واللاعب الأساسي هو العقل والمنطق.

وعليه، قال لهم النبي: «ما بهذا بُعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، وقد بلغتكم بما أرسلت به إليكم».

هنا نرى النبي يحدد القواعد، ويجيب بدقة على مطالبهم، لا شيء عندي مما تطلبون.

واستمر القوم في غلوائهم؛ أحدهم يطلب أن ينزل الله ملكًا من السماء، وثانٍ يطلب كسفًا من العذاب، وثالث يتعجب متهكمًا أن ربه لم يجعل له كنوزًا تكفيه المشقة في طلب لقمة العيش، ورابع يطلب منه أن يصعد إلى السماء ويأتي بكتاب ومعه أربعة ملائكة يصدقون عليه!

والنبي يجيب عليهم بنفس المنطق، وأنه مبعوث برسالة واضحة، وأن مطالبهم تلك ليست من شأنه.

الشاهد هنا أن الأمر كله كان جدالًا الهدف منه إحراج النبي، ومحاولة تسجيل موقف، والخروج بمنطق يطرحونه للناس بعد ذلك، أنْ قد جلسنا وتحاورنا وطلبنا ولم يستطع!

حاولت قريش أن تُظهر النبي بمظهر عديم الحيلة، لكن كانت النتيجة صفرًا، لم يتراجع أحد من أتباع الرجل عن موقفه، بل هم في ازدياد مستمر...

وفي محاولة أخرى أرسلت قريش رجلين هما النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة كي يتشاوروا معهم في كيفية هزيمة محمد بالمنطق والحوار!

فقال لهم الأحبار، سلوه عن ثلاثة أشياء، إن أجاب عنها فهو نبي مرسل، وإن لم يستطع فهو مدَّعٍ، افعلوا به ما طاب لكم، والأشياء الثلاثة هي:

- سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث غريب.
- وسلوه عن رجل طواف، طاف مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبأه.
- وسلوه عن الروح ما هي.

وقد كان، سألوا النبي فطلب مهلة وعاد إليهم بأجوبة هي عبارة عن آيات سورة الكهف، متحدثًا عن الفتية أهل الكهف وخبرهم، وذي القرنين ونبأه، وختم بالروح إذ هي من أمر الله.

والسؤال: هل آمن الناس بالرجل بعدما أجابهم...؟ بالطبع لا!

على كلٍّ، نحن الآن نشاهد تطورًا في التعاطي مع دعوة النبي، وصارت هناك نقاشات تدور، وجدال قائماً، وإغراءات تُقدَّم...

كل هذا بجانب التصعيد المستمر تجاه الضعفاء، والتنكيل بهم، وضغط كل قبيلة على من اتبع محمدًا منها، سواء بالتعذيب الجسدي، أو المعنوي.

وكان مشهورًا عن أبي جهل أنه كان يذهب لمن يعرف نبأ إسلامه، فإذا كان

ضعيفًا اعتدى عليه، وإن كانت له عشيرة شنَّع عليه وضايقه، ومن له تجارة هدّده بكسادها وحث الناس على تجاهله وعدم التعامل معه.

وغيرها من الأساليب الدنيئة؛ كأن يرسل الرجل إلى صاحب حرفة ليقضي نهاره في العمل ثم يماطله ولا يدفع له، وربما ضربه وأهانه.

والسؤال: أمام كل هذا، هل ضاق المسلمون ذرعًا بالأذى؟

إنهم بشر على أي حال، غير أن أصحاب العقائد دائمًا ما كانوا مدهِشين في تحملهم للأذى في سبيل انتصار عقيدتهم، ولا سيما في وجود قائد داعم، يهدِّئ النفس الجَزِعة، ويريح القلب المكدود، ويُطمئن الفؤاد الملهوف، وقد كان النبي ملهِمًا لأتباعه إلى أبعد حد.

سؤال آخر: وهل كان النبي محمد نفسه بعيدًا عن الأذى؟

لا، ربما كانت قبيلته مانعة من أن يُقتل، لكنها كانت متسامحة مع ما دون ذلك! لقد بصق أحدهم في وجه النبي في حضرة عمه أبي طالب، وخنقه عقبة بن أبي معيط خنقًا شديدًا حتى دفعه أبو بكر عنه، وكان أبو لهب عمه يمشي خلفه في الأسواق يصرخ في الناس إن هذا الرجل كاذب لا تصدقوه، والأشد أذى من قوله هو أن يعرف الناس أنه من عائلته؛ العم يقول عن ابن أخيه إنه كذاب.

ومع كل هذا كان الضغط مستمرًا على بني عبد المطلب كي يرفعوا دعمهم

عن محمد خصوصًا عمه أبا طالب، موقف العم كان مربكًا لقريش، فلا هو على دين ابن أخيه فيُظهروا له العداء، ولا هو معهم فيطمئنوا لانكشاف ظهر الرجل، إنه بموقفه هذا يوفر مساحة آمنة للنبي، ويضع نفسه في موقع داعم للدعوة بكونه سفير الإسلام غير الرسمي بين النبي وقريش، يقف على مسافة تبدو واحدة من الجميع، لكن الجميع كان يعلم بدوره الذكي في حماية النبي محمد من أي أذى.

وكمحاولة أخيرة قررت قريش أن تعرض أمرًا على العم المتعنت معهم، وهو أن يستبدل أبو طالب بمحمد رجلًا يختاره من خيرة قريش، قد يبدو الأمر غريبا الآن، لكنه كان مألوفًا في هذا الزمان، فكرة التبني كانت أمرًا شائعًا بين العرب، وعليه ذهبوا إلى الرجل قائلين: «يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد رجل في قريش، وأجمله، فَخُذْه، ولك عقله ونصره، واتَّخِذْه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، فنقتله... فإنما هو رجل برجل!».

لعلها كانت ضحكة ساخرة تلك التي سبقت رد أبي طالب عليهم مستنكرًا: «والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابن أخي لتقتلوه! هذا والله ما لا يكون».

وهنا، تحدث مُطعم بن عديّ، وهو من عائلة بني عبد مناف قائلًا: «والله يا أباطالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص».

الكلام هذه المرة عائلي؛ مُطعم من عائلة محمد، في ما يبدو أن الأمور تأخذ تطورًا ما، ولذلك رد عليه أبو طالب لائمًا ومعاتبًا: «والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني، ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك»

يبدو أن التصعيد سيأخذ منحى آخر... وأننا سندخل عصرًا جديدًا من البطش.



الحصار

المشهد الآن مرتبك إلى حد كبير... دين النبي محمد يُبدي تماسكًا ملحوظًا وقد بدأ في اكتساب عناصر جديدة مؤثرة، التعذيب رغم استمراره غير كافٍ، والمضايقات وإن كانت قادرة على تحجيم الدعوة من الانتشار السريع إلا أنها ليست كافية لوقف مدّها فضلًا عن إنهائها، الضغوط المستمرة على رموز بني عبد مناف وخصوصًا أبا طالب زادت المشهد ارتباكًا، الشيخ الكبير يبدي استماتة مدهشة في الدفاع عن ابن أخيه، حتى حدث ما كاد يقلب المشهد عن بَكْرَة أبيه.

لقد بدأ بنو عبد المطلب في استشعار الضيق تجاه التعرض المستمر لشيخها، حتى إن الحليف الأهم لقريش «أبا لهب» هدد إنْ لم يتوقف الضغط على أخيه

أبي طالب أن ينحاز إلى جانبه متبنيًا موقفه في حماية محمد! وَلْيَقُل السيف كلمته حينها!

ولك أن تتخيل غضبة أبي لهب، الخصم الأهم للنبي محمد ودعوته وهو يصرخ في كُبَرَاء قريش: «لقد أكثرتم على هذا الشيخ، لا تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لَتَنْتَهُنّ أو لَنَقُومَنَّ معه في كل ما قام فيه، حتى يبلغ ما يراد».

ما زال مشهد انضمام حمزة إلى النبي محمد في غضبة كهذه حاضرًا في الذهن، وعليه تراجعت قريش سريعًا عن موقفها من الضغط على الشيخ المسن أبي طالب قائلين لأبي لهب: «بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة».

عاد أبو لهب إلى عصابته، يحاول أن يبحث معهم عن الشكل الأمثل لإنهاء الأمر.

حمية السابقة لا معنى لها، كل ما في الأمر أن المشهد كان غير مقبول أمامه، الجميع يعلم أن أبا طالب سيظل على رأيه، فلمَ الضغط عليه أكثر من ذلك؟!

إن أرادت قريش حلًّا جذريًّا، فَلْتَدَعِ النقاش والجدال والذهاب هنا أو هناك وتُنهي الأمر بشكل حاسم... وتقتل محمدًا.

هذا هو الوقت المناسب، فقبيلة بني عبد مناف لا تعبأ بأمر محمد، اللهمَّ إلا فرع

بني عبد المطلب باستثناء طبعًا أبي لهب، المهم أن تمضي الأمور بشكل سريع وخاطف.

ولم يكن أبو طالب غافلًا عن تدبير القوم وسوء طويتهم.

قراءة المشهد وتوقُّع العنف والاغتيال لم يكن يحتاج إلى أكثر من رجل عالم بطبائع الرجال، وشيخ بني هاشم كان منتبهًا واعيًا، وعليه نادى من فوره على قبيلته لتحمي رجلها، فلبَّى النداء بنو المطلب وهاشم، البعض إيمانًا، والبعض حَمِيَّة، وبسرعة تم إدخال محمد شِعب بني طالب، وفرضوا عليه ـ تنفيذًا لأوامر شيخها ـ حمايةً مضاعفة.

عرفت قريش بالأمر، فبادلت التصعيد بتصعيد... وقررت أن تقتل العائلة كلها، ولكنْ جوعًا هذه المرة!

أتوا بصحيفة وكتبوا فيها بنود اتفاق يتعاهد عليه الجميع، تبدأ هذه البنود من النبذ التام لكل من ثبت انتماؤه أو قربه أو حمايته لمحمد وفكرته، ممنوع الجلوس معهم، أو مخاطبتهم، أو الزواج منهم، أو تزويجهم.

ممنوع أن يدخل أحد منهم بيتًا من بيوت قريش، وكذلك ممنوع دخول بيوتهم، كما أنه يحظر بشكل قاطع البيع لهم أو الشراء منهم.

وجاء البند الأخير في الصحيفة حاسمًا، أنْ لا صلح مع هؤلاء المتمردين إلا بشرط واحد فقط، تسليم محمد ليتم تنفيذ حكم الإعدام فيه.

عجيب أمر أبي طالب، الرجل الذي يدير المعركة الباردة، الواقف في منتصف المسافة بين معسكرين معركة كليهما صفرية، كحال كل الحروب العَقَديَّة.

مدهشٌ إذ يسمح لزوجته «فاطمة بنت أسد» وابنه «علي» أن يتبعوا دين ابن أخيه، بينما هو متمسك بعقيدة آبائه لا يحيد عنها، ثم هو يدافع عمَّن يستخفّ بهذا الدين ويكيل له الضربات واحدة تلو أخرى.

الرجل لم يكتفِ بأن حمى ابن أخيه ونادى على قبيلته كي تذود عنه، بل كان يقوم بعمليات تمويه خشية الغيلة، فيبيت محمد في فراشه، ويرسل من ينام في فراش محمد، لا لشيء إلا تحرزًا من خيانة، وتجنبًا لغدر.

الرجل لم يثنه أبدًا الحصار، وهو يرى الأطفال من قبيلته والجوع يقرصهم، فلا يلين، على الرغم من أن المعركة ليست معركته، ينال مغرمها دون مغنم يستقوي به.

ثلاث سنوات إلا قليلًا هي عمر الحصار، أعوام عجاف، لا شيء فيها غير الأذى، ورغم هذا لم يتخاذل أحد أو يضعف، محمد ومن معه في صبر وجَلَد، وقريش التي لطالما تفاخرت بعزها ومكانتها بين العرب ها هي تهبط من عليائها وتمارس أسوأ أنواع القهر الجماعي ضد رجل أعجزهم منطقُه، وأرهقهم ثباتُه، وأفجعهم هدوء محيّاه، وقدرته على إقناع الناس بما أتى به.

يقينًا لو لا هذا القهر لاتَّسع الخرق على الراتق، ولأصبح أتباع الدين الجديد أضعافًا مضاعفة، ولكن فُجر الخصومة وطغيانها وإن أوقف مد الأفكار عن الانتشار السريع، إلا أنها تخسر في المقابل شرفها وتُضعف موقفها، فالبشر ليسوا سواءً في العداوة، وكثيرًا ما تعاطف الناس مع المظلوم وإن لم يكن لهم به نسب أو اتصال، وهو ما حدث مع المضطهدين المحاصرين.

فغير قليل من المرات يجد بنو هاشم عيرًا تحمل الطعام تمضي نحوهم وحدها، جهَّزها ذوو المروءة وأطلقوها ناحية شِعب بني طالب لتخفف شيئًا من جوع نساء القوم وأطفالهم.

في ذات الوقت يخرج الواحد من قبيلة بني هاشم ليشتري طعامًا فيجد أن التجار يغالون في الثمن حتى يعود إلى أطفاله الجوعى خالي الوفاض، والمدهش أن أبا لهب والذي هو من نفس العائلة كان يمر على هؤلاء التجار ويعوّضهم بماله عما فاتهم من بيع، ويكافئهم على خسَّتهم تلك.

وهذا حال الدنيا دائمًا، لا يكشف معادن الناس إلا احتكاكها بالحق، فإما أصلًا نفيسًا وإما معدنًا رديئًا تكسوه الخِسَّة... وتكون آيات الله في خلقه، ونرى ونتعجب من بعيد لا نعرفه يلمع أصله الطيب، وقريب معدوم المروءة لا نرى منه إلا سوء الطوية، وخسة الأصل، ونذالة الموقف.

هل تريد عجبًا؟! لا أعجب من موقف محمد وأتباعه في هذه الضائقة...

ما الذي يدفعهم وسط كل هذا إلى التمسك بالفكرة، لا سيما أن الإغراءات على الجانب الآخر لم تنقطع، ما الداعي للالتحام بعقيدة لا نصر في الأفق يمكن أن يراه الأتباع، إلا وعودًا من رجل مهما أحبوه إلا أنه ينطق ببشارات غيبية كل الدلائل تؤكد عكسها؟!

دائمًا وأبدًا كانت العقائد محيِّرة في فهمها، وأصحابها كانوا مدهشين في مواقفهم وصلابتهم ورسوخ يقينهم.

تُرى كيف انتهت الأزمة هذه، وكيف انفك الحصار الجائر؟

والإجابة، فَتِّش عن أصحاب المروءة، رجال كل زمان، وأبطال كل موقف.

من الإنصاف أن نكتب أسماء النبلاء، هؤلاء الذين تنضح مواقفهم بالشرف، حتى في الخصومة والعداوة، وعليه دَعُونا نكتب هنا موقف شرف لبعض رجالات قريش...

لدينا هنا هشام بن عمرو، هذا الذي يتردد أنه مَن كان يبعث العير المحملة بالطعام ويتركها لتذهب إلى المحاصَرين، الرجل الذي لا يؤمن برسالة محمد ولا تربطه به صلة، غير أن نفسه الشريفة أنفت مما يحدث.

ربما هناك موقف حرَّك مشاعره، أو مشهد أحزنه، أو لعله حديث نفس ناقمة

مما يحدث حوله، دفعه لأن يذهب إلى من يعرف فيه جانبًا من المروءة والشرف وهو زهير بن أمية، ابن عاتكة بن عبد المطلب، وكان هشام يعرف تألم زهير مما يحدث لأخواله، فأنَّبه، وحدَّثه حديثا موجعًا، أكد فيه أن ما يحدث إن كان مسيئًا لذوي المروءة فهو لذوي الأرحام أكثر ألمًا وسوءًا، فوافقه زهير آسفًا على كلامه غير أنه تحجج بأنه في الأخير مجرد رجل واحد، فقال له هشام: «أنا الثاني، وهيا نلتمس ثالثًا»!

فذهبا إلى المُطعم بن عدي، فوافق بعدما عرف أنه ثالث ثلاثة، ثم ذهبوا من فورهم يبتغون رابعًا، فذهبوا إلى أبي البختري بن هشام فوافق، ثم كان خامس القوم زمعة بن الأسود، وتجمع الخمسة على نقض الصحيفة وإحراج قريش وفك الحصار.

تجمعوا، فطاف زهير بالكعبة ثم أقبل على الناس يهتف: «يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس اللباس وبنو هاشم هلكى، لا يبتاعون ولا يُبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة الظالمة»!

قال أبو جهل وقد كان جالسًا عند الكعبة: «كذبت، والله لا تُشقّ».

وكانت المفاجأة إذ أتى صوت زمعة بن الأسود من يساره يقول: «أنت والله أكذب، ما رضينا بها حين كُتبت».

التفت إليه أبو جهل مندهشًا، فعاجله صوت أبو البختري من خلفه: «صدق والله زمعة، لا نرضى بما كُتب فيها».

وجاءت الضربة القاصمة من المطعم بن عدي إذ قال بقوة: «صدقتما وكذب من قال بغير ذلك»، ثم قام إلى الصحيفة يشقّها فوجد أن الأرضة أكلتها إلا كلمة «باسمك اللهمَّ».

وفي أثناء هذا الهرج لم يجد أبو جهل ما يفعله سوى كظم غيظه وهو يردد: «هذا أمر قُضي بليل».

وهذا تالله شرف الخصومة الذي بتنا في شوق إليه اليوم...

ولو كان في التاريخ درس وفائدة، فهو في موقفنا هذا يهتف أن اجتماع الشر وغلبته يمكن أن يهدمه رجلٌ واحد، وأن أكبر معين للباطل هو توفر بيئة يُجهض كل واحد من أهلها نوازع الخير في نفسه، سواء خوفًا، أو طمعًا، وأنه متى ما توفر حد أدنى من العدل والإنصاف حتى ولو في الخصومة والعداوة، فسيندحر الشر وتتعثر خطواته.



النَّفَس الطويل

في الناس شغف بالنصر الساحق السريع، بالثورة إذ تَهدِم كل شيء وتُقيم واقعًا جديدًا، والحياة ما برحت تؤكد أن الانتصارات المتتابعة وإن كانت أشد إرهاقًا وجهدًا إلا أنها تصل بأصحابها إلى مكان أفضل، وتجعل أقدامهم أكثر رسوخًا.

في الحياة كما في حلبة الملاكمة، الناس تهتف في بطلها أن يُنهي الأمر في ضربة واحدة، وربما يصلح هذا مع خصم هزيل ناقص الخبرة، غير أن الأبطال الحقيقيين يعرفون جيدًا ملامح خصومهم، ويضعون الخطة وفق قوة وصلابة وبأس المنافس، وعليه لا يعنيهم أن ينتصروا في الجولة الأولى بالضربة القاضية، وإنما يرسمون خططهم ويوزعون جهدهم كي يصلوا إلى الغاية بمجموع الجولات التي حققوا النصر فيها!

ولقد كان النبي محمد يعي هذا جيدًا، خصومة قريش لم تكن سهلة أبدًا، وعليه اتبع الرجل سياسة النفس الطويل، واستطاع باتزانه، ويقينه، أن يربح الجولة تلو الأخرى، ويخرج من كل معركة أقوى وأشد بأسًا، لا سيما أن ربح الجولة الماضية ينعكس على الجولات القادمة، ويؤثر نفسيًا في الخصوم، ويزيد من أخطائهم، ويربكهم كثيرًا حتى يستعيدوا رباطة جأشهم مرة أخرى.

إن النبي محمد يدرك جيدًا أن جنون قريش ليس دفاعًا عن صنم، وإنما دفاعًا عن تقاليد راسخة لها منافعها المادية والأدبية، بالإضافة إلى ضيقهم من خطابه الخاص بالدار الآخرة والبعث والحساب ومن ثم العذاب المنتظر لمن يخالف أوامر الله والتي تتعلق بكثير من ممارساتهم سواء في التجارة والربا، أو العصبية الاجتماعية، أو شؤون القيان والمرأة ومعاملة الرقيق، بوضوح أدرك القوم أن الإيمان برسالة النبي محمد ستكون لها نتائجها السياسية والاقتصادية، ولن تنتهي إلا بتحكمه في القرار العام للبلدة.

نعم المعارضة كانت تبدو دينية، لكنها في يقين كُبَرَاء قريش كانت لها جوانب أخرى، وأمام هذا التشابك رأى النبي أن الصمود هو الطريقة المثلى، وكشف عوار قريش واختلال تفكيرها هدفًا مهمًا، وتحقيق انتصارات مستمرة - مهما بدت صغيرة - هي الاستراتيجية المثلى.

وعلى الرغم من أن ثلاث سنوات من الحصار كانت قاسية، فإن نتائجها في ميزان النصر والهزيمة كانت في صالح المسلمين ونبيهم، وأنتجت واقعًا زاد فيه انقسام قريش ـ كما رأينا في مشهد نقض الوثيقة ـ وفي المقابل زادت المسلمين ثباتًا ويقينًا بأنهم ورغم كل شيء قادرون على الوقوف في وجه قريش وتحقيق الفوز عليهم.

دَعْكَ من أن الدعوة والتبشير بالدين الجديد ـ حتى في سنوات الحصار ـ لم يتوقفا في أثناء مواسم الحج، وإقبال الغرباء على مكة، غير أن نتائج ما بعد انتهاء الحصار كانت مبشِّرة، وخطوات النصر أوسع.

أخبار الحصار انتشرت بين العرب، لم تعد القضية قضية رجل مجنون، أو ساحر مخبول، أو شاعر غرّه شيطان شعره فظن نفسه يرتل كلام السماء، هناك قضية، وهناك رجال يحملونها، وهناك حرب وتنكيل، أيُّ عاقل صار مدركًا أن المعركة أصبحت بين ندَّين، حتى وإن كان أحدهما أقوى وأشد بطشًا.

وفي موسم الحج الذي تلا الحصار جاء لمكة رجل وجيه ذو شأن في قومه، وهو الطفيل بن عمرو الدَّوْسي، شريف قبيلة «دوس» وأحد كبرائها، انتبه زعماء قريش لمقدم الرجل، ومن ثم اجتمعوا معه وحذّروه من محمد، ذلك الرجل الذي يتلو كلامًا يسحر به الناس، وكان من أثره أن زرع الفتنة بين أبناء القبيلة

الواحدة، وضرب وحدة البلد المستقر في مقتل، فلم تعد الأمور بعد ظهوره كما كانت قبلها.

«إياك وكلام محمد الذي يسميه قرآنًا» هذه كانت أهم النصائح التي أوعزوا بها إليه؛ لا تجلس مع محمد، لا تستمع له، ابتعد عنه ما استطعت...

أخذ الطفيل كلام القوم على محمل الجد، لا سيما أن قائليه هم كُبَرَاء قريش، بل منهم عم الرجل وأحد أبناء قبيلته...

والحقيقة أن الكلام له أثر بالغ، والدعاية المضادة قادرة على تخويف الناس من الحقيقة، والواقع ما فتئ يخبرنا أن ترديد الأكاذيب مهما بدا لنا فجًّا غير قابل للتصديق فإنه مع التكرر يكتسب أتباعًا يصدقون به، خصوصًا لو كان محملًا بالخوف، مليئًا بالتحذير، منذرًا بالويل.

وهو ما حدث مع الطفيل، من كثرة ما خوّفوه من محمد، ذهب الرجل وحشا أذنه قطنًا كي لا يستمع لقرآن محمد، بعدما عرف أنه يقرأ قرآنه بجوار الكعبة، فلربما طاله شيء من كلام الرجل وهو يطوف بالبيت العتيق!

نعم حدث هذا... ويحدث بيننا كل يوم! يحدث أن ترى أحدهم أغلق أذنه وعقله عن سماع الصواب لأن الباطل خوَّفه من المجهول، لم يترك في روحه زاوية آمنة يستقر فيها ويتساءل عن صحة ما يقال.

ولا يزال الخوف ماضيًا فينا بسيفه البارد... كم قتل منا وأجلسنا في فزع ننظر إلى ميزان الحقيقة وقد طاشت كفتيه، لا نجرؤ على الرفض، أو الإنكار، فضلًا عن الجهاد والمقاومة!

غير أن لذوي العقول الحرة أنفة من التبعية، تلك الأنفة التي صفعت وجه الطفيل فأوقفته عن الطواف محدثًا نفسه، مؤنبًا وموبخًا: «واثُكْلَ أمي! إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته».

وكان أن رمى القطن بعيدًا بعدما نزعه من أذنه، وتباطأ قليلًا حتى سمع بعضًا مما يقرأه النبي من كتاب ربه، ثم راقب النبي محمد حتى قام، فتبعه إلى أن دخل بيته، ثم طرق عليه الباب ودخل، ثم قال له: «يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سدوا أذني بكرسف «قطن» كي لا أسمع ما تقول، فأبى الله إلا أن يُسمعني قولك فسمعت قولًا حسنًا، فاعرض عليَّ أمرك».

فكان أن حدَّثه النبي عن رسالته، وتلا عليه كلام ربه، فقال له الطفيل: «والله ما سمعت قولًا أحسن منه، ولا أمرًا أعدل» ثم أسلم وردد الشهادتين.

تخيلْ معي أن هذا الرجل العاقل ـ ولأنه عاقل ـ استطاع أن يقنع قومه بالدين الجديد فآمنت قبيلته كلها وكان لذلك أثر إيجابي في دعوة الإسلام سواء في حياة النبي أو بعد موته.

هل يعني هذا شيئًا لنا؟ نعم يعني الكثير...!

يعني أنْ لا أحد يملك القدرة على حجب الشمس بإصبعه، أو حبس النور في جراب... ستصل الرسالة إلى المُستقبِل ما دام اجتهد الرسول في عمله، وتحلى بدأب وصبر، وفوقهما حكمة وتدبير، وكل أمر له أسبابه بعد فضل الله وتوفيقه.



عام الحزن!

... وكأن كل ما سبق لم يكن حزنًا!

وكأن البلاء درجات، والمصائب لا تقع على الفؤاد بنفس القوة...

ما إنْ انتهت مأساة الحصار حتى بدأ قلب أبي طالب يطلق ضرباته الأخيرة...

شيخ بني هاشم قرر أن يستريح من عناء النهايات، سيترك محمدًا وحده ويرحل...

اشتد المرض على الرجل حتى عرف الجميع أن أبا طالب مودِّع عن قريب، ورغم مكانته في حماية النبي محمد فإنه في المقابل كان وجيهًا بين قريش، وفوق هذا كان الفراغ الذي سيُحدثه غير مأمون النتيجة.

دعونا لا ننسَ أن حمزة وهو أحد الأعمدة في بني هاشم قد أسلم، ولو استثنيا

أبا لهب فإن الهاشميين كقبيلة بعد وفاة أبي طالب لا يعلم أحد على أي جانب ستميل، فماذا لو مالت إلى كفة محمد ميلًا كاملًا، لا سيما أن وجع الحصار وشعورهم بالظلم ربما يدفعهم إلى مناصبة قريش العداء، ودفع المعركة كي تكون قبلية محضة!

وعليه قرر كُبَرَاء قريش أن يهبُّوا لزيارة الرجل المريض، وهم يحملون هذه المرة شروطًا مختلفة تمامًا لإيقاف الحرب الدائرة...

الكُبَرَاء جميعًا يلتفون حول فراش الشيخ المريض، عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعمرو بن هشام «أبي جهل»، وأُميَّة بن خلف، وأبو سفيان بن حرب... وكان الحوار:

- يا أبا طالب، إنك منا حيث علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادْعُه، وخُذْ لنا منه، وخُذْ له منا، ليكفّ عنا، ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا، ولندعه ودينه.

وهذا هو أكبر تنازل تم تقديمه حتى الآن، شيء يشبه إعلان الهزيمة، وعليه أرسل أبو طالب إلى ابن أخيه فأتى من فوره، فبادره عمه بالكلام قائلًا:

- يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك، ليعطوك ويأخذوا.

والمدهش هنا أن النبي لم يستمع، بادر الناس بشروطه مباشرة، هو يعلم جيدًا مما سبق أنّ أي تفاوض مع هؤلاء وإنْ كان في ظاهره تنازل منهم والرجوع خطوة عن تعصبهم السابق، إلا أن الثمن في المقابل سيكون تنازلًا ما يجب أن يتم تقديمه، والتنازلات ليست عيبًا في التفاوض، شريطة ألا تطال المبادئ العامة والقيم الرئيسية والمنهج الذي يحكم الشخص.

نعم الحياة تخبرنا أن هناك من يتفاوضون حتى على ضمائرهم! ولديهم في هذا ألف حجة وبرهان للتدليل عما تنازلوا عنه، إلا أنه في يقين أصحاب الأفكار والمبادئ السامية قتل بطيء لأفكارهم، وزعزعة لقيم لو اهتزت فلا شيء يمكن أن يجبر كسرها، وعليه قال مباشرة:

- يا عم، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم.

ما أذكى هذا الرجل، إنه يلعب لهم على الوتر المحبب، وعليه قال أبو جهل مسرعًا:

- نعم وأبيك، وعشر كلمات!

- تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

صفَّق القوم تذمرًا، لقد ظنوا أن الرجل يبدي مرونة ما، لكنه كما هو، واقف على مبدئه لا يتزعزع، فقال أحدهم:

- عجيب أمرك، تريد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا.

ثم التفت بعضهم إلى بعض قائلين بيأس: «إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تطلبون، فانطلقوا وامضوا إلى دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه»... ثم مضى القوم في حنق وغضب واضحين.

وما إن خرج القوم حتى قال أبو طالب بأنفاس لاهثة من أثر المرض: «والله يا ابن أخي ما أراك سألتهم شططًا».

هنا تحديدًا زاد طمع النبي في إيمان عمه أبي طالب، إيمان ليس وراءه طمع دنيوي، فالرجل مودِّع، دَعْكَ من أنه لم يُقصِّر في نصرة النبي في أي موقف، فقال له بلهجة حانية: «يا عم قُلْها، أستحلّ لك بها شفاعةً يوم القيامة».

فتنهَّد الرجل قائلًا: «يا ابن أخي، والله لولا مخافة السبّة عليك، وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني قلتها جزعًا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لِأَسُرَّك بها»!

وإن هي إلا ساعات وودَّع الرجل دنيا الناس، ليبيت تحت الأرض، تاركًا المعركة دائرة.

في رواية - غير مؤكدة - أن العباس قال للنبي: «لقد قال أخي الكلمة التي طلبتها»!

يقصد أنه قد نطق الشهادة قبل أن يموت، غير أن النبي رد عليه بأنه لم يسمعها!

على كل حال، ذهب الرجل الذي يدين له المسلمون بكثير من الفضل في حماية نبيهم والذود عنه... رحل وقد أعطانا دروسًا في الشرف، وبعدما أدار معركة ابن أخيه مع قومه بدبلوماسية مدهشة، ومنع عنه موانع شتى، وجاهد كي لا ينفرط عقد الصراع فيتلوّن المشهد بلون الدم.

رحل وهو مؤمن بصدق ابن أخيه! صدقًا دفعه لأن يبارك إسلام ولده علي، وزوجته فاطمة بنت أسد، ولطالما زكّى أبو طالب دعوة محمد، ولم نعلم عنه أنه زكّى آلهة قريش.

رحل شيخ مكة وكبيرها تاركًا محبة كبيرة في وجدان كل من يحب محمدًا، وامتنانًا باقيًا في وجدان المسلمين، غير أنه وبرحيله هذا ترك وجعًا في القلب وفراغًا كبيرًا... وجعًا ترجمه النبي بقوله: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى

مات أبو طالب»، من كثرة ما رأى من تجبُّر القوم ونزقهم بعد وفاة الحامي الأهم للدعوة.

غير أن الابتلاءات لا تأتي فرادى كما يقولون، ففي نفس العام، وربما في نفس الشهر أو بعده بقليل كانت الفاجعة الثانية؛ لقد ماتت خديجة... وما أدراك ما خديجة!



خديجة

من حُسن طالع المرء منا أن يوفَّق إلى شريك يُعينه على الأيام ولا يُعين الأيام عليه...

أن يوهب حضنًا دافئًا يقدر على إزالة آثار معاركه الحياتية، ويعيد لملمة شتات روحه، ويجهز له زاده المطلوب من الدعم كي ينطلق في الحياة مطمئنًا هانئًا، وخديجة كانت هدية الله إلى نبيه، وأجمل ما ظلل حياته في سنين دعوته الأولى، كانت الطبيب، والداعم، والروح الشفافة القادرة على احتواء طموحات زوجها الكبيرة، مؤمنةً به، مُقرةً بما يقول، كانت هي جيشه الأول، وحبه الأثير.

ولكن، كيف بدأت قصة محمد وخديجة، كيف اجتمع تحت سقف واحد زهرة بني هاشم وفتاها الهادئ النبيل، مع سيدة المجتمع ذات الأصل الطيب، والسمعة الشريفة؟!

للأسف، لا كثير عندنا لنرويه ها هنا!

ذلك أن التاريخ لا يلقي بأضوائه الباهرة إلا على العظماء حين تنكشف ملامح عظمتهم، وفي الأربعين ـ حين استهل النبي محمد دعوته ـ بدأ مسرح التاريخ يتجهز بكامل طاقته لإعطاء دور البطولة المُطلقة لهذا النبي ويخفت تدريجيًا عن ملوك الفرس، والروم، ويرفع قلمه عن تسجيل أي أحداث أخرى.

وبقدر الأضواء المكثفة التي كشفت لنا الكثير من شخصية الرجل عبر مواقفه، بقدر ما ألقت بظلالها على حياته الماضية، وأعطتنا ملامح عامة غير تفصيلية طوال أربعة عقود هي سنين عمره قبل الرسالة...

لكنها إشارات قد تكشف لنا لماذا اختارت خديجة، سيدة المجتمع، أن تتزوج من الشاب محمد، وتفضِّله على مَن هم دونه من شرفاء قريش الذين خطبوا ودّها، وتنبئنا أيضًا عن السبب الذي دفع بمحمد أن يتزوج امرأة ثيّبًا، قد سبق لها تجربة الزواج مرتين وتكبره بعض الشيء.

خديجة تعرف جيدًا كيف تزن الرجال وتحدد أقدارهم، ولعلها رأت في مقومات الشاب صاحب الخمسة والعشرين عامًا شيئًا لم تجده في غيره...

يقينًا سألت خديجة عن محمد وعرفت عنه الكثير، وظني أن ما وصل إليها عنه كان فيه بعضًا مما يلي...

في بيئة لا تحترم كثيرًا المهجنين، كان لنسب الشاب الجميل محمد بن عبد الله شرف وقيمة كبيرة؛ الرجل ينتمي إلى أشراف العرب سواء من نسب أبيه أو أمه، وبعيدًا عن العصبية فإن أصالة الأعراق قد تضفي على طبيعة الإنسان نبلًا ونقاءً، وتعطي لصاحبها خصائص نفسية أصيلة، وتوقظ فيه كثيرًا من بواعث التذمم، والشرف، وتعطي للشخصية عمقًا يؤثر في فكره وسلوكه الحياتي، وولد يتيمًا فذاق مرارة الحرمان منذ يومه الأول، وجرَّب وحشة العزلة، وتنقل من كَنَفٍ إلى آخر، لقد صبغ اليتم روحه بالشفافية، وسلوكه بالرقة، لا سيما أنه قد اجتمع مع اليتم فقر الحال، فلم يتوفر له شيء من دلال اليتامى، الذين تحيطهم الشفقة حتى تُغرس فيهم روح الحاجة المستمرة إلى العطف.

لقد دفعه الفقر إلى أن يعمل وهو صغير، لقد خرج وهو صبي إلى الشام في رحلة تجارية مع عمه، ورأى في رحلته تلك عالمًا غير العالم، وأدرك من صغره أن دنيا الله واسعة، وأن الجبال التي تحدّ مكة وتطوِّقها ليست هي أسوار الدنيا ولا تقف عندها الجغرافيا، رأى المدنية والعمران، ورأى في طريقه قبائل وبلدانًا تشبه بلدته مكة، وأخرى تحيطها الأسوار ويحكمها قوم يقال لهم الروم*.

وبعدها رعى الفتى الغنم، وجلس في دكان عمه ليبيع معه، وهبط إلى ميدان التجارة مستقلًا بذاته...

* يؤكد جواد العلي في كتابه «تاريخ العرب» أن أبعد مكان وصل إليه النبي محمد هي مدينة «بصرى» الواقعة على طريق التجارة إلى الشام

هل لدى التاريخ ثمة شُبهة، أو نقيصة، أو ثُلْمَة في شخصية الرجل حتى هذه اللحظة؟! قولًا واحدًا... لا.

وهذا ما بلغ خديجة عنه، مما دفعها لأن تعهد إليه بتجارتها إلى الشام، ويكون السؤال: هل كانت هذه الرحلة مُقدمة لما بعدها، وخطوة ذكية من خديجة كي تختبر صدق الشاب، وأمانته، وسلوكه، لا سيما وقد جعلت معه مرافقًا يتابع أفعاله هو غلامها «ميسرة»، كي ينظر عن قرب إليه، أم أن هذه الرحلة التجارية كانت عرضًا، وكلام المرافق عنهِ هو ما حرك بداخلها ميلًا تجاه الرجل؟*

لا أحد يعرف على وجه الدقة، غير أن التاجر الشاب في رحلته تلك ضرب مثلًا ليس بغريب عليه في الأمانة، والصدق، واكتسب حب التجار وثقتهم، مما انعكس على رحلته من أرباح ومكاسب غير متوقعة، دللت على شخصيته الواثقة الهادئة، وطبيعته العملية.

نعم، تحركت مشاعر خديجة بت خويلد تجاه محمد بن عبد الله، وعندما تتحرك مشاعر النساء العاقلات ذوات الحزم تكون النتيجة كما سنرى...

التاريخ يخبرنا أن خديجة كانت توصف بلقب «الطاهرة» قبيل زواجها من النبي محمد، وكانت مشهورة بالعقل والحزم، وهذا أمر طبيعي لسيدة أعمال، تفرض عليها ظروف العمل غير قليل من اتخاذ القرار، وإعطاء الأوامر، ومتابعة

---

* في كتب السير اختلاف حول سفرات النبي لحساب السيدة خديجة ما بين سفرة، أو سفرتين أو أربع.

الأشغال، تزوجت مرتين من قبل ونالت لقب أرملة في كليهما، ورفضت كثيرًا من الخطاب الذين وقفوا بباها يطلبون رضاها.

ليس لدينا خبر ثابت عن عمرها، المشهور - وليس بالضرورة الصحيح - أنها كانت في الأربعين يوم تزوجت النبي محمد، غير أن كثيرًا من المؤرخين يرون أنها كانت دون ذلك، وأنها لم تتعدَّ الثلاثين أو ربما الثامنة والعشرين يوم زفافها الثالث!

منطقيٌّ بطبيعة الحال عدم الوقوف على عُمر شخصية تاريخية، نحن نعرف جيدًا أن هذه الفترة من تاريخ العرب كانت تؤرَّخ دائمًا بالحوادث المهمة، فمثلًا عرفنا سن النبي محمد لمولده في نفس العام الذي قرر فيه أبرهة أن يهدم الكعبة، فسمِّي العام باسم «عام الفيل» وعندما وُلد النبي بعد هذه الحادثة مباشرة كان معروفًا بشكل موثَّق في أي عام وُلد، لكننا لم نجد مثل هذه الدقة في ما يختص بأعمار كثير من أصحاب النبي محمد، ولا زوجاته، وعليه فلا ضير في أن يتدخل المنطق قليلًا، والمنطق يقول إن السيدة خديجة أنجبت من النبي ستة أبناء، ويصعب من الناحية الطبية - وإن كان ليس مستحيلًا - أن تلد امرأة وهي في الخمسين أو أكثر من ذلك، حيث تذهب الروايات إلى أن السيدة فاطمة، آخر من أنجبت السيدة خديجة، وُلدت في السنة الخامسة قبل البعثة، كما أن هناك آراء أخرى تؤكد

أنها وُلدت قبل الهجرة بسنوات قليلة، ولو سلّمنا بالقول الأول، فستكون قد وُلدت والسيدة خديجة في الخمسين من عمرها، وهذا أمر صعب، وإن كان هناك من المؤرخين من يرى عكس ذلك، مؤكدًا أن نساء العرب وقريش تحديدًا يلدن في الخمسين!

على كلٍّ، الثابت في يقيني أنها كانت تملك عقلًا أكبر بكثير من كل هذا، لم يمنعها من أن تستدعي صديقتها «نفيسة بنت منبه» وتُسرّ إليها بميلها إلى الشاب الذي أدار أعمالها في رحلة الشام الأخيرة، وظهر لها ما يطمئنها إلى أنه زوج صالح، وبطبيعتها العملية وافقت على اقتراح صديقتها بأن تحدِّث محمدًا في الأمر، وتستطلع رأيه.

وهو ما كان، ذهبت «نفيسة» إليه، وأخبرته بما أتت من أجله، فشكر لها سعيها المحمود، وأبلغها بموافقته المبدئية، ثم استأذنها في استشارة أعمامه، الذين وافقوا على الفور، وجاء معه عمه حمزة وخطبها من عمها، وتم الأمر.

خمسة عشر عامًا ليست لدينا شواهد وأحداث تنبئنا عما جرى فيها، إلا شاهد اليوم المعلوم، يوم جاءها يرتجف خوفًا بعد خلوته المعهودة في غار حراء.

بعين قلبها رأت خديجة في زوجها جانبًا مدهشًا، رأت روحًا شفافة، وحيرة طاغية، وبحثًا صامتًا عن حقيقة الحياة، وعن الله، وحكمة الخلق.

لا شيء يفسر لنا سماح زوجة بأن يهجرها رفيقها شهرًا كاملًا كل عام ويصعد إلى غار له اتخذه معتكفًا، ويجلس ليطالع مكة من عَلٍ، ويتأمل السماء ونجومها، والشمس في إقبالها وإدبارِها... أقول لا شيء يفسر لنا هذا، إلا إدراك تلك الزوجة أن بداخل زوجها أسئلة تحتاج إلى إجابات، وروحًا هائمة تسعى لطمأنينة عسى أن تأتي بها خلوته تلك.

وكم من عظماء ضاقت طرقهم وزاد بؤسهم، لعدم فهم القريبين منهم حقيقة مشاعرهم.

كم من بطل كان ينزع رداء بطولته ويضع على عتبة داره كل أوسمته قبل أن يلاقي أهل بيته، مستعدًا لحرب أخرى تدور رحاها على طاولة الطعام، وفي جنبات البيت!

غير أن بطلنا محمد بن عبد الله كان مستندًا على جدار راسخ، ذلك أن خديجة كانت تشيّعه بالمودة، وتستقبله بالحب، وترسل إليه طوال فترة اعتكافه من يطمئن عليه من خدمها، وتمده بما يحتاج من مطعم ومشرب...

حتى كان اليوم الأهم في تاريخهما، يوم جاءها زوجها العاقل المتزن الهادئ، وقد تعثرت خطواته، ورسم الهلع على محيّاه ملامح لم ترها خديجة عليه قط...!

دخل وهو يرتجف طالبًا غطاءً يتدثر به قائلًا: زمِّلوني... زمِّلوني...!

غطته خديجة حتى هدأ روعه، أغرقته بحنانها حتى عادت إليه روحه الهاربة، فنظر في عينها وهو يقول: يا خديجة، لقد خشيت على نفسي...!

وهنا يقف التاريخ ليكتب ويسجل الظهور الأول لسيدة العالم الأولى، المرأة التي حين خاف زوجها لم يذهب إلا إليها، المرأة التي بلغت في قلب زوجها مبلغًا لم يمنعه أبدًا من أن يعترف بخوفه وهلعه أمامها، السيدة التي احتضنت، وطمأنت، وهدأت، واحتوت شتات نفسه، وأعادت بيدها الحانية تجميع روحه قطعة قطعة، حتى ذهب الرَّوع، وبدأ في الكلام...

هنا زوجها يخبرها أنه قد خاف على نفسه، وهي لا تدري ما الأمر، لا تعرف ما الذي حدث بعد، كل هذا لا يهم، إنها تعرف شيئًا واحدًا، وحقيقة أصيلة تؤمن بها، وقالتها له: «كلا... والله لا يخزيك الله أبدًا».

المرأة الحانية تجزم وتقطع بأن زوجها أعظم وأرقى من أن يخزيه الله، وما الذي يحتاج إليه الرجل منّا غير هذا حين تهتز أمامه الحياة، وتربكه الحوادث والمواقف...!

نظرت خديجة في عينيه بإكبار، ثم قالت في لهجة حانية: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب المعدوم، وتَقْري الضيف، وتعين على نوائب الحق»...

كلمات خاطفة تعيد بها ثقة زوجها بنفسه، بدا كأنها تنبهه إلى أن رجلًا يصل

رحم أقاربه، ويساعد اليتامى، ويدعم غيره، وملاذ لأصحاب النوائب، لَرَجلٌ حريٌّ به أن يؤمن بمساندة السماء له، وعليه ألا يتشكك للحظة في أن الله سيحفظه.

سمع الزوج كلماتها، فبدأت وقائع أهم جلسة في التاريخ...

الآن النبي محمد يخبر خديجة بما حدث له.

حدَّثها عن ذلك الشيء الذي لم يعرفه بعد، وكيف كرر عليه بصوت زلزله أن «اقرأ»، وهو يردّ عليه بأنه ليس بقارئ، حتى قال له:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾

استمعت خديجة لكلمات زوجها، ثم أخذته وذهبت به إلى ورقة بن نوفل ـ ابن عمها ـ الرجل الذي تنصَّر في الجاهلية، وكان له عِلْم بالكتاب، فكان أن شرح له النبي ما حدث له وورقة يستمع، قبل أن يهتف به أنَّ «هذا الناموس ـ يعني جبريل ـ الذي نزّله الله على موسى، ويا ليتني كنت شابًا قويًا لأدافع عنك حين يخرجك قومك ويعادونك»!

عادت خديجة مع زوجها بعد تلك المحادثة، لم يهتز إيمانها به قد أنملة، لم تراجعه في ما حدث، لم تُشر عليه بما قد تشير به امرأة على زوجها وتغلب عليه العاطفة

من أن يترك كل هذا وينتبه إلى حياة تشبه حياة سائر الناس... لم يحدث من هذا شيء قط.

التاريخ يؤكد أن أول من آمن بالرجل زوجته، كان يذهب إليها ليشكو تعنت الناس وتكذيبهم له، فتثبِّته، وتشدّ من أزره، وتزيل بكلماتها، وابتسامتها، وطمأنينة وجهها، آثار العنت الذي يُحزن زوجها...

وهذا والله ما نحتاج إلى تأمله كثيرًا، إيمان خديجة بمحمد شيء يستحق العجب... كل العجب...

ما الذي وطوال خمسة عشر عامًا ظهر في سلوك الزوج وجعل زوجته تؤمن به كل هذا الإيمان المطلق، وتسلِّم بقوله تسليمًا لا رجعة فيه، وتسمع بأذنيها نبوءة ابن عمها بأن ما يقوله زوجها يعني مستقبلًا ملبدًا بالمشاحنات، والضيق، والقلق، فلا تخاف، أو ترتبك، أو تراجع رجلها في ما ينتويه.

خلف الأبواب المغلقة تظهر حقائق الرجال، يخلعون لباس المجاملات الذي يواجهون به المجتمع، يصبحون أقل تركيزًا، أكثر أريحية، لا يخشون من عين تتلصص وترقب، وعليه تظهر جوانب ضعفهم، ونزقهم، وخلل سلوكهم، لكن يبدو أنه لا شيء من هذا كان يحدث في بيت خديجة، كل الشواهد تؤكد لنا أن الزوج هنا كان عظيمًا في سكنته وحركته، عظيمًا في لفظه، عظيمًا في سلوكه

الحياتي، كان كبيرًا في عين زوجته للدرجة التي ما إن قيل لها إنه نبي، حتى قالت من فورها: أؤمن!

ربع قرن عاشته خديجة في كنف محمد، خمسة عشر عامًا منه تحت رجل عظيم، وعشر سنوات في حضرة نبي، لكنها كانت سنوات مثيرة مليئة بالأحداث والابتلاءات.

عقد كامل من عمرها وهي جداره الآمن، تتحمل معه وعثاء الطريق، تسلمهما المعركةُ إلى أختها فيقوِّي كل منهما صاحبه ويشد من أزره.

كانت تصدقه، وتردد خلفه كلام ربه، وتبشِّره بالخير القادم، تعطيه من روحها، وهنائها، ومالها، كي يخرج على الناس قائمًا بوظيفته الجديدة، داعيًا إلى ربه...

كانت معه في الحصار تشاركه فتات الطعام إنْ وُجد وهي الغنية الشريفة؛ لم تشتكِ يومًا، لم تخذله للحظة، كانت هي خط دفاعه الأول، ومسكن روحه، ومهجعه الآمن وسط مجتمع يتربص به كل لحظة وثانية...

وها قد رحلت خديجة، أغمضت عينيها الغمضة الأخيرة تاركة مهجة روحها يواجه كل شيء وحده، لكن الكلمات التي واجهت بها زوجها حين أتاها جزعًا هي نفسها التي طمأنتها وهي على فراش الموت، نعم سترحل خديجة لكن ما يخفف عنها أن الله لن يخزي حبيبها أبدًا... أبدًا.

الحِمل الثقيل

لا شيء تغيَّر في مكة، ولا سيما غرور أهلها وصلفهم...

عشر سنوات مرّت مذ بدأ الأمر، عقد كامل مرّ وما زال محمد صامدًا في مواجهة البطش، التاريخ يقف متعجبًا من قدرة الرجل على مداواة أوجاعه بسرعة، واستكمال طريقه...

غير أن التاريخ شيخ ضعيف البصر...!

يرى، ويسجل، ويحفظ المواقف والأحداث، لكنه لا يملك القدرة على الغوص إلى الباطن فيخبرنا بما تحتويه الأفئدة من مشاعر، ويختلج في النفس من شعور، إنه يرقب خطوات النبي محمد الواثقة بعدما دفن عمه وزوجته، يراه وقد رفع رأسه عاليًا مستكملًا المشوار، لكنه لا يعرف حجم الوجع الذي حل بروحه، ولا الوحشة التي تكتنفه، ولا الشوق الذي يهيِّج فؤاده...

هو نبي يستمد السند من خالقه، لكنه قبل هذا إنسان، اكتمل لديه مخزون المشاعر حتى فاض؛ إنه يحزن، ويألم، ويحب، ويجافي، ولو أراد الله لبعث في الناس خلقًا آخر، يملكون قدرات خارقة، يحركون الجبال بمشيئته، لكنه سنَّ في الدنيا قانونًا، خلاصته أن أنبياءه من جنس البشر، يرسلهم لحكمة بالغة علَّ أولها أنه يعطي للبشر نماذج للعظمة، والرقيّ، تستدعيها ذاكرة خلقه حينما يودون استحضار نموذج يقيسون عليه أنفسهم، ويضبطون به خطواتهم، ويراجعون في ليالي التوبة حساباتهم...

والتاريخ شيخ ظالم كذلك، لطالما بخل على الحقيقة بأسطره، في الوقت الذي يفيض فيه كرمًا ويفسح صفحاته للكاذبين كي يكتبوا فيها بطولاتهم المزورة، وكم من بطولة أهملها شيخنا وسجل مكانها أحداثًا لو عشناها لرأيناها جالبةً للخزي والعار، بدلًا من البطولة والفخار...

ولطالما ضنَّ التاريخ على النبي محمد، لطالما كذب وزوَّر وبذل جهده كي يُظهره لنا على عكس حقيقته، ثم أرسل أوراقه تلك ليتلقاها لصوص الزمان، ليبذلوا جهدهم - والحقيقة أنه جهد كبير - كي يرسموا للرجل الصورة التي يعرفون جيدًا أنها لا تليق بذائقة الزمان الحاضر...

لا بأس، هذا حال المصلحين في الدنيا، غير أن هذا الرجل تحديدًا بقدر ما ظُلم،

وبقدر ما شُوهت رسالته، بقدر ما كان عصيًّا على السرقة، سيجد اللصوص مأزقًا كبيرًا حينما يصطدمون بمجمل سلوكه وأفكاره وقيمه التي ثبَّتها في دنيا الناس...

ألم يقل التاريخ إن محمدًا رجل دموي، وإنه لم يستطع نصر رسالته إلا برفع السيف، وقتل الناس، وترهيب الشعوب؟!

حسنًا، فليحضر التاريخ معنا وليتوكَّأ على عصا أكاذيبه، ويخبرنا بما حدث في عشر سنوات كاملة، لينطق إذن ـ وهو الثرثار ـ ويحدِّثنا عما حدث للرجل في مكة، وما طاله من رجالاتها.

أو ليصمت، ويدعنا نكمل ما بدأناه...

نحن الآن في عامنا العاشر من بعد بعثة النبي محمد، العام الذي كشَّرت فيه قريش عن أنيابها، وواصلت ضرباتها للدعوة وصاحبها وأتباعها...

دعونا ننظرْ إلى الكعبة وقد أحاطت بها الحجارة والأصنام من كل جانب، وحول كل صنم جماعة يطوفون حوله ويقدّسونه، دع كل هذا وانظر إلى ذلك الركن البعيد، نعم... أودّ منك أن تطالع هذا الرجل الهادئ المطمئن الذي يركع ويسجد وحده بلا صنم يتوجّه إليه، ثم تعالَ لنسترِق السمع إلى هؤلاء السادة الذين ينظرون إلى الرجل الوحيد بعيون حانقة مليئة بالحقد...

هذا أبو جهل يجلس بين أصحابه، إنه يتساءل عن بطل يستطيع أن يحمل بقايا شاةٍ تم ذبحها بالأمس ويلقيه على محمد حال سجوده، ونهض البطل البائس! قام ليحمل الأوساخ والأنتان، وأمعاء الشاة ليلقيها على ظهر رجل آمن، رجل مسالم، رجل يعرف جيدًا أن إيذاءه مأمون الجانب...

سجد النبي محمد، وفي لحظات تعبُّده تلك، فوجئ بالذي يُلقى فوق رأسه وظهره، الرائحة النتنة تصل إلى أنفه، البلل يملأ ظهره ورأسه، صوت الضحك الهستيري يصل إلى أذنه، فظل الرجل في سجوده!

ظل على حاله تلك لدقائق، ويظل السؤال قائمًا: ما الذي دار بخلد النبي في هذه اللحظة المؤلمة القاسية، أيُّ وجع ملأ فؤاده والقوم يضحكون عليه بعدما ظنوا أنهم قد أهانوه ونالوا منه؟!

يبدو أن رصيد الوجع في هذا الموقف لم يكن كافيًا، فلقد نادى أحدهم على طفلته فاطمة وأخبرها - ربما بلهجة متهكمة - عما حدث لأبيها، فجاءت تركض في هلع، وتهبط على ظهر الأب تنظف الأوساخ، ترفع صوتها في مواجهة ضحكاتهم، تحاول أن تنتصر لأبيها، ويا وجع قلب كل أب وجد نفسه في موقفٍ تنتصر له فيه طفلته، في الوقت الذي تنتظر هي فيه منه كل دعم وسند وحماية...

قام الرجل من سجدته، جال بعينه في وجوههم الضاحكة القبيحة، ثم توجه لأول مرة إلى السماء شاكيًا، ومنذرًا، وقد فاض به الكيل...

قال داعيًا ربه: «اللهمَّ عليك بقريش...اللهمَّ عليك بقريش...اللهمَّ عليك بقريش».

ومهما كان، يظل قلب الظالم هلِعًا إذا ما عرف أن ضحيته قد أرسلت شكواها إلى السماء، لا سيما لو كان المظلوم رجلًا استثنائيًا، وعليه صمت الجميع، وتوقفت ضحكاتهم تمامًا، فاستمر النبي في دعائه: «اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط».

ولنا هنا وقفة وسؤال: هل يحق لأصحاب الدعوات السامية النبيلة، أن يتمنوا لأعدائهم الموت، ويطلبوا من الله الانتقام لهم؟

وأجيب: نعم، ولا ريب!

من أجل تأديب الطغاة والأشقياء كانت السجون والمحاكم، من أجل عرقلة اندفاعات جنونهم كان القانون وعصا الجلاد، ومن أجلهم كذلك سُعِّرت النار وكانت جهنم...

النبلاء على مر التاريخ ما فتئوا يبذلون جهدهم الكامل من أجل إظهار الحقيقة

التي يؤمنون بها، يتحملون الكثير من العنت والمشقة والابتلاءات، لكنهم ومع كل نبلهم الكامن في أرواحهم يعرفون جيدًا أن هناك صنفًا لو تعذرت هدايته فمحاربته تصبح جزءًا لا يمكن إغفاله من معركة الحق.

وفي تاريخ الأنبياء سنقرأ كيف أنهم في لحظاتٍ ما امتلأ كأس صبرهم حتى فاضت ولم يجدوا بدًّا من رفع الرأس إلى السماء وطلب النجاة لهم والعقاب لأعدائهم، فكان طوفان نوح، وغرق فرعون وجنوده، وعاصفة قوم لوط، ومصائب مدين.

حتى الخالق - جل اسمه - على كل ما نؤمن به من اتساع رحمته وعدم محدوديتها، على إيماننا التام كذلك بأنه شديد العقاب، منتقم، جبار، القضية كلها تكون في من يستحق أن يُغمد بالرحمة والمغفرة، ومن يستحق الشقاء والعقوبة، وقد علم كلُّ أناسٍ مَشْرَبَهم.



في كل عام كان النبي محمد ينتظر أفواج الحجيج كي يجلس معهم ويحاول شرح منهجه لهم، لكن يبدو أن العام العاشر من بعثته كان مشتعلًا وضربات قريش - في غياب أبي طالب - كانت عنيفة وقاسية، لدرجة أن النبي قرر أن يقوم بخطوة جديدة وهي الذهاب إلى مناطق أخرى غير مكة يحاول فيها أن يكسب أرضًا جديدة لدعوته...

وقع الاختيار على الطائف، وهي بلدة قريبة نسبيًّا من مكة (120 ميلًا) ولها مكانتها التجارية والزراعية نظرًا إلى وجود البساتين والمزارع بها.

المعضلة هنا أنه ليس لمحمد من سند هناك، وبالتالي سيطرق أبواب القوم دون موعد أو تمهيد، دَعْكَ من أزمة أخرى، وهي تكلفة الفرصة، كما يسميها أهل الاقتصاد، ليس من السهل أن تخرج الدعوة وتطرق بابًا جديدًا ثم تعود بخفيٍّ حنين، عيون قريش ترقب بدأب نصف سقطة، ومخزون الشماتة بداخلهم في انتظار تعثُّرٍ يتم استثماره في ضرب الرجل والنيل من دعوته.

ومع هذا لم يكن هناك سبيل إلا الذهاب إلى الطائف، مع محاولةِ جعْلِها زيارةً سرِّيةً حتى يظهر المخبوء من القدر، وعليه قطع النبي محمد المسافة من مكة إلى الطائف على قدميه، ربما إمعانًا في سرِّية الرحلة، وكي لا يلفت نظر الناس إلى ما هو مقبل عليه.

مئة وعشرون ميلًا قطعها النبي راجلًا، معه صديقة الحالي وخادمه السابق زيد بن حارثة، مسافة وإن كانت في عُرف أهل الصحراء هيّنة، إلا أنها شاقّة حين تكون الأقدام لا الدواب هي ما سيحملك فيها.

وحال وصوله لم يسترِحْ الرجل، قصد بيت أحد كُبَرَاء ثقيف وهو بيت عمرو بن عمير، وجلس إلى أبنائه الثلاثة يحدِّثهم عن دعوته، وفكرة الخالق الواحد،

ومنظومة التعاليم والأفكار التي أتى بها، وكذلك حكى شيئًا مما لاقى في قريش، وطلب منهم أن ينضموا إليه، ويكونوا عصبته في تلك المنطقة.

لكن ما حدث لم يكن بالشيء السارِّ أبدًا، كان الاستقبال سخيفًا لا يليق حتى بطباع العرب المعروفة، وتم التعامل مع ما يقوله الرجل باستخفاف ونزق صبياني عجيب!

قال أحدهم معترضًا على فكرة كونه نبيًّا: «ألم يجد اللهُ أحدًا يرسله غيرك».

وقال الثاني: «لئن كنت رسولًا من الله كما تقول فأنت إذن أشد خطرًا مَن أن أرد عليك، وإن كنت تكذب على الله فلا ينبغي لي أن أكلمك».

بعد حوار لم يطل قام النبي محمد مغادرًا، لكنه طلب منهم من باب المروءة ألا يعلم أحد بزيارته تلك، وأنه ليس من الضرورة أن يصل خبرها إلى قريش.

ويبدو أن المروءة كانت في ذلك الزمان ضنينة على الناس، لقد نادى الأشقياء الثلاثة على سفهاء البلدة وعبيدها، وأطلقوهم على الرجل الغريب، وقفوا صَفّين والرجل يمضي وسطهم، لا يرفع قدمًا إلا وأصابوها بحجارتهم، انفجرت الدماء من قدم مشت الأميال من أجل إنقاذهم، ومضى النبي في طرقات الطائف حزينًا من غياب التوفيق، وموت المروءة، وما وصلت إليه أخلاق الناس وطباعهم من سوء.

كان هذا اليوم هو الأصعب على النبي محمد منذ بدء دعوته!

تخيل معي الآن طريق العودة بالنسبة إليه، عِشْ معه خطواته المنهكة الدامية عائدًا إلى مكة بعدما تأكد له أن أخبار جولته تلك وما حدث فيها قد وصلت إلى القوم، وأن الاحتفال الحقيقي لم يبدأ بعد!

ليس هناك أبو طالب منتظرًا كي يهشّ الناس عنه، وأتباعه حتى وإن كان فيهم حمزة وعمر فهم قِلّة، لا تستطيع الوقوف أمام تجبر قريش وتوحشها... المجهول المنتظَر كان باعثًا على التنلق، وعليه قام النبي محمد بخطوة غريبة...

لقد قرر ـ ويقال إنه نزولًا على اقتراح زيد ـ أن يبحث له بين المشركين عن أحد يجيره، شخص من كُبَرَاء البلدة يحميه ويمنع قريش عنه!

نحن أمام مأساة مكتملة الجوانب، مأساة لا يمكن أن يشعر بها إلا أصحاب الفكر المضطهدون، مأساة الأفكار حينما تضيق بقبولها نفوس الناس ويحاولون محاربتها والتكالب عليها بكل الطرق، مأساة الخسة حينما تَحكُم، والعصبية إذ تجتمع في جعبتها كل أدوات القهر.

وعليه، أرسل النبي إلى أحد الكُبَرَاء وهو الأخنس بن شريق، لكنه رفض جواره لأسباب ذكرها من أنه حليف لقريش ولا يجير مَن عاداهم، فأرسل إلى سهيل بن عمرو فرفض هو الآخر، فأرسل إلى مُطعم بن عديّ فقَبِل الرجل أن يجيره ويحميه، فأتاه النبي وبات ليلته عنده!

وفي الصباح جمع مُطعم أبناءه ـ يقال إنهم كانوا سبعة أبناء ـ ثم طلب من النبي أن يطوف بالكعبة وهم شاهرون سيوفهم كإعلان عن حمايتهم للرجل، فأقبل أبو سفيان على مُطعم مستفهمًا: «أمجيرٌ أم تابع؟»، ولما أخبره أنه مجير وحامٍ للرجل عاد إلى مجلسه ليخبر الناس أن ظهر محمد محميٌّ مؤقتًا بجوار مُطعم بن عدي.



النبي المُضطهَد

يقول أحدهم: وهل كانت دعوة محمد إلا إحياء لعصبية، ومحاولة منه لعلو أسهم بني هاشم بين قريش!

والحقيقة أن أشد المعضلات توضيح الواضحات! وكيف نرد على تصور كهذا، وجميع الحقائق تؤكد أن الرجل لم يجد دعمًا قبليًّا اللهمَّ إلا عمه أبو طالب، ولم يؤمن من دائرته القريبة إلا حمزة، وكان أشد أعدائه هو عمه أبو لهب؟!

كل ما يمكن أن يقال عن الرجل قد قيل، ولسنا هنا معنيين بالرد على كل تافهٍ يغالط المنطق ويحاول إيهام نفسه وغيره بأن محمدًا ليس أكثر من رجل ذكي استطاع أن يخدع الناس ويدّعي النسب إلى السماء.

كل الوقائع التي حدثت حتى الآن تؤكد أن رجُلنا كان مؤمنًا بما يقول، لا يحيد

أبدًا عن مبادئه، لا يهادن ولا يفاوض على رسالته، ماضيًا إلى النهاية مهما كانت النتائج.

هل تعرفون ما الذي كان يقوله النبي لقريش كل يوم؟

عبارة واحدة: «خلُّوا بيني وبين الناس»... فقط الحياد هو مطلبه.

كان يقابل القبائل التي تأتي للحج، ويطلب منهم الإيمان به وحمايته، كان يقول: «لا أُكره أحدًا على شيء، من رضي منكم بالذي أدعو إليه، فذلك، ومن كره لم أُكْرِهه، إنما أريد أن تحزرون «تحموني» في ما يُراد بي من القتل، حتى أبلِّغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله تعالى لي ولمن صحبني بما يشاء».

ومع هذا الأدب والسماحة في عرض الأمر إلا أنه كان هناك من يسخر، ومن يرفض صامًّا أذنه، ونفر يستمع دون رد... في المجمل لم تكن النتائج كبيرة، لكنّ هذا لا يمنع أن هناك نقاطًا ما وصلتْها رسالة محمد وآمنت به، هناك الطفيل بن عمرو الدَّوسي، كبير قبيلة دوس، وهناك أبو ذر الغفاري الذي أقنع قبيلته «غفار» برسالة الإسلام، وهناك وفد من نصارى نجران بالحبشة أتى واستمع وآمن به وعاد إلى قومه ليخبرهم نبأ الرجل وصدقه، نعم كانت هناك مؤشرات إيجابية، لكنها لا ترتقي إلى فكرة وجود دعم كبير سواء نفسيًّا أو معنويًّا يمكن أن يدافع عن النبي ويحميه إذا ما التجأ إليه.

حتى كان اليوم الذي تحدث فيه النبي مع رجل من يثرب يقال له سويد بن الصامت، وسويد كان رجلًا يحب الحكمة ويبحث عنها، ولذلك لم يتعامل مع النبي محمد من موقع المتلقي فقط، وإنما حاوره وناقشه، فما إنْ دعاه النبي للحديث معه وعرض النبوة عليه حتى رد سويد بن الصامت قائلًا: «فلعل الذي معك مثل الذي معي»!

فقال له النبي: «وما الذي معك؟»، فرد سويد: «مجلة لقمان»، يقصد حكمة لقمان.

فقال النبي: «حسنًا، اعرضها عليَّ»، فعرضها عليه سويد.

فقال النبي: «إن هذا الكلام حسن، ومعي أفضل منه، هذا قرآن أنزله الله عليَّ هدى ونور»، ثم قرأ عليه من كتاب ربه.

فما إن سمع سويد القرآن حتى قال: «هذا كلام حسن» ثم ودَّع النبي ذاهبًا إلى يثرب بعدما وعده بكل خير.

غير أن الرجل كان ينتمي إلى قبيلة «الأوس»، فقُتل من قبيلة «الخزرج» دون أن يصنع أثرًا كبيرًا في القوم بما سمعه من النبي محمد.

غير أن جماعة من قومه «الأوس» أتوا إلى مكة لعقد حلف معهم حتى يتسنى لهم إنهاء حالة الحرب والشقاق مع «الخزرج»، فقابلهم النبي وتحدث معهم قائلًا: «هل لكم في خير مما جئتم إليه؟»

فقالوا: وما ذاك؟! فقال لهم: «أنا رسول الله إلى العباد، أدعو إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليَّ الكتاب»، ثم ذكر لهم تفاصيل رسالته، وقرأ عليهم من القرآن.

المدهش هنا أنه كان بين الشيوخ شاب صغير اسمه «إياس بن معاذ» قام من فوره مستبشرًا، وقال لقومه: «هذا والله بأفضل مما جئتم به».

فنهره كبير القوم قائلًا: «دعنا عنك، فَلَعَمْري لقد أتينا لغير ذلك».

عاد القوم إلى يثرب، وبعدها مباشرة كانت المعركة الكبرى المعروفة بيوم «بُعاث»، والتي قُتل فيها الكثير من شيوخ وشباب الأوس والخزرج، فأوجعتهم الحرب أيّما وجع، وكان لها أثر كبير في ما هو قادم!



يظن البعض أن المدد الإلهي جاهز وسخيٌّ لعباده المتقين، ويتعجب آخرون كيف يُقتل أصحاب الدعوات النبيلة دون أن يكون هناك تدخل من السماء، وربما كفر أهل الحق بالحقيقة، ولفظ النبلاء نبلهم لا لشيء إلا لخيبة أملهم في الخالق، ويأسهم من رب يرى الظلم ضاربًا أركانه في الأرض ولا يفعل شيئًا!

ولا يعلم هؤلاء أنه لا توجد أبواب خلفية للنصر، ولا استثناءات يمكن أن تنالها جماعة في حربها، ولو كان هذا متاحًا لكان أولى الناس به أنبياء الله ورسله،

نحن الآن على مشارف العام الحادي عشر بعد بعثة النبي محمد، طريق طويل خاضه الرجل من أجل إقناع الناس بالحق، طريق مليء بكل ما يمكن أن تتصوره من العوائق، ومليء كذلك بالحنكة والتدبير البشري من النبي محمد.

كأن في هذا رسالة لكل من آمن بهذا الرجل واتبعه، أن الله ـ جل اسمه ـ مع كامل قدرته في قلب موازين أي معركة، إلا أنه لحكمةٍ يريدها أصَّل في رسالته الخاتمة أن النصر مرتبط دائمًا بالأسباب.

لا استثناءات، حتى لنبيه وأحبِّ الخلق إليه.

الدعاء هو العبادة، كما أخبرنا النبي محمد، ولكن أيُّ دعاء لا يسبقه عمل وتدبير وأخذ بالأسباب لن يخرج عن كونه كلامًا، وها نحن ننظر كل عام إلى الملايين يطوفون ببيته العتيق ويدعونه، وقد تطهروا، أن ينصر دينه، ولا شيء يتغير.

الله ـ جلّ اسمه ـ يسمع الدعاء، يعرف جيدًا ـ سبحانه ـ خوالج النفس وآلامها، وقرآنه الذي نحفظه جيدًا ينطق كل يوم فينا أنْ اعملوا، وتفكروا، وتدبروا، وأَعِدُّوا.

لكننا لا نفعل شيئًا من هذا ثم نأتيه لنصلي، وندعو، ونطلب... ولا يستجاب لنا.

دعُونا ننظرْ إلى خطوات النبي محمد ونتعلم جيدًا كيف تنتصر رسالةٌ، كلُّ مَن حولها يحاربها.

الرجل عمل بدأب لا يمكن تصوُّره، خطوات النصر كانت بطيئة جدًّا، النتائج الإيجابية كانت أقل بكثير من الجهد المبذول، ولكن لا شيء من هذا كان باعثًا على اليأس والإحباط.

بعد «يوم بعاث» الذي أوجع الأوس والخزرج، كان النبي في مكة جاهزًا لتلقي الأفئدة الجريحة، ليعيد عليهم الأمر، ثم إنه كان مدركًا بشكل كبير لطبيعة يثرب وما يحدث فيها.

هناك يوجد العرب وقد انقسموا بين أوس وخزرج، وهناك أيضًا اليهود، وهم جماعة رأسمالية متماسكة، يستمدون قوتهم من شيئين:

أولًا وضعهم الاقتصادي، ثانيًا وهو الأهم من تشرذم العرب وحروبهم المستمرة.

وهناك أنباء تتردد أنهم بخبثهم المعهود كانوا وراء إبقاء عداوة كلتا القبيلتين قائمة، هذا بالإضافة إلى كلام اليهود المتكرر عن ظهور نبيٍّ سيأتي ليحارب العرب وينصر اليهود ويُعلي كلمتهم!

وكان خبر النبي الجديد هذا إحدى نقاط الارتكاز المهمة التي هيَّأت أهل يثرب

للتعامل مع الأمر بجدِّية، فما زال الناس يذكرون مَقْدِم أحد الحاخامات اليهود من الشام إلى يثرب، وعندما سأله بعضهم عن تركه بلاد الشام الخصيبة الجميلة ومجيئه للعيش في بلاد الصعاب والجوع، أجابهم أنه ترك ذلك كله كي يكون موجودًا عند وصول «النبي» الجديد!

ما زال الناس يذكرون هذا جيدًا، لا سيما أن هذا الحاخام كان على غير عادة اليهود، وبه من حسن الخلق ما جعل كلامه ذا وجاهة، وقريبًا من القلب، وحاضرًا في الذهن.

على كلٍّ، عندما علم النبي بأن هناك وفدًا من يثرب أتى إلى مكة، ذهب إليهم سائلًا: من أنتم؟

فقالوا: نفرٌ من الخزرج، فسألهم النبي: أمن موالي اليهود؟ «يعني من المتعاونين معهم وبينكم وبينهم عهود وتجارة».

فقالوا: لا، فقال لهم: ألا تجلسون أكلمكم؟ فقالوا: بلى.

فكلمهم النبي، وعرض عليهم الإسلام، ورد على أسئلتهم.

لقي كلام النبي محمد في نفوس القوم صدى حسنًا، وقال بعضهم: «يا قوم، تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به اليهود، فلا يسبقُنَّكم إليه».

فقالوا للنبي كلامًا طيبًا، وآمنوا به، ثم قالوا: «إنّا تركنا قومنا، والقوم بينهم

من العداوة والشر ما بينهم، لعل أن يجمعهم الله تعالى عليك، فلا رجل أعز منك».

ونقف لنتأمل في هذا الحوار، لأنه كان بدايةً لنهاية الحقبة المكِّيَّة.

النبي هنا يعرف جيدًا الوضع القائم في يثرب، يعرف جيدًا ما يلاقيه القوم، يعرف أثر اليهود فيهم، مدركٌ لآلام المرحلة وأثر حروبها عليهم.

كان هناك آحاد من أهل يثرب قد آمنوا به وصدقوه، وبالتالي هناك نفر قليل في يثرب ممن أسلموا، وعليه هناك صدى طيب عن سيرة الرجل وحقيقة دعوته.

المزيَّة هنا أن الحرب القائمة بين الأوس والخزرج كانت من الشدة والقوة بمكان أنْ سحقت إرث العصبية، فلم تقف حائلًا أمام تلقّي أهل يثرب للدين الجديد، بل على العكس وجدوها فرصة للمصالحة وفتح صفحة جديدة.

ولك أن تتخيل أن هؤلاء الرهط ـ يقال إنهم سبعة أو ثمانية أشخاص ـ عادوا وتحدثوا في الناس بشكل جماعي عن دعوة الرجل، حتى إن هناك مَن آمن به وأسلم بمجرد سماع الفكرة العامة، وهناك من تمهل وانتظر، لكن الخلاصة أن البيئة نفسها صارت ممهَّدة للاستماع.

وفي موسم الحج الذي أعقب هذا اللقاء كانت مكة على موعد مع أهم اجتماع

جرى بين ربوعها في تاريخها، الاجتماع الذي نقل دعوة النبي محمد نقلة نوعية، ومهَّد لوجود دولة بعد ذلك.

حيث جاء للحج اثنا عشر نقيبًا من الأوس والخزرج، جاؤوا للحج ولقاء النبي، لا ليستمعوا وإنما للمبايعة مباشرة.

ويسجل التاريخ هنا بنود الاتفاق، يحفرها جيدًا في صفحاته ليذكِّر تجار التاريخ على أي شيء كان يبايع النبيُّ محمد أتباعَه.

يقول عبادة بن الصامت، أحد الحاضرين لهذا الاجتماع: «بايعنا النبي ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، وقال لنا: فإن وفّيتم فلكم الجنة، وإن غَشِيتُم شيئًا فأُخِذتم بحدِّه في الدنيا فهو كفّارة له، وإن سترتم عليه ليوم القيامة فأمركم إلى الله، إنْ شاء عذَّب وإنْ شاء غَفَر».

ما الذي يمكن أن نراه في دعوة الرجل إلا حثًّا على مكارم الأخلاق، بل حتى عندما تحدث عن الذنوب والأخطاء قال إن من يصحح أخطاءه في الدنيا فهي كفّارة، ومن لا يفعل فأمره إلى الله، حتى طاعته هو كرسول ربطها بالمعروف الذي يدعو إليه.

انتهى كلام النبي، وآمن القوم به، وعندما قرروا العودة بعد انتهاء موسم الحج

أرسل معهم صاحبه النابه الذكي «مصعب بن عمير» ليعلِّم الناس الصلاة، ويقرأ عليهم القرآن، ويجيب عن أسئلتهم ويبيِّن لهم الإسلام وتعاليمه كما سمعها من نبيه.

ولله دَرُّ مصعب، مضى في المدينة داعيًا إلى الإسلام، مؤسسًا للدعوة، وناله من التوفيق الشيء الكثير، حيث كان أفضل سفير للفكرة، وصار الإسلام في يثرب دينًا قائمًا، يقرأ الناس القرآن بصوت مرتفع، ويُصلون في العلن، وهذا أمر يشبه الأحلام، ولم يتحقق بعد للنبي نفسه حتى هذه اللحظة.

ثم كان موسم الحج الذي يليه!

وأريدك أن تتوقف هنا يا صاحبي، في صفحتين تقريبًا تحدثاننا عن أمور جرت في سنوات ثلاث، في ألف يوم أو يزيد دخل الإسلام يثرب وتمكن فيها، وفي أثناء هذه الفترة كان النبي يقوم بعمله في مكة، ويراقب بعينه التطورات التي تحدث في يثرب، وهذا درس آخر في الدأب، والصبر، والتمهل.

ثم إنه كان واعيًا منتبهًا، وأكرر، لمن يريد أن يعي سنن النصر، أن عليه أن ينتبه إلى سيرة هذا الرجل؛ فمع كل المدد الذي يمكن طلبه من خالقه، إلا أنه كان يدير الأمور بشكل بشري تام، متحملًا صعوبة الطريق كي يعلّمنا كيف أن طرق أهل الحق شاقّة، وأن تدبير الشر مهما كان خبيثًا لن يغلبه إلا تدبير الخير شريطة أن يكون أكثر فهمًا، ووعيًا، وحذرًا.

ففي العام التالي لم يقابل النبي وفد يثرب إلا يوم مِنى، تركهم في مكة لعلمه أن الأخبار قد تطايرت، وعلمت قريش بأمر النجاحات التي حققها النبي هناك، وعليه تركهم حتى اطمأن إلى أن العيون قد أغشاها زحام مِنى، فاقترب منهم قائلًا: «ليتكلم متكلمكم، ولا يُطِل الخُطبة، فإن عليكم من المشركين عينًا».

كان الاجتماع بعد انقضاء ثلث الليل الأول، ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان... وكانت بيعة العقبة الثانية، التي بايع فيها القومُ النبيَّ محمدًا على نصرته وحمايته.

والمدهش فعلًا هو رد فعل قريش، لقد عرفت قريش بالأمر ظنًّا، ولم تتأكد إلا بعدما رحل القوم، فأرسلت خلفهم حتى أَسَرَت واحدًا منهم «سعد بن عبادة» وأتت به إلى مكة موثّقًا، ولم ينقذه إلا أحد تجار قريش كان سعد يحمي تجّاره.

وسبب الدهشة هنا هو كمّ العنت في محاربة الرجل.

فما الذي يضيرهم من انتشار دعوة ما دام بعيدًا عنهم؟ ما الأذى الذي يمكن أن يصيبهم عندما يؤمن الأباعد بدين النبي محمد؟!

الغرور القرشي سيظل مَضربًا للمثل، وسنوات النبي في مكة ستظل شاهدة على ما عاناه الرجل من أذى وعنت ومحاربة، ستظل أمامنا ماثلة، لتخبرنا كيف

أن الشر لا يهمد أبدًا في محاربة أهل الخير، وأن العظماء لا يلمعون في سمائنا بضربة حظ أو بتوفيق مخلوعٍ عنه التعبِ والجهد.

وأنه لا شيء مجانيًّا في هذه الحياة... أبدًا!



الدم المُهْدَر

لا شيء في دنيا الناس يدوم، لكننا ضعاف في فهم تدابير القدر...

كل العظماء ـ أنبياء وغيرهم ـ سيخبرونك في كل لحظة أن النصر ليس بعيد المنال، شريطة أن تمضي في طريقك مستمدًا من عِظم غايتك ما تتقوى به في ليالي الوحشة، وأن اليأس والإحباط والتخبط وكل المشاعر السلبية يمكن أن تزور روحك غير أنها يجب ألا تتطور لما هو أكبر من مجرد شعور نفسي، يداخل الروح ويُطرد منها دون أن يجد له في الفؤاد سكنًا ومرتعًا!

ثلاثة عشر عامًا مرّت حتى الآن، سنوات كَثُر بلاؤها، لياليها معتمة، وأحداثها قاسية، وأخبارها لا تُكتب إلا في فصول القهر والاستبداد.

فقط النقطة البيضاء كانت سلوك النبي محمد وأتباعه، هؤلاء العُزل الذين واجهوا القسوة بصبر ودأب، وبإيمان مطلق بتحقق الغاية والمطلب.

الأتباع الذين يمكن أن نرى فيهم تباينًا ملحوظًا ينفي فكرة المصلحة أو المغنم من الذهن...

فأيُّ منفعة يريدها عثمان بن عفان من الإسلام وهو في قمة غناه ومكانته المادية والأدبية، ويختار الاحتقار والنبذ بدلًا من الوجاهة والشرف؟

ما الذي يدفع أبا بكر، وغيره كثير، إلى أن ينفقوا أموالهم التي ادَّخروها بسنوات جهد وتعب، دعمًا للفكرة، حتى إن النبي حين سأل أبا بكر عما أبقاه لأهله بعد كل هذا الإنفاق فيقول مغتبطًا: «تركت لهم الله ورسوله»؟

ما الذي يدفع الفتي المدلل سعد بن أبي وقاص الغنيّ المرفَّه إلى أن يخالف رأي أمه بالابتعاد عن هذا الأمر، حتى يصل الأمر لربطه بالحبال وحبسه؟!

مع هؤلاء النبلاء ينضم نبلاء آخرون، ليسوا من حقراء البلدة أو صعاليكها؛ بلال وصهيب وسلمان وياسر كانوا فقراء الحال، بيد أن نُبل أخلاقهم كان كبيرًا، وتفانيهم وصبرهم كان عظيمًا، وجاء الإسلام ليردم الفجوة بين الغني والفقير، المدلل والمكافح، صاحب التاريخ والعبد مقطوع النسب!

غير أن هذا التباين كان يختفي حين ننظر إلى أعمار الأتباع المحيطين بالنبي، ذلك أن الإسلام في بدايته كان حركة شباب، غالب أتباعه ممن لم يتجاوزوا الأربعين، ولطالما كان العمر مأزقًا في التحام الناس بالأفكار، الكبار سنًّا يجدون حرجًا

وضيقًا من التغيير، بينما الشباب هم النصر والفتوّة، بيد أنها فتوة عقيدة لا اندفاعة تهور أو نزق، وعليه تحمل الشباب كل العنت والظُّلم الواقع عليهم بدأب، والتحموا بالفكرة صامدين، وجرت الوقائع على أرواحهم - رغم تباين مكانتهم - فزادتهم التحامًا وصبرًا وثقة بموعود الله.

واليوم جاءت البشارة من النبي محمد للأتباع: «إن الله تعالى قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها».

يا إلهي، حتى في إعلان الهجرة الذي بثّه النبي على أصحابه، لم يقل إخوانًا تنتصرون بهم، وإنما ذكر لهم قيمة شعور كان يبحث عنه المسلمون آنذاك «الأمان»، ذلك الشعور الغائب لعقد أو يزيد، وهل بعد الوحشة والخوف والترقب من شيء يمكن أن يجعل ليالينا مخيفة؟!

قالها النبي لأصحابه فبدأت الهجرة... تستيقظ قريش كل يوم فتجد أن بيتًا أو أكثر من بيوت المسلمين دون أصحابها؛ متاعهم وأموالهم، ومواشيهم كما هي، غير أن الأفراد ليسوا موجودين!

لكن قريش كانت أشرس هذه المرة، لإدراكها أن هجرة المسلمين إلى يثرب ليست كمثيلتها إلى الحبشة، إنهم هذه المرة ذاهبون إلى بلد سيحتفي بهم، لن يتم التعامل معهم كلاجئين بل كفاتحين، ليسوا غرباء بل أصحاب أرض، وهذا مما يُطير اللب ويشحذ النفس على الإيذاء.

وعليه كان التعرض للمهاجرين، فكانت الهجرة سرًّا، ولدينا حكايات كثيرة لما تعرَّض له المسلمون في هجرتهم تلك من أذى وعنت وخداع، لقد استمرت قريش في صلفها حتى حينما قرر أصحاب النبي ترك ديارهم وأموالهم والفرار، ضيَّقوا عليهم، وحاصروهم، ووقفوا لهم في كل وادٍ ومَخرج.

هل من أحد هنا يشفي الصدر؟ ومَن غير عمر نستدعيه!

يقول العظيم علي بن أبي طالب: «ما علمت أحدًا من المسلمين إلا وهاجر متخفيًا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلَّد سيفه، وتنكّب قوسه، وانتضى في يديه أسهمًا، واختصر عنزته، ومضى قُبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم نظر إلى الناس من حوله صارخًا فيهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو يُيتَّم ولده، أو تُرمَّل زوجته، فَلْيَلْقَني وراء هذا الوادي».

وهكذا بصق عمر في وجوه الظالمين ثم مضى في طريقه...

كان المسلمون حينها يهبطون في يثرب فيجدون البيوت مفتوحة، تقاسَم معهم أهل البلدة الفراش ورغيف الخبز، وجدوا أخيرًا جدارًا آمنًا يحتمون به، وسمعوا للمرة الأولى تكبيرة الصلاة ترتفع في الفضاء، فيركعون ويسجدون وظهورهم آمنة، وقلوبهم حاضرة.

هاجر الجميع اللهمَّ إلا ثلاثاً ـ بجانب مَن منعتهم قريش أو حبستهم ـ وهم النبي محمد، وعلي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق.



نريد هنا أن نستدعي التاريخ كي يقرأ آخر مشهد في حياة النبي محمد في مكة...

نريده أن يأتي ـ ولو كرهًا ـ ليخبرنا عن أحداث تلك الليلة التي اجتمعت فيها قريش في دار الندوة ـ دار قصيّ بن كلاب ـ وهم يتباحثون بينهم عن الطريقة المثلى لوأد هذا الدين إلى الأبد، نستسمحه عذرًا أن يُعلي صوته فوق كل الأصوات الغاضبة التي تتحدث عن انتصار محمد وأتباعه في تلك الجولة، وتمكّنهم من إيجاد ملاذ آمن في يثرب، ليخبرنا عن سبب الكراهية الشديدة التي تظهر في كلام القوم بعدما قرر الرجل المضطهد أن يترك البلدة كلها ويرحل بفكرته بعيدًا.

نطلب من التاريخ هذا كي يدوِّن ويوثِّق فسنحتاج إلى شهادته تلك ـ حينما يعود الرجل ثانية إلى تلك البلدة منتصرًا، سنحتاج منه أن يقارن وقتها بين الحدثين، ويُظهر لنا حقيقة الناس وطبيعة معادنهم.

قريش مضطربة، خائفة، أصابها الهياج لأن الرجل الذي حاربوه لسنوات

بلغت ثلاث عشرة قد وجد له مرفأً يوقف فيه سفينة دعوته أخيرًا، ويبدأ في تكوين دولته التي حدَّثهم عنها، ومجتمعه الفاضل الذي طلب منهم أن ينضموا إليه ويكونوا أعمدته الأساسية.

كانت الحلول هذه المرة أكثر حدةً وعنفًا، حيث قال أحدهم:

- احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا حتى يموت.

وقال آخر:

- اطردوه بعيدًا، وليذهب حيث شاء، ولنعد كما كنا من ألفة واجتماع.

حتى قال أبو جهل:

- والله إن لي رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد، أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًّا فتيًّا، ثم نعطي لكل واحد منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه بين القبائل، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فيرضوا منه بالدِّية فنجمعها لهم.

واجتمع أمر القوم على هذا الرأي؛ قَتْل الرسول عوضًا عن تفنيد الرسالة،

استخدام السيف بدلًا من استدعاء العقل، إسالة دم الرجل المضطهد بأكثر من سيف، واستئصال الفكرة من الوجود.

وكان أنْ اجتمع القوم في عتمة الليل وعلى رأسهم أبو جهل وذهبوا ليحيطوا بدار الرجل منتظرين خروجه.

يقال هنا إن سبب وقوفهم خارج الدار وعدم اقتحامه هو مراعاتهم لبعض الأصول وخوفهم أن ينتشر بين العرب أنهم روّعوا أهل البيت، وهتكوا حرمته، فقرروا أن ينتظروا في الخارج، وعلى كلٍّ، النتيجة - بالنسبة إليهم - شبه مضمونة، فليكن التربص في الخارج انتظارًا لخروج الرجل وقتله على عتبة داره.

علم النبي بما يُدبَّر في الخارج، والشواهد التاريخية كلها تؤكد أنه كان متزنًا مطمئنًا لأقصى درجة، لم يشغل باله حينها إلا شيء واحد، وهو صندوق الأمانات التي أودعتْها قريش عنده.

الرجل رغم كل شيء كان مقصدًا لكل من يملك نفيسًا يودّ أن يحفظه في مأمن، وبالتالي لم يكن ممكنًا أخذ هذه الأمانات أو حتى تركها هكذا، وعليه أمر ابن عمه علي بن أبي طالب - يقال إنه كان في الثانية والعشرين وقتها - بأن ينام على فراشه ويلتحف ببردته، وأخبره بسرِّ الأمانات وأعلمه بأسماء أصحابها، وترك له مهمة ردها إلى أصحابها ثم اللحاق به.

خرج النبي من داره، وتخطّى القوم، وقد كانوا نيامًا!

ضع ألف علامة تعجب هنا، لا يوجد تفسير آخر سوى هذا، لقد جاء دعم السماء في تلك اللحظة يقينًا، لا يوجد أبدًا أيُّ روايات أخرى تفسر خروج الرجل وجيش قريش يتربص به إلا أن رب محمد تدخل في هذه اللحظة، بل كل الروايات تؤكد أنه قد نثر على رؤوسهم التراب، كأنه يترك بصمته على المشهد، مؤكدًا أن مروره بينهم كان أكثر طمأنينة مما يتوقع أحد، وأن ثقته بتخطِّي هذا الفخ كانت كبيرة.

وقد تتدخل السماء أحيانًا...!

للخالق في إدارة الأمور حكمة تتخطى أذهاننا، ولكلٍّ منا ساعات وأيام طلب فيها المدد لكنه لم يأتِ، وساعات أخرى ضاقت فيها الحياة تمامًا ثم انفرجت الأمور بغتة ومن دون أسباب منطقية، آثار الله حاضرة حولنا كثيرًا، لكننا دائمًا في عجلة عن التمهل وتأمُّل الأمر وتدبره.

وقد جاء مدد الله لنبيه في تلك اللحظة، فمرّ بين الناس ناثرًا التراب على رؤوسهم، ماضيًا إلى حيث سيلتقي مع صاحبه أبي بكر، ويبدأ في تنفيذ خطة الهجرة المرسومة مسبقًا.

لكننا سنتمهل قليلًا لنستمع إلى ذلك القادم من بعيد، أحد المنتظرين لخبر

القضاء على محمد رآه يمضي منذ قليل بين شوارع مكة وطرقاتها، فعاد ليستطلع الأمر، فوجد القوم شبه نيام، وفي ظنهم أن الفريسة ما زالت في مخدعها آمنة.

صرخ فيهم: «خيَّبكم الله، قد والله خرج محمد بينكم، ثم والله ما ترك أحد منكم إلا ووضع على رأسه التراب، أما ترون ما بكم؟!».

تحسس القوم رؤوسهم فوجدوا أثرًا مما نثره النبي محمد عليهم، لكنهم نظروا من فُرجة في الحائط فوجدوا أن فراش الرجل ما زال كما هو، وجسد علي الملتحف ببردة النبي محمد ساكنًا، فلم يُصدقوا الخبر، حتى كان الصباح، ورأوا عليًّا ينهض من الفراش ليقوم بواجباته التي أمره نبيه بها!



الطريق إلى الحرية

صغيرًا، كنت أعجب من السبب الذي جعل التقويم الإسلامي يبدأ من هجرة النبي محمد إلى المدينة المنورة «يثرب سابقًا»، وكنت أتساءل عن قيمة وأهمية تلك الرحلة كي يبدأ من عندها كل شيء!

لماذا حين اختار صحابة النبي في وضع نقطة ارتكاز للتاريخ الإسلامي، اجتمعوا على رأي عمر بن الخطاب، بأنها لحظة الهجرة، لتكون هي البداية؟!

الآن بات كل شيء واضحًا أمامي، فتلك الرحلة تحمل دلالات عدة، إنها رحلة الحرية، والأمن، والاستقرار...

ليست المسافة بين مكة والمدينة أميالًا نحسبها، بل سنوات طوال جعلت من البقعتين الجغرافيتين مثالًا نستدعيه إذا ما أردنا مقارنةً بين أرض ظلمٍ وأرض

عدلٍ، بين الخوف والأمن، بين الكراهية في أعلى صورها والحب في أصفى حالاته.

التقويم الهجري هو تقويم الحرية، هو الشاهد الأهم على أن الأفكار العظيمة لن تجد لنفسها متنفسًا إلا في بيئة لا ترتفع فيها السيوف على الرقاب، ولا يُصادَر حق الناس في التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم، هو الشاهد على أننا مطالَبون بالتمسك بما نعتقد حتى لو تطلب هذا هجر أرض الظُّلم، إذا ما رأينا أنها أكثر بأسًا وعنفوانًا من قبول الحق الذي نؤمن به، وصار خطرها علينا كبيرًا.

هذه الهجرة الصعبة التي ترك فيها النبي وأصحابه جذورَهم وذهبوا إلى أرض أخرى، أرض مع كل محاولات أهلها للترحيب بهم، وكل قرارات النبي لتخفيف وحشتها عليهم، إلا أنه كان مُصرًّا على أن يختار لأصحابه من أهل مكة تعريفًا واحدًا «المهاجرين»، بل كان أعمق من مجرد تعريف، إنه تاج عزٍّ نُحتت عليه تضحياتهم، ووجعهم، وما قدموه.

لقد رأينا الصورة التي خرج بها النبي من مكة، وكيف تسلل من بين يدي أعدائه متخطيًا سيوفهم ليرحل عن بلده الذي عاش فيه، تاركًا مرابع الطفولة والصبا، يخرج من بيت خديجة ليرحل إلى بلد آخر مجبرًا، بعدما وقفت البلدة التي لطالما شهدت بخصاله النبيلة العظيمة لتحاربه وتعمل جهدها لإهانته وإيذائه.

ولكن قبل أن نقفز إلى مشهد الاستقبال الذي أعدَّه أهل المدينة المنورة لنبيهم المنتظر، دعُونا نتأملْ وقائع رحلته تلك، ونشهد أحداثها.

فبعد خروج النبي من بيته والقوم لا يبصرون، ذهب من فوره إلى دار صديقه أبي بكر الصديق، قبل تلك الليلة حدث أن استأذن أبو بكر نبيه في الهجرة، فطالبه النبي بالتمهل قائلًا: «لعل الله يجعل لك صاحبًا».

بدت كأنها إشارة من النبي محمد للرجل أنهما سيكونان معًا، واكتفي أبو بكر بهذا التلميح فجهَّز العدة، حيث ذهب إلى السوق وانتقى راحلتين قويتين وعهد بهما إلى رجل معروف بقدرته على حفظ تضاريس الصحراء ودروبها وهو «عبد الله بن أُريقط» والذي على االرغم من انتمائه لدين قريش فإنه كان حافظًا للسر، موثوق الجانب من قِبل أبي بكر.

وفي الليلة الموعودة طرق النبي باب أبي بكر في موعد غير متوقَّع، وأخبره أنَّ الآن يجب أن نتحرك، وكانت الخطة تقتضي الذهاب إلى غار ثور والانتظار بداخله لثلاث ليالٍ ثم يلقاهما «عبد الله بن أريقط» بالراحلتين وتبدأ الرحلة.

خرج الرجلان متخفيين، ما أثار دهشة أبي بكر حينها هو ذلك الحنين الذي اكتنف النبي في أثناء خروجه من حدود مكة؛ بدا كأن خطواته ثقيلة، وقلبه يئن وجعًا، كان هذا قبل أن يقف النبي وينظر إلى مكة من بعيد ويقول: «والله

إنّكِ لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنّي أُخرجت منك ما خرجت».

تعسًا للظُلم إذ يرسم لنا طريقًا للخلاص لم نكن نود المضيّ فيه، تعسًا لكل ظالم استقوى على عباد الله بطغيان غروره ودفعه إلى اختيار أقل الحلول وجعًا...!

لم يكن النبي محمد يريد أن يترك مكة، لكن ليس لديه حل آخر...

لم يرد الرجل أن يعادي أهلها، لكنهم لم يتعاملوا معه أبدًا إلا من منطلق العداوة...

لم يشأ هذا النبيل أن يودِّع بلدًا عاش فيه حتى تخطى الخمسين من عمره؛ ثلاثة وخمسين عامًا من الذكريات، والضحك، والألم، والكفاح، والحب... يتركها النبي خلف ظهره متجهًا إلى بلدٍ آخر، وأناس آخرين.

المُهاجر يحمل بلده بداخله، ولن ترحمه ليالي الغربة الموحشة حتى تجعله بلدًا بذاته، بلدٌ كل تضاريسه ذكريات، وكل ذكرياته شجن...

ولن يتفهم مشاعر النبي وقتذاك إلا رجل كُتب عليه الخروج من بلده متخفيًا، والذي مهما كانت وجهته، ومهما لاقى فيها من حفاوة، غير أن مشاعره وهو يترك بلده، ويحتمي في أرض غريبة، ستظل موجعة ومؤلمة.

أربعة أميال هي المسافة من مكة حتى غار ثور، أمضاها النبي وصاحبه وهما

يتخفيان من القوم، وخلال تلك المدة كان عبد الله بن أبي بكر يأتيهم بأخبار القوم وما يحدث في مكة، كما أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى الغنم في مجال الغار حتى يُخفي أيَّ أثر يمكن أن يهتدي به القوم إلى أن هناك حركة، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتي بالطعام كلما تيسرت الأمور، وعمومًا كان هناك فائض من لبن الأغنام التي يرعاها عامر بن فهيرة يكفي الرجل وصاحبه.

غير أن أشقياء مكة خرجوا في طلب النبي، والمدهش أنهم وصلوا إلى المنطقة التي يختبئ فيها النبي وصاحبه، بيد أن الأكثر دهشة أنهم لم يفطنوا إلى وجودهما في الداخل...!

تحكي كُتب السير حكايات عن عنكبوت غزل بيتًا له على مدخل الغار، وحمامة اطمأنت وبنت لنفسها عشًّا فوقه، مما كان له أثر فوري في استبعاد أن يكون أحد هناك.

والحقيقة أنها حكايات لم تَثْبت، الثابت لدينا أن أبا بكر من شدة قلقه حَزِن وقد ظن أن النهاية لا ريب فيها، حيث تمتم بصوت خفيض: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا». والثابت كذلك أن النبي محمد كان رابط الجأش، فطمأنه بابتسامة لا تكذب أنْ «لا تحزن إن الله معنا»!

هل كان النبي مطمئنًا أن أمره لن يُكشف، أو أن لديه بشارة من ربه؟ القرآن يخبرنا أنْ نعم.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾

لقد أنزل الله سكينته على نبيه، سكينة ظهرت في قلب موقن بالله، ليس فقط يقينًا روحيًا، وإنما أيضًا يقين بأنه لم يُقصِّر في شيء!

نعم... العظماء وأصحاب الأثر في الدنيا يشغل بالهم كثيرًا ما قدموه، وهل أخذوا بأسباب النصر أم لا، أما فكرة النصر ذاتها فلا تشغل البال كثيرًا، إيمانهم بأن القدر سيقف معهم مَنْبَتُه الأصيل إيمانهم بأنهم لم يُقصِّروا في حق دعوتهم.

لقد وصل القوم إلى حيث النبي محمد وصاحبه رغم كل التدابير التي اتُّخذت، والسؤال:

هل هناك خطأ استراتيجي وقع فيه النبي أو صاحبه، أو حتى أحد المتعاونين فجعل كل التمويه السابق غير ذي جدوى؟

والإجابة: لا.

كل ما هنالك أن هذا هو حال الدنيا! المرء منا قد يأخذ بكل الأسباب ويبذل جهده في المراجعة ووضع الخطط، وعمل دراسات ثم لا يكلَّل السعي بالنجاح، وارد جدًا أن نفشل دون أن نعرف سببًا منطقيًا للفشل.

القاعدة تقول إن لكل مجتهد نصيبًا، غير أن هناك استثناءً لهذه القاعدة يفرضه القدر لحكمةٍ ما لا نعلمها، والدرس هنا أننا بحاجة إلى أن نؤمن بدور المشيئة العليا دائمًا، وأن نرفع العين إلى السماء بعدما أتعبناها بالنظر إلى الأرض، وأن نأخذ القلب والذهن والروح لنقف على باب الرجاء داعين ربًّا كريمًا أن يبارك الجهد، ويكرمنا بفضله، وأن يحفظ سعينا الذي بذلناه برعايته... فلا تأكيد تامًّا لحدوث النصر، ولا يوجد شيء في الحياة مضمون بنسبة مئة بالمئة!

وهذا ما حدث مع النبي محمد، فوجد أعداءه فوق رأسه بعدما بذل جهده في خداعهم، بَيْدَ أنَّ الله - لا غيره - صرفهم عن دخول الغار، ليمضوا في بحثهم عنه بعيدًا!

جلس الرجل وصاحبه في الغار ثلاث ليالٍ طمعًا في هدوء الأمور، حتى جاءهما الرجل الأمين «عبد الله بن أُريقط» وفق الاتفاق، وأبلغهما أن جائزة القبض على النبي محمد قد وصلت إلى مئة ناقة، دون شرط إحضاره حيًّا!

طريقٌ شاقٌّ من غار ثور حتى المدينة المنورة، لا سيما أن دليلهما سلك بهما طريقًا طويلًا بغية تضليل القوم، وخلال هذه الرحلة حدثت أمور تحمل إشارات إلهية، مثل أنْ لحقهما أحد الأشخاص الذين أغراهم قدر الجائزة يُدعى «سراقة»، غير أن فرسه تعثرت به مرات عدة بشكل لا يمكن أن يكون منطقيًا،

فلم يستطع إيقاف النبي وصاحبه، ويقال إنه ذهب للنبي وتحدث معه ووعده النبي بأنه سيرى بعينه انتصار هذه الدعوة المُطارد صاحبها! حتى إنه سيمسك سوار كسرى بيده تلك.

كلام غير منطقي من رجل في عين سراقة هاربٍ مطلوب، تمامًا كأن تَعِد أحدهم اليوم بأنه سينام في الكرملين أو البيت الأبيض! لكن المدهش حقًّا أن هذا الوعد تحقق، وقتها كان عمر بن الخطاب هو القائد الجديد للدعوة، وقد توفِّي النبي محمد وأسلم سراقة.

وقد ترى في الحياة عجبًا، غير أنه لا شيء أعجب من إيمان العقلاء بأفكارهم، تراهم وهم يتكلمون عن الغد فتظنهم حالمين غرَّهم طول الأمل، ولا نفطن أبدًا إلى أن كلماتهم تلك لم تكن رجمًا بالغيب بقدر ما كانت إيمانًا عميقًا بقيمة ما يدعون إليه، وثقتهم بموعود القدر.

على كلٍّ، كعادتي معكم سأضرب صَفْحًا عن معجزات النبي محمد الخارقة للطبيعة ـ رغم إيماني بها ـ والهدف تسليط كل الأضواء على المساحة البشرية في سلوكه وتخطيطه وتصرفاته.

نحن الآن مع النبي محمد وقد ظهرت في الأفق ملامح المدينة المنورة، قبل هذا اليوم كان أهل المدينة قد بلغهم خبر خروج النبي من مكة لكنهم لم يعلموا له

توقيت وصول، فكان القوم يخرجون يوميًا ينظرون في الأفق علَّ أحدهم يلمح طيف النبي المنتظر، وكانوا كلما حميت الشمس يعودون إلى بيوتهم يستظلون بها ثم يرجعون إلى الوقوف ثانية، وحدث أن كان ظهور النبي في وقت الحر، لم يكن القوم واقفين اللهمَّ إلا رجلًا يهوديًّا لمحه من بعيد فنادى بأعلى صوته أنْ يا قوم هذا جدُّكم الذي تنتظرون قد جاء! فخرج الناس أفواجًا لاستقبال نبيهم.

ولأن غالب القوم لم يروا النبي من قبل، فقد اختلط عليهم الأمر من بعيد في مَن يكون النبي مِن الرجلين! حتى فطنوا إلى مشهد تظليل أبي بكر لنبيه بردائه فأدركوا شخصية النبي واستقبلوه بالفرح والتهليل هو وصاحبه.

كل الأخبار تؤكد الحفاوة الشديدة التي قُوبل بها النبي من أهل المدينة، كل قبيلة كانت تودّ أن ينزل الرسول في كنفها، كل بيت كان يشتاق لاستضافة النبي وخدمته.

لكنّ النبي لم يشأ أن يردَّ أحدًا وطلب منهم أن يَدَعوا ناقته تمضي حتى تبرك في مكان ما حدده الله سبحانه وتعالى لها، فكان أنْ استقرت عند دار أبي أيوب الأنصاري، فكان مُقام النبي، حيث بنى مسجد قباء، أول مسجد في تاريخ الدعوة.

ومع كل هذه الحفاوة نحتاج إلى طرح سؤال...

هل كانت البلدة كلها مؤمنة بالنبي القادم من مكة؟

والإجابة لا، غالبها كان مؤمنًا به، غير فصيلين مهمين، الأول هم يهود المدينة وكانوا قوة اقتصادية وقتها لا يمكن إغفالها، والمعسكر الثاني كان غريبًا نوعًا ما، وهو معسكر المنافقين كما تمت تسميتهم في القرآن الكريم، يُقصد بهم مجموعة من أهل المدينة كانت لها حساباتٍ ما انتهت كلها بقدوم النبي محمد، على رأس هؤلاء رجل مهم جدًّا يسمى «عبد الله بن أُبيّ بن سلول» كان كبير الخزرج، وقُبيل مَقْدم النبي مباشرة كانت النية تتجه لتنصيبه زعيمًا على القوم، غير أن البساط سُحب من تحت قدميه لصالح النبي القادم من مكة، وسبب وصمهم بالنفاق أنهم لم يكونوا مباشرين في إظهار مشاعرهم، لقد وجدوا أن الأسلم عدم الوقوف ضد التيار، وبالتالي أظهروا إيمانًا بالدين الجديد، مع نية العمل على إفشال الأمر والانقلاب على النبي ومَن معه متى ما أصبحت الأمور مواتية لذلك.

على كلٍّ، نحن الآن في مدينة رسول الله، حيث الأمن، والسكينة، ومواجهة القادم...

القادم الذي يختلف كليًّا عما سبق... تخطَّيْنا زمن الاضطهاد والقلق والخوف،

وبدأت أيام العمل والكدح وإثبات أن ما يحمله النبي وأصحابه هي دعوة حقيقية، وأن ما كان يُبشِّر به الجميع من الغلبة والانطلاق وعلو الراية كانت أمورًا حقيقية، وليست شعارات تُرفع.

العمل الحقيقي قد بدأ اليوم... فكيف يمكن أن يؤسس هذا الرجل دولة حقيقية؟!

كيف تنتصر الأفكار على الأرض، وتصبح الأطروحات الفكرية واقعًا ملموسًا...؟

هذا ما سنعرفه في الفصل القادم.



الفصل الثاني

في دولة المدينة

«القبيلة هي الشجرة الإنسانية الوحيدة التي تَنْبُتُ في الصحراء، ولا يمكن لإنسان أن يحيا إلا تحت ظلها، وفي سبيل ربه ودينه قرر النبي محمد أن يقطع هذه الشجرة!».

«جورج كثورييكو»

الغُربة

قالوا عن ليل العشاق وأسهبوا، ولو أنصفوا لجعلوا من ليل الغرباء أمثولة للوجع، ولتعجبوا من ساعاته كيف لا تنقضي!

ليل المنافي لا ضمير له، يقتات على الذكريات بجشع، ينشب أظافره في عصب الروح بلا رحمة، ولا يُسلم الغريب إلا جثة مهمدة، يرتفع صدرها ويهبط كأنها من الأحياء، غير أن ما مات فيها أبلغ وأعظم وأقسى من موتها في الجملة!

ولقد كان ليل الغربة طويلًا على تلك العُصبة المضطهدة، سقط فيه أبو بكر الصديق وبلال بن رباح.

يُقال إن حمى «الملاريا» قد أسقطتهما في حبالها، غير أن لحظات صحوهما كانت تنبئ بحمى أخرى تضرب في الجذور، حُمى الوحشة، والغربة، والفقد...

فكان أبو بكر يهذي قائلًا من أثر الحُمَّتين:

كل امرئ مُصبِحٌ في أهله والموت أدنى من شِراك نعاله

بينما يتغنى بلال بجبال مكة «شامة وطفيل» قائلًا:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بوادٍ وحولي إذخر وجليل

وهل أُردَّن يومًا مياه مجنة وهل يَبْدُوَنَّ لي شامة وطفيل؟

ومع كل هذا كان وجع القائد أكبر، ذلك أنه وجع يجب ألا يطفو على سطح وجهه، كي لا يزيد من وحشة أصحابه، كل العيون تنظر إليه كأنها تنظر إلى الأمل مجسدًا، لقد اتَّبعناك وصدَّقناك ومضينا خلفك، وها نحن في بلد آخر منفيُّون لا نملك رفاهية العودة إلى منابت الجذور...

ولقد كان قائدهم عظيمًا بحق، يضرب في نهاره بمعول جهده وتخطيطه كي يحقق لهم عمليًّا المجتمع الفاضل الذي وعدهم به، ويربت عليهم حانيًا ويدعو لهم:

«اللهمَّ حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد...».

«اللهمَّ اجعل بالمدينة ضعفَي ما جعلت بمكة من البركة».

«اللهمَّ بارك لنا في مدينتنا وفي ثمارنا وفي مُدِّنا وفي صاعنا، بركة مع بركة،

اللهمَّ إن إبراهيم عبدك ونبيك وخليلك، وأنا عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه».

كان الرجل يعلم جيدًا أنه محط الأنظار، فكان يلتجئ إلى خالقه كي يخفف أوجاع أصحابه، ويمحو بفضله آلام الغُربة ووحشتها، ويترك لمن بعده من أتباعه شيئًا من السلوى في غربتهم، وبعضًا من الأمل في ليلهم الطويل.

وفي سعيه لقتل الغربة ودفع المسلمين إلى النظر للأمام قام النبي ببناء مسجد للصلاة، الأخبار تؤكد أنه بناه في الأرض التي بركت فيها ناقته، وقد كانت مِلكًا ليتيمين يكفلهما «أسعد بن زرارة»، ورفض النبي وقتها طلب اليتيمين أن يتنازلا عنها من دون مقابل، وصمم أن يشتريها بثمنها المُعلن.

جمع النبي أصحابه وبدؤوا في بناء المسجد، فصفّوا النخيل قبلةً للمسجد - والقبلة يومئذ بيت المَقْدس - كان طوله تقريبًا مئة ذراع وعرضه كذلك، بناه بالطوب اللبن البدائي.

كان النبي يحمل الحجارة والطوب على كاهله مما أثار حماسة المسلمين فأنشدوا:

لئن قعدنا والرسول يعمل — لذاك منّا العمل المضلل

وتم بناء المسجد البسيط؛ أرضه مفروشة بالرمال، وسقفه سعف النخل

وجريده، وأعمدته الجذوع، كانت السماء تمطر فتوحل أرض المسجد، فلا تصلح للصلاة إلا بعد جهد وعناء*.

بين أركان هذا المسجد المتواضع نحت النبي نفوس أصحابه، وشغلهم بخططه القادمة، وعالج في ليل تعبُّدهم طغيانَ الشوق إلى مكة...

هنا أصدر الرجل أعظم فرمان إنساني في الدنيا، فآخى بين المهاجرين والأنصار، واستبدل ـ بتمهُّل دؤوب ـ بمكانة القبيلة في نفوس أصحابه مكانةً أخرى قائمة على أخوة الدين، ووحدة الهدف.

ولقد كانت خطوات النبي هذه حاسمة في التخفيف من شوق المهاجرين إلى مكة، حتى إن حقوق الإخاء تلك كانت مُقدمة على حقوق القرابة في ما يتعلق بالإرث، فكان المهاجر يرث أخاه الأنصاري والعكس، قبل أن يصدر أمرًا بإلغاء التوارث بعقد الأخوة بعد معركة المسلمين مع قريش في بدر، ويصبح الإرث فقط لذوي الدم والرحم.

لقد أصبحت المدينة موطنًا حقيقيًا للمهاجرين بفضل توجيهات النبي، ولم تحدث أبدًا أي تحركات عدائية من الأنصار تجاه المهاجرين، ولم يحاول المهاجرون في أي وقت بسط نفوذهم على السكان الأصليين للبلاد.

---

* في طبقات ابن سعد أن «أسعد بن زرارة» كان قد شرع بالفعل في تجهيز المسجد في هذه البقعة قبل هجرة النبي.

لقد تمت عملية التوطين بشكل نموذجي لم نرَه في أي نموذج آخر، وتمت الإذابة بشكل لا أظن التاريخ يقدر على استيعابه أو فهمه، ولم يستدعه أبدًا ليتعلم منه أهل أوروبا في أثناء توطينهم في أمريكا، أو أستراليا، أو جنوب إفريقيا.

لقد فُتحت القلوب فصار كل شيء سهلًا، وكان الوضوح حاضرًا، فلم يشعر أحد بغُبن، ووُضع دستور فصار كل امرئ يعرف حقه وواجبه، واستمر الأمر على هذا الحال سنين عددا...



منتصف الطريق

في مشوارك نحو غايتك ستظهر لك عوائق كثيرة، ما لا ينتبه إليه غالب البشر أن لكل مرحلة شكلًا وطبيعة مختلفة عن التي سبقتها، وتحتاج إلى أسلوب ورؤية مختلفة.

وقد تنتصر فكرةٌ ما في معركة الصمود، لكنها تفشل حينما تُعطى مسؤولية، وقد تُبهر الدنيا دعوةٌ ما بتماسكها وتنظيمها لكنها تسقط في اختبار التمكين، وتكثر الأسئلة عن السبب في السقوط وقد ظن المرء أن القادم ما هو إلا سهل يسير...

ولا يدرك القادة حينها أن صعوبات البداية على قسوتها وشدتها قد تكون أهون بكثير من صعوبات منتصف الطريق، حيث يقف المرء وقد غاب الشاطئ الذي

أتى منه فلا يقدر على التراجع، وما زال الشاطئ الذي قصده بعيدًا فلم يصل إلى مرحلة الراحة بعد، ويكون عليه أن يغيِّر من طرقه وخططه وأساليبه كي يتماشى مع المرحلة الحالية بكل متغيراتها وأبجدياتها الجديدة.

دَعْكَ من فتنة الوصول إلى آخر الطريق، فتنة النصر أقصد، والتمكين وتحقق الغاية، والتي قد تطيش بنشوتها بذهن المنتصر فيهوي من فوق منصة النصر والتتويج بعدما ظن أن القادم كله احتفال وبهجة.

كان النبي محمد مدركًا لهذا أشد الإدراك، لقد وعى الرجل ومنذ اليوم الأول لوصوله إلى المدينة أن جهد المقاومة والدفع والصمود قد أتى بنتائجه الإيجابية، وتحولت معطيات المرحلة إلى مساحة أكثر تعقيدًا.

لقد صارت الفكرة أمام مسؤوليتها الحقيقية، وصار الكل ينظر إلى الإسلام الموعود، إلى الجنة المُنتظرة، إلى النصر الذي بُشِّروا به، إلى الدولة التي نهضوا من أول يوم من أجل إنشائها.

مساوئ قريش كثيرة، غير أن ميزتها الأهم كانت في وضوح الأعداء وظهورهم بشكل مباشر، وميزات المدينة المنورة كثيرة غير أن أسوأ عيوبها هو وجود فئات من المنافقين الذين يصلُّون ويشاركون المسلمين عباداتهم ويجلسون حول النبي وقلوبهم مغلقة على حنق بالغ تجاه الفكرة وصاحبها وأتباعها.

والمنافق رجل اتّخذ موقفين تجاه قضية واحدة، موقف ظاهر وآخر باطن مغاير له بالكلّية، فيقول غير ما يفعل، ويُظهر عكس ما يُبطن، ولا يتخفف صاحبه من رداء كذبه إلا إذا خلا إلى من يشاركه مكنون القلب!

وقد يكون المنافق عالمًا بنفاقه، مدركًا لازدواجيته، وقد يكون غير ذلك! فكثيرًا - ومع طول الممارسة - ما يتوحد المنافق مع نفاقه، ولا يرى في سلوكه المتلون أي خلل، ويصبح من جملة الناس الذين قد نصطدم بهم في الحياة، يقولون الرأي وضده، ويؤمنون بالأمر ثم يحاربونه، ويتقلبون على كل الوجوه بحثًا عن مصلحة، يُشبعهم فتات الخبز، وترهبهم عصا الجلاد، ويهرولون كي يحجزوا أماكنهم في الصفوف الأولى لمناصرة الزعيم - أي زعيم - والهتاف بحياته!

وأخطر ما في النفاق أنه يضرب في الخفاء، ولا تمكن معاقبته بالظن، ورغم أن النبي كان يعرف المنافقين بأسمائهم فإنه ظل رافضًا أيَّ سلوك عدائي ضدهم، ذلك أنه لو فتح باب تصفية الناس بجريرة النيات السيئة من دون أدلة قانونية ملموسة لأصبح هذا سلوكًا مشروعًا لأصحابه في ما بعد، ولن يعدم قائدًا من جني رؤوس مخالفيه بتهم التآمر على الدولة، والعمل على زعزعة تماسكها!

لقد عرف النبي خطر المنافقين، وحدد أساليبه في التعامل معهم عبر إفشال خططهم، والانتباه إلى تحركاتهم، وعدم إعطائهم أي فرصة لاستعراض قوتهم،

فلا شيء يُغذّي النفاق كضعف معسكر الخير وتخبطه، والنبي محمد كان أبعد ما يكون عن التخبط، وأقوى من أن يكون لقمة سائغة.

نعود إلى الوضع الجديد...

الآن النبي محمد قد استقر في المدينة، وبدأ في مهام فكرته الرئيسية وهي إقامة دولة، الهدف الذي يختلف فيه عن أخيه عيسى بن مريم، النبي الذي عمل على ترقيق القلوب، وتغليب الإنسانية في معاملات اليهود وطبائعهم، لكنه لم يؤمر ببناء منظومة كاملة، بعكس النبي محمد، ذلك أن عيسى لم يكن معنيًّا بفكرة الدولة نظرًا إلى وجوده في دولة بالفعل؛ كانت هناك إمبراطورية رومانية، كانت هناك منظومة، كان هناك قانون - حتى وإن كان هناك توحش في تطبيقه - بينما جاء النبي محمد في مجتمع لا يؤمن بالنظام، لا يعرف شيئًا عن فكرة الدولة واحترام الحقوق وتطبيق القانون، وأفكاره عن العدالة الاجتماعية والمساواة بين البشر لم تكن تتماشى مع الأنظمة القبلية القائمة، فكان لا بد من تأسيس دولة وسط الصحراء، هذه الفكرة الصعبة - أو قُلْ المستحيلة - انشغل بها النبي محمد ومَن معه، عملوا على إقامتها من الصفر، وإنشائها من العدم، ما توفَّر من رفاهية المدنية لعيسى بن مريم لم يكن أبدًا متوفرًا لمحمد بن عبد الله.

نعم كان الإنسان هدف النبي محمد الأهم، غير أن إنسانًا بلا دولة هو فرد مهما

اتسعت دائرة جماعته سيظل ظهره مكشوفًا وقدرته على مقاومة آثار الخارج المادية والروحية ضعيفة، ولا سيما إذا كانت قيمه وأفكاره مضادة لمنظومة القيم المحيطة به، وفي تصادم مستمر معها، سيُسحق الإنسان الذي يريده النبي محمد يقينًا إذا لم تتوفر له حدود آمنة تساعده على بناء خصوصيته بعيدًا عن الواقع المعيش، والأفكار الراسخة.

وكان للنبي أسلوبه الخاص في تأسيس مجتمعه ودولته، حيث أولى مهامَّ كبيرة ـ بدأها في مكة ـ من أجل تهذيب الأخلاق وتنقية نفوس البشر بشكل فردي.

إنه يؤمن بأن المجتمع الفاضل هو مجموع لأشخاص فضلاء، وبأن جزءًا مهمًّا من البدايات الصحيحة يجب أن يُولى إلى الأفراد كلٌّ على حدة، لا سيما أن رسالته دائمًا ما كانت تركز على فكرة الحساب أمام الله كأفراد، وعليه داوم النبي على بناء الضمير في النفوس، والتذكير بالرقابة العليا، ولفت الانتباه دائمًا إلى أن هناك من يحصي الهمسات والسكنات وأحاديث الضمائر فيجب ألا نهمل أبدًا تنظيفها وتنقيتها بشكل مستمر.

ثم ركز النبي محمد على تقوية لُحمة الجماعة الواحدة، كانت توجيهاته عبقرية في ما يختص بإصلاح ذات البين، والإيثار، والمؤاخاة، وتوقير الكبير والعطف على الصغير، ومساعدة المحتاج، والرفق باليتيم، وغيرها من المعاني التي لو نُفِّذت

بدقة لضمنت مجتمعًا على أعلى درجات الإيجابية، ولصنعت نشاطًا محمودًا انتصرت فيه قيم الحق والخير والجمال على قيم الشر والبؤس والقبح.

ثم كان توجيهه لبناء رأي عام قائم على رفض القيم الفاسدة من خلال طرح ما يُعرف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك المُصطلح الذي أسيء كثيرًا توظيفه في وقتنا الحاضر، وصودرت كثير من الحريات الشخصية في بعض المجتمعات بسببه.

فكرة النبي محمد كانت قائمة على بناء توجه عام برفض قيم فاسدة يرى أنها ستكون معوقةً لانتشار الفكرة وقيام الدولة، فضلًا عن مساوئها الشخصية التي تلحق بالفرد.

لم يصادر النبي محمد الحريات الشخصية لكنه بنى رفضًا للسلوك السيئ في نفوس الناس، ودَعُونا نطرح مثالًا...

ذات يوم جيء للنبي محمد برجل دائم شُرب الخمر، كان النبي حزينًا على الرجل، عاقبه على فعلته، نصحه وذكّره بالله... ثم في لحظة سمع النبي شخصًا يذكر الرجل بسوء ويتندر على أنه ضعيف أمام شهوته في ما يختص بحب الخمر.

وهنا واجه النبيُّ القائلَ بصرامةٍ قد تفوق صرامته مع شارب الخمر، مؤكدًا أن

التندر والاستهزاء والسخرية من ذنوب الناس، كبيرها وصغيرها، ليست من مهام البشر قائلًا له: «لا تلعنوه، فإنه يحب الله ورسوله».

دورنا أن نرفض السوء بكل أشكاله، رفضًا يعبِّر عن ضمير عام تغلب عليه معاني الجمال والحياء والنظافة، لكنَّ هذا لا يجعلنا مثاليين، ولا يدفعنا إلى تنصيب أنفسنا قضاة تجاه ضعف الناس وسقطاتهم، ولذلك جُلُّ نصائح النبي محمد كانت تتجه إلى فكرة التوبة والإنابة مع الإقرار بحق البشر في الخطأ والزَّلل! ولم تتجه أبدًا نصائحه في طريق تقديس العصمة ولا الاحتفاء بالطُّهر المثالي لأنه غير متاح لنا كبشر... بمعنى آخر، فإن النبي محمدًا كان يرى أن الإنسان ضعيف بطبعه، خطّاء بطبعه، فكانت رؤيته هنا أن يصنع رأيًا عامًّا يرى الخطا خطأً، والذنب ذنبًا، والخطيئة خطيئة، من دون تصالح نفسي مع الخطأ والذنب، لكن في نفس الوقت هناك تصالح إنساني مع المذنب والمخطئ، لأن هذا جزء من الطبيعة الإنسانية لا يمكن الالتفاف حوله، والهدف الأهم من هذا التوجه، كما أسلفنا، مهمته إنشاء مجال عام يحتفي بالخير بكل أشكاله، ويكره الظلم والسوء بكل أشكاله كذلك.

والناظر المتأمل في المرحلة التي تلت هجرة النبي محمد سيرى بوضوح حجم النظم والقوانين التي تم سنها في المدينة، وبعض منها كان من القيم التي دعا إليها في مكة غير أنها الآن صارت محلًا للتطبيق ومنها:

- المساواة: لا فضل في الدولة الجديدة لعربي على أعجمي، الكل هنا سواسية.
- العدل: ورأس العدل هي المساواة أمام القانون، وكان تصريحه بأنّ لو فاطمة بنت محمد سرقت لقطعنا يدها، مؤشرًا على صرامة القانون وعدم محاباته لأحد.
- العدالة الاجتماعية: بلا مثالية كان النبي محمد مدركًا أن الغنى والفقر من سنن الله في الأرض، وكانت توجيهاته كلها لا تصب في صالح فكرة إنهاء الفقر من الدنيا، وإنما في خلق شعور إنساني من الأغنياء تجاه الفقراء، قائم على العطاء والمساندة، مع التشديد على خطورة الأنانية والفردية، وكان تحذيره الأهم هنا قوله «والله لا يؤمن من بات شبعانًا وجاره جائع».

والحقيقة أن النظم تلك كانت كثيرة وتحتاج إلى دراسة مفصلة، وحديث قد يطول، غير أن ما لفت انتباهي هنا هي قدرته على إرساء أسس وقوانين لدولته كانت تجتمع فيها صفة مهمة، وهي مقبوليتها لدى أهل العقل وأصحاب النفوس المستقيمة، أقصد أنها لم تكن قوانين كهنوتية وإن كان العمل بها طريقًا من طرق الدخول إلى الجنة الموعودة، حتى إن أحد الأعراب قال يومًا حينما

سُئل عن سبب اتباعه لدين النبي محمد: «ما رأيت محمدًا يقول في أمر افعل والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمدًا يقول في أمر لا تفعل والعقل يقول افعل!».



وكان في المدينة أحياء لليهود وهي بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير، وكان نزولهم بيثرب ـ كما يؤكد الطبري ـ قبل الأوس والخزرج، هرعوا إليها إبان حكم بختنصر ـ أحد أهم ملوك الأرض ـ حينما نزل إلى بيت المقدس، وعندما جاءت قبيلتا الأوس والخزرج من اليمن لتستقرّا هناك وجدوا اليهود، فحالفوهم، وصاروا يتشبهون بهم، وكان لليهود عليهم درجة، اكتسبوها لما لديهم من إرث ديني، وفضل العلم، والمأثور عن الأنبياء.

وكان في اليهود حنق على النبي محمد، فقد اتَّبعه الأوس والخزرج في الجملة، وللحنق أسباب عدة، على رأسها أن النبي من ولد إسماعيل وليس من أولاد إسحاق. دَعْكَ من أنه قام بعمل كبير في تأليف قلوب كلتا القبيلتين العربيتين، والوحدة على مر التاريخ كانت إشكالية يهودية خالصة، وجزء من عملهم في الحياة قائم على حبس الثروة والسلطة والقوة في إيديهم، والذي لا يتحقق كما يرون إلا بإضعاف الآخرين، وصُنع حالة من القلق والتوتر في الوسط المحيط بهم.

غير أن النبي محمد تعامل مع الأمر باحترافية بالغة، حيث عاهد يهود المدينة على التعايش المشترك، وكُتبت وثيقة بذلك، أهم بنودها أن أهل المدينة في المطلق دولة واحدة، وعلى من يحارب طائفة منهم أن تَهُبَّ جميع الأطراف للذَّود عنه، وأن لليهود مطلق الحرية في أمور عبادتهم ونظمهم الخاصة بلا تدخل من أحد، ولكن في أمور السياسة والحرب يجب أن يتم التواصل المشترك بين جميع الأطياف.

غير أن النبي ذكر في بنود الاتفاق بندًا مهمًّا جدًّا وهو ألا يُجير اليهودُ مالًا لقريش ولا نفسًا، مما يعني أن الرجل كان واضحًا جدًّا حتى في عداوته القائمة مع القوى الأخرى، وتنبيهه الذي لا يقبل تأويل على عدم موالاة قريش بأي شكل كان.

ومن جوهر القول تأكيد أن هذه الوثيقة تُعد في ذاتها حدثًا تاريخيًّا مهمًّا، ذلك أن فكرة وجود الدستور دائمًا ما كانت نتاجًا طبيعيًّا للدول القائمة، أما أن تقوم دولة منذ اليوم الأول على دستور يُنظم حياة الناس، ويرسم حدود التعامل مع أبناء المجتمع الواحد باختلاف أيديولوجياتهم وأفكارهم فهذا عمل تاريخي فريد، ولا سيما أنها أقرَّت حرية الأديان والعبادة ـ عكس الدول الدينية! ـ بل وتعهدت برعايتها، وهذا ما يجعل فهمنا أوضح للحوادث القادمة، ولا سيما في التعامل مع اليهود.

السيف يتكلم

وفق ما قاله كثير من المؤرخين وغير قليل من السَّلَف فإن أول ما نزل من القرآن يدعو للقتال كان قوله تعالى:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ

وبعيدًا عن أي مثالية حالمة، أرى أنه لا شيء يمكن أن يضبط رمانة ميزان العدل

في الدنيا مثل هذا التوجه، طُفْ بعين خيالك في دنيا الناس، قَلِّبْ صفحات التاريخ، تأمَّلْ وقائع الحاضر، فلن تجد دعوة قادرة على إكمال مسيرتها ما لم تتوفر لها أسباب الدفع أمام القوى المعادية، والدفع هنا يكون بالجدال، والحوار، والمنطق، والسياسة، وكذلك بالسيف والقوة.

والنبي محمد كان قارئًا جيدًا للواقع، ذكيًّا في فهم قوانين الحياة، مدركًا للحقائق التي لطالما غابت عن أذهان كثير من المصلحين المثاليين، وأهمها حقيقة أن رأس الشر أصلب من أن تهزمه كلمة الحق، وأن حمل الورود أمام من يحملون السلاح ليس تصرفًا محمودًا في كل الأحوال، ذلك أن مصير الورود كثيرًا ما يكون تحت أقدام الطغاة، ويحتكر السيف الكلمة الأخيرة، شاء من شاء وأبى من أبى.

والآيات الماضية كانت مُحددة وبدقة البواعث والنتائج، بمعنى أنها كانت تحث على القتال من أجل مجموعة عوامل، منها الظُّلم الذي تعرضوا له، مع تأكيد أن هذه الحرب لا بديل عنها فلولاها لمضى الظلم ليبطش ويهدم المساجد، ويعطل حركة الخير على سطح الأرض، بيد أن الهدف من هذه الحرب، والنتيجة النهائية هي «إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وهنا تأتي إشكالية خطيرة، فبعضهم يرى أن النتيجة النهائية لحروب المسلمين هو اضطهاد عَقَديّ، بمعنى أن المسلم يحارب من أجل إرغام الناس على الصلاة

والزكاة والتحكم في حرياتهم الشخصية بدعوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كأن النبي المضطَّهَد قرر أن يكون فجأة جبارًا يفعل بالناس ما فُعل به بالأمس!

والحقيقة أن قِصر الفهم يفعل هذا... وأكثر...

فتعاليم القرآن هنا كانت تحمل توجيهًا عبقريًّا ونبيلًا بأن أتباع هذا الدين إذا ما كُتب لهم التمكين في الأرض يجب أن يكونوا نبراسًا للقيم التي يدعون إليها، أن يُقيموا الصلاة هم أولًا بما تحمله الصلاة من فلسفة روحية واجتماعية ونفسية، ويدفعوا الزكاة عوضًا عن كنز الثروة وتضخيم الأرصدة، ويأمروا بالمعروف حيث الرحمة والحب وخفض الجناح، وينهوا عن المنكر والذي منه التوقف عن ظُلم الناس، ومصادرة حرياتهم، وكنز الأموال على حساب فقرائهم.

وما يدلل على صحة هذا التوجه أن سيرة الرجل ومن تولى بعده من أصحابه القريبين تؤكد هذا الاتجاه وتدعمه.



بدأ المسلمون الانتقال إلى المواجهات المسلحة بتشكيل النبي محمد لما يُسمى «السرايا»، والسَّرِيَّة تتشكل من مجموعة قليلة العدد من الفرسان، واشترط أن

يكون جميعهم من قريش، مهمة هذه السَّرِيَّة تعطيل حركة التجارة القادمة من الشام، أو تعطيل رجال الأعمال القرشيين من الذهاب إلى هناك للشراء، وإن أمكن الاستيلاء على ما معهم من مال أو بضائع، فقط تجارة قريش، وأموال قريش.

ولعلِّي بسائلٍ معترضٍ: وهل هذا عدل ونبل، وهل يجب على النبي المبعوث من قِبل الله أن يكون قاطع طريق؟!

وينسى صاحبنا بسؤاله هذا أصول اللعبة، ويرمينا بسهام مصطلحاته ظنًّا منه أنه يحتمي بقلاع الفضيلة.

وأجيبك بأن ما تسميه قطع طريق هو الخطوة الأولى في استراتيجية الرجل الحربية، والإعلان الأول عن وجود دولة جديدة، وجيش وليد، وحسابات أخرى مختلفة عن كل ما سبق.

على أرض الواقع علينا أن نعلم جيدًا أن خروج النبي محمد ومن معه من مكة كان أمرًا غير محبب استراتيجيًّا.

فكرة الرجل التي طرحها للناس كانت تحتاج إلى مركز بقوة مكة، وخروجه المُضطر كان بعد عقد ونيف من المحاولات المستميتة مع أهلها لاستمالتهم، وغالب الظن أن عقل الرجل لم يفارق مكة أبدًا، كان يبحث عن طريقة يمكن

أن يعود بها إلى البلد الحرام حتى لو بعقد تحالفات مع أهلها، وهذا لن يتحقق إلا إذا أرغم القرشيين على النظر إليه كقوة حقيقية، وعليه فإن هذه المناوشات الحربية كانت نقطة بداية مهمة، ثم علينا أن نرى الأمر بأبعاد أخرى، ذلك أن المهاجرين كان يمكن أن يمثلوا عبئًا على إخوانهم الأنصار، حيث طبيعة الأعمال في مكة كانت قائمة على التجارة، لا سيما أنها أهم مركز تجاري في شبه الجزيرة كلها، بينما الأمر في المدينة مختلف، حيث التجارة يحتكرها بعض أثرياء العرب واليهود، والزراعة ليست مما يثير شغف المهاجرين عوضًا عن أن جُلّ الأراضي الصالحة كانت في حوزة أشخاص بالفعل.

وعليه كان يجب أن يجد النبي محمد حلًّا، فكانت الإغارة على القوافل، فهي من ناحية تعطي صدى جيدًا وخصوصًا بعدما بدأت شكاوى التجار من عدم وجود طريق آمن إلى مكة للقادم من الشام، والشيء الآخر أنها كانت فرصة للمسلمين لتعويض خسائرهم في مكة. وعلينا أن نذكر هنا ونشدد جيدًا على أن الأموال التي تم رصدها واستهدافها تعود إلى كُبَرَاء قريش، هؤلاء الذين صادروا سابقًا أموال المضطهدين وحريتهم، وعذبوهم وقتلوهم، وطاردوا زعيمهم وحاولوا قتله.

من ناحية أخرى فإن قانون الحرب والحياد من القانون الدولي الحالي به ما

يسمى «وسائل العنف الموجهة ضد الأموال»، حيث يبيح قانون الحرب للدول المحاربة الالتجاء إلى أنواع معينة من وسائل العنف ضد الأموال، حيث يجيز لها في حدود معينة إتلاف أموال الأعداء والاستيلاء عليها ومصادرتها*.

وفوق كل هذا فإن للقوة لغة يفهمها جيدًا أهل السياسة، ويدرك مآلاتها المراقبون، وقريش كانت ترقب ما يحدث جيدًا وتفهم مغزاه...

تلك وإن كانت حرب سيف، إلا أنها في جوهرها حرب نفسية، ورسائل تعرف جيدًا طبيعة المُستقبِل.

كانت أول سَرِيَّة دفع بها النبي قادها حمزة بن عبد المطلب ومعه ثلاثون رجلًا من المهاجرين، خرجت لتعترض طريق أبي جهل - أبي الحكم سابقًا - غير أن المعركة لم تقع لتوسُّط رجل اسمه «ابن عمرو الجُهني» وكان موادِعًا للفريقين، فاستطاع أن يفصل بينهما بالحسنى، ومر أبو جهل ومن معه، ولكن الرسالة كانت قد وصلته وأبلغها بدوره إلى شركائه في مكة... أن محمدًا ومن معه يجب أن يُحسب لهم من الآن ألف حساب.

ثم كانت سَرِيَّة عبيد بن الحارث، خرج ومعه ستون من المهاجرين ليس فيهم واحد من الأنصار كذلك، كان هدفهم أبا سفيان بن حرب، وقد كان معه مئتا

---

* الرسول القائد، لواء أركان حرب محمود شيت خطاب مهمش.

رجل من قريش، ولم يحدث قتال أيضًا، اللهمَّ إلا تناوش بالسهام، وحققت السَّريَّة أحد أهدفها وأبلغت الرسالة هي الأخرى.

ثم ثالث السرايا كانت سَريَّة سعد بن أبي وقاص، الذي طارد ومعه عشرون مهاجرًا تجارةً لقريش غير أنه لم يلحق بها، حيث كانوا راجلين ـ على أقدامهم ـ فلم يحدث اشتباك كذلك، غير أن نبأ خروجهم وصل كذلك إلى قريش.

تذهب الروايات أنه خلال العامين الأولين من الهجرة أرسل النبي محمد ثماني حملات لم تُكلَّل بالنجاح المنشود.

وعلينا ألا ننسى شيئًا مهمًّا هنا وهو أن المعارك وإدارتها لم تكن لعبة قريش وأهلها، التجارة وحسابات السوق كانت تحتل جانب تفكيرهم الأعظم، وحمل السيف والسلاح واستهداف القوافل وتحوُّل عُصبة المسلمين الأولى فجأة إلى محاربين كانت مسألة محفوفة بالمخاطر، حتى إن القرآن لفت الانتباه إلى هذا الأمر

كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ

دَعْكَ من أمر آخر مهم وهو أن استخدام القوة من أجل إقرار الحق والعدل أمر

يصعب التحكم فيه، وكثيرًا ما طغى لون الدم على المشهد فحادت المبادئ عن طريقها، وهنا يمكننا أن نفهم فلسفة السيف في الإسلام، ونعرف حجم الجهد الذي بذله النبي محمد من أجل ترشيد خطوات القوم، وتنبيهه المستمر إلى أن السيف ليس غاية، وأن شروط حمله باهظة، وتحذيره الخطير من أن المسلم لا يزال في فسحة من دين الله مالم يُرق دمًا حرامًا، حتى آيات القرآن مارست هذا الدور في تنبيه القوم لأبجديات تلك المرحلة فنجده يشدد على فكرة عدم المبادرة بالاعتداء بقوله سبحانه:

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ

حتى آيات القتال التي نزلت على النبي محمد بعد ذلك، ودعوته للجهاد، والقتل، وضرب الرقاب، وشحذ الناس لرفع السيف، كانت كلها مرتبطة بأبجديات مرحلة ما، مرحلة كان فيها التدافع لا سبيل عنه، والحلول صفرية لا تفاوُض للوصول إليها، وجميعها محكومة بأخلاقيات يصعب على المثاليين فهمها، لكنها لم تكن أبدًا كأخلاق الأمم الكبرى حين أشعلوا حربين عالميتين وكادوا يبيدون أهل الأرض جميعًا في نزق عصبيتهم وتهورهم.

نعود إلى السرايا الأولى للنبي محمد، لنذكر خبرًا قد يراه البعض هامشيًّا، وهو

أن بعضًا ممن كانوا في رحلات قريش تلك استغلوا الفرصة ولحقوا بالمسلمين، فمثلًا في أثناء مناوشات سَرية عبيد بن الحارث لقريش، انضم إليهم رجلان من المعسكر الآخر وهما المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان، ربما كانا مسلمَين منعتهما الظروف من الهجرة فاحتالا وخرجا بصحبة أبي سفيان ومن معه حتى يجدا الفرصة المناسبة، وربما كذلك كانا غير حازمين لأمرهما خوفًا من العاقبة، فحسما الأمر بعدما رأيا تعادل القوى، والمَنَعة التي فيها أتباع الإسلام.

وهذا يذهب بنا إلى تأكيد عامل الحرب النفسية، ويكشف طبيعة الرسالة التي تبعثها مناوشات سرايا النبي سواء إلى الأعداء أو الأتباع.



انتصار بدر

بدأ الأمر بخبر كان ينتظره النبي محمد عن عودة إحدى أهم القوافل التي تحتل قيمة اقتصادية كبيرة لدى قريش، ويرأسها أحد أهم دهاة العرب، أبو سفيان شخصيًّا.

وعندما علم النبي محمد بالموعد المحدد خرج لملاقاتها عند بئر بدر في اتجاه البحر الأحمر، وكان معه من الرجال ثلاثمئة وخمسون رجلًا، تشير الروايات إلى أن غالبهم كانوا من الأنصار باستثناء سبعين رجلًا من المهاجرين، وخروج النبي بنفسه ومعه هذا العدد يعطي دلالة على ما تمثله هذه القافلة بالنسبة إلى قريش، وعن حجمها سواء المادي أو حتى التسليح المصاحب لها.

غير أن أبا سفيان عندما علم بالأمر - ربما عن طريق عيون له من قبائل المنطقة

- لم يسلك طريق العودة المعتاد عبر الحجاز إلى مكة، بل جنح بها في اتجاه البحر ومضى محاذيًا للشاطئ في رحلة طويلة نسبيًا لكنها ضمنت السلامة له وللقافلة، غير أن نفسه لم تهدأ بالكلية فأرسل أحد الفرسان ويسمى «ضمضم» إلى قريش ليخبرهم بالأمر، ولم يكذِّب الرجل خبرًا، فطار بفرسه حتى إذا ما وصل إلى مشارف مكة مزَّق ملابسه، وجدع بعيره، ثم صرخ بطريقة درامية وبصوت فيه من الجزع الشيء الكثير: «**يا معشر قريش، اللطيمة... اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد تعرض لها محمد، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث**».

استشاطت قريش غضبًا، الأصوات المنفعلة تتوعد محمد ومن معه، فكيف يجرؤ أن يتعرض لقافلة بهذا الحجم ويضمن سلامًا وأمنًا بعدها؟! وعليه استعد كل قادة قريش للخروج حتى إن الشيخ البدين أُميَّة بن خلف قام بحشر نفسه في درعه، وخرج فرسان قريش بمن فيهم مَن تبقى من عائلة محمد كعمه العباس وأبناء عمه أبو طالب «طالب وعقيل» وحكيم بن حزام ابن أخي خديجة، ولم يتخلف حينها من الكُبَرَاء إلا أبو لهب والذي أرسل من ينوب عنه نظير إسقاط دين عليه.

بيد أن أبا سفيان وعندما تأكدت له سلامة القافلة أرسل إليهم يثنيهم عن إتمام الأمر قائلًا: «إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها

الله فارجعوا»، فقال أبو جهل: «والله لا نرجع حتى نحضر بدرًا فنقيم عليه ثلاثة أيام، فلا بد أن ننحر الجُزُر، ونُطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها».

وعندما سمع أبو سفيان قولهم هذا لم يَرُق له، ولعله رأى في تصرفهم هذا اندفاعة عاطفة، أو خطوة انتقال غير محسوبة لمربع الصدام المسلح، فأرسل إليهم رسالة واضحة قال فيها: «هذا بغي، والبغي منقصة وشؤم».

وكان من أثر كلامه هذا أن رجع منهم بنو زهرة وكانوا نحو مئة مقاتل، كما رجع أيضًا طالب بن أبي طالب بعدما غمزه بعضهم بأنه من عائلة محمد ولن يحارب بكل جهده!

ولعل هذا يعيد تأكيد أن فكرة الحرب والقتال لم تكن الخيار المحبب لقريش ورجالها في إنهاء أمورهم، بل يمكننا إذا ما نظرنا بعمق إلى رد أبي جهل أن نرى أنه لم يكن متجهزًا لقتال، وأنه تعامل مع الأمر من منطلق الرحلة، حيث الرقص والغناء والخمر!

المهم أن جيش قريش قد تحرك بالفعل، غير أنهم أرسلوا عيونًا لهم تستطلع الأمر، بيد أن فرسان النبي محمد قاموا بأسر رجلين منهما، ظن المسلمون وقتها أنهما من القافلة المُنتظرة، غير أن الرجلين أبلغاهما بأنهما من جيش مكة القادم!

لم يصدق المسلمون الأمر في بدايته، وانهالوا ضربًا عليهما بغية سماع خبر تتمناه أفئدتهم، لكن الحقيقة باتت واضحة الآن... قريش ألقت بفلذات أكبادها في معركة استعادة الأمن والاستقرار ووضع حد لتهديدات المسلمين المتكررة.

وعندها قرر النبي محمد أن يعقد مجلس حرب، حيث اجتمع هو ومن معه، وعرض عليهم الأمر، الوقت يتسع للعودة إلى الديار، ذلك أن ما استخلصه النبي من الرجلين يؤكد أن الأعداد القادمة تفوق عددهم بثلاثة أضعاف تقريبًا، بيد أن أبا بكر وعمر والمهاجرين قالوا كلامًا حماسيًّا يؤكد أنهم لن ينسحبوا، غير أن نظر النبي كان يدور في وجوه الحضور، حتى فهم كبير الأنصار سعد بن معاذ مغزى نظراته، وتحدث قائلًا:

«لعلك تقصدنا يا رسول الله... حسنًا، لقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت ونحن معك... وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدًا، إنا لصُبرٌ في الحرب، صُدقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله».

وهذا ما كان ينتظره النبي محمد، فالرجل ـ عكس قريش ـ يتعامل مع الأمر بجدية، ويدرك جيدًا أن الساعات القادمة حاسمة وبشدة في أمر دعوته، ولا يمكن أبدًا أن يمضي في أمر بهذه الخطورة دون أن يعرف بوضوح مدى فهم المحيطين به للأمور، وجاهزيتهم التامة لها، هذا فضلًا عن أن أهل المدينة كان لديهم حس المعركة، فحروب الأوس والخزرج قد صقلت أهل يثرب جيدًا في أمور القتال.

ومع كل هذا لا يمكن الالتفاف حول حقيقة أن القلق من عدم تكافؤ الفرص كان حاضرًا، قلق منبعه حديث العقل والمنطق، فالكثرة كانت دائمًا عاملًا مهمًا من عوامل الغلبة والنصر.

على كلٍّ، لقد بدأ الجد، وفي الوقت الذي كانت تتباهى فيه قريش بملابسها البيضاء وأسلحتها المشحذة، واثقةً بأن جيش محمد سيعود إلى يثرب مستسلمًا، كان النبي يضع خطوات عملية بمشورة أصحابه، فصفَّ جنوده في تشكيلات متقاربة، واتخذ مكانًا يمنع فيه قريش من ورود بئر بدر، وبالتالي يشحّ لديهم الماء. وكان التشكيل قائمًا على استدراج قريش لتصعد التل والشمس في أعينها.

وبدا أن قريش قد انتبهت أخيرًا للأمر، واستشعروا خطرًا، إذ رأوا تحركات معسكر المسلمين، وتأكد لهم أن الحرب ربما تكون خيار المسلمين الوحيد، وعليه

بعثت أحد رجالها «عمير بن وهب الجمحي»، وطالبوه بأن يصعد إلى الوادي ويستكشف قوة القوم الحقيقية، ومدى استعدادهم البادي للحرب، وكان أن ذهب الرجل وعاد إليهم قائلًا: «القوم ثلاثمئة قد تزيد قليلًا، ولا أرى لهم مددًا آخر، ولا كمينًا، ومعهم سبعون بعيرًا وفَرَسان»، ثم أضاف بلهجة مُحذِّرة: «يا قوم، رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، أما ترونهم خرسًا لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الأفاعي، والله ما أرى أن نقتل منهم رجلًا حتى يقتلوا منا رجلًا، فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير العيش بعد ذلك!».

ويبدو أن كلام الرجل كان له وقْعٌ في نفوس القوم، فأيَّده عتبة بن ربيعة، وقال مشددًا عليهم: «**يا معشر قريش، إنكم والله لا تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لإن أصبتموهم لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته... فارجعوا**».

النظرة التاريخية تؤكد أن زعماء قريش ليسوا أهل حرب رغم امتلاكهم قوة الحرب!

نعم، قريش في الوقت الحاضر بلدة اقتصادية، وزعماؤها رجال أعمال، لديهم تحالفات مع البدو والأحباش كي يستفيدوا منهم في تأمين الوضع الاقتصادي

وضمان سلامة حركة التجارة، لكنهم تركوا السيف منذ زمن، يؤكد هذا تعقيب اليهود لاحقًا في الرد على النبي وقولهم له إنه واجه قومًا ليست لهم دراية بالحرب...

والحقيقة أن كل الشواهد كانت تؤكد أن قريش لم تكن تريد الحرب، ولكن يكفي وجود رجل أرعن واحد على رأس سلطة ما كي يوردها المهالك، ورجلنا المعنيّ هنا هو أبو جهل.

فلما إنْ سمع كلام عمير وتعقيب عتبة حتى اتهمهما بالجبن، تلك الصفة التي يأنف منها العربي ويراها مرادفًا للموت، ثم سعى بين الناس غاضبًا يذكِّرهم بمعاناتهم من أثر حملات المسلمين المتكررة على قوافلهم، قبل أن يتجه إلى «عامر بن الحضرمي» الذي قُتل أخاه «عمر» بسهم في أثناء مناوشات بين سَرِيَّة من سرايا المسلمين ومجموعة من فرسان قريش، فأعاد تذكيره بالفجيعة قائلًا: «هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وها قد رأيت ثأرك بعينك، فقم واطلب ثأر أخيك».

وكان ما ينشد أبو جهل، فقام عامر صارخًا في الناس بصوت غاضب مُزلزل أن «واعمراه، واعمراه»، فمضى الناس على رأي أبو جهل، بيد أن دواخلهم كان يغلّفها التشاؤم.

وبدأت الحرب بتقدم قوات قريش على كسبان الرمال، تقدمًا أرعن تغلب عليه الهتافات الحماسية، بينما وقف النبي محمد ومن معه يرقبون، لقد صفَّ القائد جيشه بشكل منتظم، وشدد على عدم التقدم إلا بإذنه، مع تصريح بإلقاء السهام عليهم، طالبًا منهم تخيُّر الهدف حتى لا تضيع سهامهم وعدَّتهم قليلة.



لقد بدأت وقائع المعركة، بدأت حربٌ قد يراها البعض هينة نظرًا إلى قلة المقاتلين الذين يخوضونها، لكنها مع كل هذا كانت بدايةً لأحداثٍ جسام زلزلت العالم من يومها وحتى الساعة.

ليست العبرة في الحروب دائمًا بالعدد، ولا بالغبار المتخلف عنها، لكنها بالقيمة المادية والرمزية التي تمثلها في مشوار أصحابها، والأثر الذي تتركه في صفحة التاريخ قبل أن تنتقل إلى تسويد صفحة جديدة.

لقد اصطف مساكين مكة المهجَّرين بجانب قائدهم، ينظرون إلى من عذبوهم وطاردوهم واختلطت ضحكاتهم الساخرة بأنَّات وجعهم، كانت قلوبهم هي القابضة على السيف لا الراحات، والأفئدة مليئة بمشاعر مختلطة من الخوف والأمل والكراهية، وكذلك الثقة بالموعود، كانت أعينهم تنظر إلى القائد وهو يتحرك بينهم واعدًا إياهم بدعم من الله ومدد من لدنه فتهبط عليهم السكينة وترتاح الأفئدة...

بدأ الأمرِ وانتهى في نهار واحد، والمحصلة سبعون قتيلًا من رؤوس قريش، وسبعون أسيرًا آخرون، وأربعة عشر شهيدًا من المسلمين، شهداء عقيدة، صدقوا في إيمانهم بتعاليمها، ودفعوا مغارم تمسكهم بها حتى سالت دماؤهم شاهدة على ذلك.

هل تحب النهايات السعيدة، وتراها نوعًا من الدراما الحالمة؟!

حسنًا، عليك أن تبتهج إذن حينما تعرف أن مَن قتل «أُميَّة بن خلف» هو بلال بن رباح، اقتصّ الشاب المظلوم من مُعذِّبه الجبار، وكانت ملامحه السوداء التي لطالما عُيِّر بها هي آخر ما يراه أُميَّة قبل أن يترك سطح الأرض حاملًا معه مهانة الدنيا وخزيها، وحيرةً موجعةً مِن تقلُّب الأيام ودورانها.

ابتهجْ يا صاحبي كثيرًا وأنت ترى الشاب النحيل عبد الله بن مسعود وقد وقف فوق جثة الرجل الشريف وكبير قريش «أبي جهل» والذي لطالما طاله منه أذى وعذابًا.

انظرْ جيدًا إليه وهو يجزّ رقبة الرجل الذي كان سببًا في دماء كثيرة سالت بلا ذنب إلا أن أصحابها قرروا أن يؤمنوا بعقيدة تخالف ما يؤمن به الكُبَرَاء.

نعم... لقد قُتل أُميَّة بن خلف، وأبو جهل، وعتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة... وتم أسر عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، هل تذكرون هذه الأسماء جيدًا ودورها المهم في إهانة الضعفاء من أتباع النبي محمد؟

حسنًا، لقد انتهوا جميعًا... تناثرت جثثهم تحت أرجل الخيل وأقدام المسلمين لتشهد بأن الأيام دول، والظُّلم يُمكن أن يصطدم بنهاية عادلة.

هبط غبار المعركة على رؤوس المنتصرين كأنها تيجان العِزّ، وعلى وجوه الخاسرين تغطيها كأن سواد القلب قد طفح على الملامح.

علا التكبير فرحًا، ومضى النبي محمد ولسانه يلهج بالثناء على ربه الذي صدقه وعده، ينظر إلى جثث القتلى وفي قلبه غبطة أن غالبهم ممن نَدُر الأملُ في هدايتهم، وأصدر أوامره الغريبة بأن تُدفن جثث قتلى قريش وألا تُترك في العراء لتأكلها سباع الأرض وجوارح السماء، ثم فرمانه الثاني بحسن معاملة الأسرى، والثناء على من يرعاهم، وساوى في الثواب عند الله بين من يطعمهم ومن يُطعم المسكين واليتيم!

لم تكن هذه من أدبيات حروب العرب وقتذاك، لكننا يجب أن نتذكر دائمًا أن الرجل كان يؤسس لشيء مختلف، وكان عليه ما دام سيرفع السيف ويحارب، أن يقف دائمًا بتعاليمه حجر عثرة تعيق اندفاعة النفس البشرية للتنكيل والانتقام والتشفي.



قبل هذه المعركة لم تكن هناك آيات تتحدث عن التعامل مع أسرى الحرب،

وعليه جمع النبي محمد أصحابه وجلس للتشاور في ما سيفعل معهم، كان رأي أبي بكر الصديق أنهم في الأخير أهلهم حتى وإن بدا منهم سوء، وكان رأي عُمر أنه يجب قتلهم جميعًا، بينما رأى عبد الله بن رواحة أن يتم إشعال النار فيهم أحياء!

تأمل القائد في آراء مساعديه فوجدها بدأت من الصفح وعلت للانتقام والقتل، قبل أن تصبح مُحْرَقة!

فاستأذن منهم لبعض الوقت اختلى فيه بنفسه ثم عاد إليهم قائلًا: إن الله لَيُلَيِّن قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله تعالى ليشدّ قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة.

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال:

فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

بينما مثلك يا عمر كمثل نبي الله نوح إذ دعا ربه قائلًا:

رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا

ونقف وقفة لا بد منها لنقول إن تحليل النبي محمد لآراء أصحابه كان عبقريًّا، الرجل يدرك جيدًا أن نفوس الناس ليست سواء، ودوافع البشر النفسية جد مهمة في تفهم آرائهم ومواقفهم، وهذا نراه كثيرًا في دنيانا اليوم، فالظُّلم قادر

على أن يُخرج لنا مُتطرفًا، طبيعة نفسه كانت غير قادرة على فهم فلسفة الظالمين فبدا له أن الانتقام منهم هو السبيل الوحيد لراحة النفس وشفاءٌ لصدر لطالما ضاق تحت وطأة الظلم حتى أكل من روح صاحبه، بينما نجد أن هناك مظلومًا آخر تفهمت نفسه أن لُغة الظالمين لا تعرف سوى مفردات القهر، لكن نفسه تلك لم تستسغ أن تحكي نفس اللغة حين تتمكن من رد الأذى، ويرى أن الترفع عن الانتقام يعني أن مُثله العليا تنتصر مجددًا.

إنها النفوس بدروبها الغامضة، نحتاج إلى أن نتفهم دوافعها قبل أن نُصدر أحكامنا عليها، ولله في خلقه شؤون!

على كلٍّ، كان رأي النبي محمد فيصلًا في هذا الأمر، إذ رأى أن يأخذ الفداء من الأسرى، وتشدَّد كثيرًا في أخذ الفدية من بني هاشم ـ أهله ـ خصوصًا عمه العباس، هذا على الرغم من عِلمه أنه خرج مُكرهًا، واعترافه بدوره المحمود، إذ كان يخرج معه في لقاء الحجاج ويؤمِّن له الطريق.

من الأسرى كذلك رجل استثنائي وهو أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنة النبي محمد، وهو رجل حسن السُّمعة، رفض أن يُطلّق زوجته حينما طلبت منه قريش ذلك إبان تطليق عتبة وعتيبة ابني أبي جهل ابنتَي النبي محمد «رقية وأم كلثوم»، وأحسن عِشرتها رغم علمه بإيمانها بدين أبيها، كان يحبها وكانت تحبه

وترجو أن يتبع دين الإسلام، ولم تفارقه نظرًا إلى أن حُكم التفريق بين المسلمة والكافر لم يكن قد صدر بعد، والأكثر دهشة أنها أرسلت إليه قلادة كانت لديها ليفتدي بها نفسه من الأسر.

كانت الفدية تتغير حسب ثروة الأسير، ولقد عفا النبي عن بعض الأسرى كرمًا منه حينما أخبروه بأنهم لا يملكون ما يفتدون به أنفسهم، واشترط على من يجيد القراءة والكتابة أن يُعلِّم الأميين من المسلمين مبادئها كي يُطلق سراحه.

ولكن... مع كل هذا التسامح، الذي لم يكن من طباع العرب، قرر النبي محمد أن يصدر أمرًا بالإعدام على اثنين من الأسرى، وهما عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، أما الأول فلأنه كان من أكثر أهل قريش عداءً للمسلمين، وله مواقف في غاية القسوة مع النبي محمد، إذ وضع قدمه على رقبته مرة وهو يصلي حتى ظن النبي أن عينيه تدوران في محجرهما، ثم موقف آخر حينما ألقى أمعاء شاة مذبوحة عليه وهو جالس، ثم موقف أخير حينما وقف مع أبي جهل ضد قرار الانسحاب من بدر، وكان من المؤيدين للحرب. والنضر بن الحارث كان حامل لواء قريش في المعركة.

وقَتْل كليهما كان من منطلق اتقاء شرهما في قادم الأيام، فالأعداء كما نعلم ليسوا سواء، والتعامل معهم يتوقف على أثرهم السابق والخوف من سلوكهم المستقبلي.

غير أننا بحاجة هنا لتأكيد أمر مهمّ، وهو أن القرآن نزل على النبي محمد يعتب عليه ومَن معه فكرة الأسر في بدر! أو بمعنى أدق يعتب على الأسر قبل أن يذيق القوم طعم الدم أولًا، كأن الله ـ جلَّ اسمه ـ يخبرنا بأن تلك المعركة كان يجب أن تكون نهايتها بالنسبة لعصبة قريش تلك أكثر وجعًا وإيلامًا، فنزلت الآيات على النبي محمد أن:

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

وظني أن هذا الاستدراك المهم من الله على نبيه جاء ليؤكد قيمة العامل النفسي في تلك المعركة، وأنه كان من الأولى أن يدخل المسلمون المعركة تلك تحديدًا بنفس أبجديات قريش وهي الإذلال الكامل لقوى التجبر والبطش كما كانت تريد قريش إذلال المسلمين وإنهاء دعوتهم بالكلية وقتل نبيهم، ومع هذا لم يعتب الله على نبيه في ما ذهب إليه من المَنِّ على المشركين، ولم يعتب عليه إطلاق سراح بعضهم، وهذا عكس ما ذهب إليه كثير من المؤرخين من أن القرآن جاء موافقًا لرأي عمر بن الخطاب بقتل الأسرى، فالله لم يأمر نبيه بهذا، وإنما كان الأمر واضحًا أن الأولوية كانت إعطاء السيف الغلبة، وجعله صاحب الصوت الأعلى، فإذا ما تم الأسر بعدها فلا بأس في أن يتعامل المنتصر وفق اجتهاده، ويُغلِّب ما يراه في مصلحة فريقه.

الإسلام العنيف

أعترف أنني لست مثاليًّا كي أطلب من السلام أن يحكم الأرض، ولا أحب الادعاء بأنني أمقت الحرب في كل أحوالها ليقيني أن الساعي إلى السلام عليه - كما يقول فيغتيوس - أن يتجهز جيدًا للحرب!

كما أنني لا أشعر بأن على الرأس «بطحة» عليَّ أن أخفيها، ولا أن في الإسلام الذي أنتمي إليه شُبهة أو ثغرة تحتاج مني إلى ليٍّ عنق أو تبرير.

يبيع لنا أناس كل يوم بضاعة «الإسلام العنيف» وأقصد بالناس هنا نفر من أعداء الفكرة في الشرق والغرب، وآخرين من أتباع الفكرة من أصحاب الأفق الضيق، الباحثين عن الحلول السهلة، يظنونها في العنف، وقد أعجزهم ضعف منطقهم عن تلمسها في سياسة الناس والتخطيط والعمل على اكتساب مناطق

قوة لفكرتهم تساعدهم على تسويقها وإظهارها بمظهرها الصحيح الخالي من تشوهات الحمقى والخبثاء.

يقولون إن القوة هي التي تحكم، وإن الديمقراطية التي يتم بيعها اليوم هي وجه مستعار، تخلعه الأمم بلا خجل حينما يتعلق الأمر بمصالحها، وعليه يجب أن نُري للعالم أننا أقوياء بالفعل، وأن المسلمين قادرون على رد الأذى، ويكون ما نراه اليوم !

وقد تبدو المُقدمات حقيقية، نعم القوة هي التي تحكم، وبلا شك تتم إهانة العدل كثيرًا حينما يقف في وجه مصالح الأقوياء، ولكن مَن قال إن القوة تسكن فقط في سيف مشهر، أو فوهة بندقية شرهة لحصد الأرواح.

النبي محمد كان مُسالمًا، لكنه كان حريصًا طوال الوقت على إمداد فكرته المُسالمة تلك بالقوة، قوة المنطق والحوار، وقوة التفاوض والجدال، وقوة التحالفات وتأليف القلوب، وكذلك قوة السيف وتجهيز الجيوش.

وقد يُعاب السيف وصاحبه إن تدخلا في معركة فكرية، وأصرّا على حسم الأمور بالدم بدلًا من المنطق، لكنه لا يُعاب أبدًا حين يأتي مُشهرا ليواجه سيفًا قد عزم على محاربته... ولا يُعاب كذلك حين يكون متجهزًا لغدر قادم أو توتر قائم!

وقد يرى البعض أن الجهاد معناه الوحيد هو رفع السيف، بينما يرى آخرون - وأنا معهم - أن جوهر الجهاد هو بذل الجهد، والعمل والكدح.

لقمة العيش الشريفة في عالم كالذي نحيا فيه جهاد، قول الحق في وجه الظالمين جهاد، أداء الأعمال الصالحة جهاد، رفع السيف في مواجهة قوى البطش أيضًا جهاد، ولكن كما قال المتنبي:

وَوَضْعُ النّدى في موْضعِ السّيفِ بالعلى

مُضرٌّ كوضْع السيفِ في موضع النّدى

وعليه فإن استدعاء الحوار عندما تدق الحرب طبولها قد يكون تقاعسًا وخيانة، تمامًا كما أن استدعاء السيف في مجالس الحوار يكون إرهابًا وعنفًا.

ولقد عاد النبي محمد بعد انتهاء معركة بدر من أرض السيف إلى أرض التفاوض، دون أن يُنسيه هذا أن الجرح الذي صنعه بقريش لن يندمل بسهولة، وأن الأمر لم ينتهِ بعد.

لقد أكسبت بدر النبي محمد وضعًا أعلى في المدينة المنورة والمناطق المجاورة، واستطاع بعد عودته منتصرًا أن يعقد تحالفات مع بعض القبائل التي تحيط بالمدينة على العيش بسلام ووفق شروط عادلة، محمد الذي لطالما رآه العرب لا يعدو أكثر من شخصية ثورية متوقّع لها خمود وانطفاء حتمي صار قويًا للدرجة

التي جعلت الجميع يعيد حساباته معه من جديد، ويرى في موالاته أمرًا إيجابيًّا ومنفعة.



بعدما عاد المسلمون من بدر لم يهدأ النبي أو يَرْتَح، وإنما تحرك بجيشه الصغير المنتصر وطوال الأيام اللاحقة من تلك المعركة إلى القبائل التي تسكن أطراف المدينة، يستبصر حالها، ويدعوها إلى الإسلام، ويبدو أن الرجل اللبيب لم يشأ إلا أن يكون وجهة نظر واقعية عن أحوال الناس المحيطين بدولته الوليدة، مستثمرًا السُّمعة الجيدة التي حصَّلها من معركته السابقة.

جولات عدة خرج فيها النبي، وكان وقتها يخلِّف على المدينة واحدًا من أصحابه، لا يميِّز أحدًا دون آخر.

كانت كل جولة لها أسباب ظاهرة، فخرج أولًا على رأس مئتي فارس لملاقاة بني سليم وغطفان بعدما نما إليه نبأ تجهزهم للانقضاض عليه، بيد أنه قرر مفاجأتهم في عقر دراهم «قرقرة الكدر» الواقعة على طريق التجارة الحيوية على طريق «مكة - الشام»، وعندما وصل إلى هناك وجد الديار خالية، فاستقر فيها حتى سمع الجميع بخبر وجود المسلمين.

ثم انطلق النبي بعدها على رأس كتيبة من أربعمئة وخمسين فارسًا إلى بني ثعلبة

ومحارب بعدما عرف بنبأ تجهزهم للانقضاض على أطراف المدينة، فذهب النبي إليهم في عقر داراهم، غير أنهم فرُّوا كذلك إلى الجبال، فاستقرّ النبي في رحالهم شهرًا كاملًا!

ثم رجع النبي ثانية إلى بني سليم بعدما عرف أنهم سيعاودون الكَرَّة، فأراد ألا يسمح لهم بفرصة التجهز، واستقر هذه المرة في رحالهم شهرين كاملين!

بعدها وجه النبي ضربة مربكة إلى قريش، ذلك أنه بعدما أوقف حركة التجارة عبر الطريق التقليدي «مكة ـ الشام» قررت قريش أن تبحث عن طريق آخر، حتى وإن كان أطول، وأكثر مؤنة، المهم أن يكون بعيدًا عن خطر المسلمين، وبالفعل وجدوا دليلًا حاذقًا يسمى «فرات بن حيان» قادرًا على أن يسلك بهم طريق «مكة ـ نجد ـ العراق ـ الشام»، وهو طريق طويل بيد أنه لا مناص غير ذلك.

علم النبي بالخبر ـ ربما عن طريق عيون له في مكة ـ فأرسل زيد بن حارثة على رأس مئة فارس، فأصابوا القافلة، وأصابوا قريش باليأس من فكرة التواصل مع الشمال، أو الاتِّجار في الشام!

كان النبي يعلم جيدًا أن قريش من دون القوافل والتجارة لن تقدر على شيء، فقرر أن يقطع كل الطرق التي يمكن أن يستغلوها في صنع متنفس لتجارتهم،

وما ذكرناه خلال الأسطر السابقة من حملات تأديبية لبني سليم وبني ثعلبة وغيرهما كان الهدف الأهم منه ـ بجانب التخلص من تهديدهم ـ السيطرة الكاملة على الطرق المؤدية إلى الشام، بدليل أنه كان يستقر في رحال القوم بالشهر والشهرين، وهذا ليس أبدًا مسلك رجل يودّ جني مغانم والعودة لدياره سريعًا.

كل هذا ـ بجانب معركة بدر ـ جعل الجُرح الذي صنعه المسلمون بوجه قريش موجعًا، ولأن زعامة مكة صارت في يد أبي سفيان بعد مقتل أبي جهل وعقبة بن أبي معيط، فقد نذر الرجل ألا يمس رأسه ماء جنابة حتى ينتقم من محمد وأصحابه، وكي يبر بقسمه خرج الرجل ومعه مائتا فارس من قريش إلى المدينة، لا لحرب ونزال وإنما لمحاولة لدراسة أحوال المسلمين في المدينة ولا سيما بعد النصر الذي حققوه.

دخل الرجل إلى ديار اليهود وقد علم أن حنقهم من زعامة النبي محمد وتمكنه قد بلغ أوجّه، وبالفعل اجتمع ببعض نفر من يهود بني النضر، غير أن زعيمهم «حيي بن أخطب» لم يجبه إلى لقاء، خوفًا من أن يتسرب الخبر إلى نبي المسلمين.

وبعد عدة لقاءات في جنح الليل، عاد أبو سفيان إلى مكة غير أنه وفي طريق

عودته أرسل رجالًا ممن معه إلى ناحية من المدينة يقال لها العريض، فحرقوا النخيل، وخربوا فيها، وقتلوا رجلًا من الأنصار وحليفًا له، ثم فروا هاربين!

من فوره وإذ علم بالخبر خرج النبي يلاحق الجيش الهارب، ورغم عدم إدراكه إياه فإنه وجد في الطريق زادًا كثيرًا مما كان يتزود به فرسان قريش، فعلم أن تلك الهجمة كان يحيط بها الخوف، وأن قتل رجلين أعزلين في حقل صار بطولة بالنسبة إلى قريش، فأدرك حينها أن تأمين البيت من الداخل صار أمرًا حتميًا، لا سيما أن كلامًا يتردد بأن اليهود كانوا على علم بهذا الأمر كان هو المزعج بحق.

مزيَّة النبي محمد كقائد أنه رجل ثابت الجنان، تمر عليه الخطوب فلا تُفقده رشده، ويأتي النصر فلا تُسكِره فرحته، إنه مشغول بتثبيت الأرض تحت قدميه بشكل مستمر، ويعمل بدأب كي يحافظ على مكتسبات نصره، وعليه فلقد قرر الرجل وقد علم أن نفرًا من قبيلة غطفان بنجد يجتمعون كي ينظروا بشأنه بتحريك جيش من أربعمئة وخمسين مقاتل إلى نجد. إنه يعلم جيدًا أن نجدًا كانت الطريق الذي سلكه الداهية أبو سفيان في هجمته التخريبية السابقة، وصار لزامًا أن يبادر بهجمة تعيد العقل إلى رشده... وهو ما تم.

تحرك النبي حتى وصل إلى هناك فتفرق الأعراب وانفض جمع المتآمرين،

ومكث النبي هناك أيامًا حتى بلغ أمر مسيرته الجميع، قبل أن يعود إلى المدينة مرة ثانية.

لقد خرج النبي بعد معركة بدر كثيرًا بجيشه يطوف الصحراء في خطة مدروسة، نعم لم تكن هناك حروب يخوضها، لكن الأثر المترتب عنها كان كبيرًا.

كان هذا قبل أن يعود الرجل مرة ثانية إلى المدينة كي يطيح بالطابور الخامس - على حد تعبير فرانكو الشهير - اليهود!



في السياسة نادرًا ما يكون القائد شريفًا وفي نفس الوقت مرهوب الجانب...

وعليه مضى الساسة طوال تاريخهم في تغليب واحدة على أخرى، فإما حُسن نية وطيبة يدفعان الخصوم إلى التطاول والانقلاب، وإما نظرة براجماتية لا تعترف إلا بالمنفعة الخالصة دون اعتبار لشرف أو أخلاق.

والاستثناء هنا نادر، حتى يكاد المرء من ظنِّ استحالته يتدخل في النيات، ويلقي بالشرفاء في أحد المعسكرين، فإما مغفلًا ساذجًا، وإما ماكرًا شريرًا.

وقناعتي الخالصة أن النبي محمد كان رأس الاستثناء وعموده الفقري...

إن الرجل الذي نشأ في بيئة لا تعرف السياسة ولا تدابير المُلك، استطاع بشكل

مدهش أن يقرأ واقعه السياسي بشكل عميق، ويدير أمور دولته الصغيرة بحنكة لا تتوفر إلا لرجل خبير.

ذلك أنه وبعدما خرج في جولات استعراضية عمد من خلالها إلى ضرب الفتنة في مهدها، واستعراض قوته أمام القبائل المجاورة، مما انعكس على ازدياد عدد أتباعه من المؤمنين بالإسلام، قرر الرجل أن يلتفت إلى دولته من الداخل، حيث العدو الداخلي الأهم اليهود، تلك الكتلة الصلبة التي يعرف جيدًا تحفزها للانقضاض عليه مع أول بادرة تعثر تحدث له.

أمنيًا كان الأمر مربكًا، ففي الجنوب أراضي بني النضير وقريظة، وعليه فإن أي هجوم قرشي من الشمال يمكن أن يضع المسلمين بين المطرقة والسندان إذا ما قرر اليهود التدخل، بيد أن الخطر الأكبر كان من يهود بني قينقاع، أغنى القبائل اليهودية، والحليف السابق لعبد الله بن أُبيّ.

وعندما قرر المسلمون استغلال مهارة المهاجرين في التجارة وإنشاء سوق لا يتعامل بالربا اعتبره بنو قينقاع تحديًا لهم نظرًا إلى سيطرتهم على حركة التجارة في المدينة، وعليه قرروا اتخاذ موقف معادٍ من المسلمين، وبدأت العلاقة في التوتر.

من فوره ذهب النبي إليهم مباشرة، إنه يعلم جيدًا أن التوراة التي يحملونها

تنبئ بخبر قدومه، وعليه التقاهم في سوق بني قينقاع وقال لهم بلهجة حاسمة:

«يا معشر يهود، احذروا من الله ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مُرسل، تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله تعالى إليكم».

غير أن رد القوم على كلام النبي محمد كان عنيفًا، مُنبِئًا بغلٍّ في القلب لم يبذلوا جهدًا لستره، حيث قالوا:

«يا محمد، لا يغرَّنَّك أنك التقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت منها فرصة، إنا والله لإن حاربناك لتعلمنَّ أننا الناس».

حسنًا... من الجيد أن تصبح الأمور بهذا الوضوح!

عاد النبي ليراقب الأوضاع... لعله جلس متمهلًا ليرقب الخطأ القادم منهم، والحقيقة أنه لم ينتظر طويلًا...!

مرر النبي كل الأخبار التي أتته بأن اليهود يتطاولون على الإسلام فلم يقف عندها كثيرًا، حتى جاء الخبر المُنتظر عندما دخلت امرأة مسلمة سوق الصاغة وقد كان لليهود، وفي أثناء جلوسها عند أحد الصاغة تبيعه بعض حليٍّ لها جاء يهودي من خلفها من حيث لا تعلم فثبّت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، حتى إذا ما قامت انكشفت عورتها، فضحكوا منها، فصاحت تستغيث، فوثب مسلم على اليهودي فقتله، فتكالب عليه اليهود فقتلوه، فهاجت المدينة بأسرها، وهنا فقط... تدخل النبي.

حاصر الرجل منازل يهود بني قينقاع خمسة عشر يومًا، ولا أحد يعرف ما الذي ينتويه من هذا الحصار.

وفق تقاليد العرب القائمة فإن قتل القبيلة كلها بجريرة نقض العهد كان أمرًا مقبولًا، غير أن النبي محمد ونزولًا على شفاعة بعض من كُبَرَاء الخزرج - حلفاء يهود بني قينقاع - قرر أن يُخرج القوم من المدينة، وهو ما اعتبروه حلًا مقبولًا، نظرًا إلى خوفهم من أن تكون النية قتلهم بعدما نقضوا العهد وأسالوا بنزقهم الدم، فضلًا عن صدمتهم من غياب أي نصير لهم حتى من اليهود الآخرين.

وكان هذا القرار في عين كل الحضور أمرًا محمودًا، فصبرُ النبي عليهم وعلى تطاولهم وإساءتهم كان كبيرًا، أضف إلى ذلك أن المدينة بأسرها كانت تغلي بعدما اجتمع يهود بني قينقاع على قتل واحد منهم.

في تلك الأثناء وبعدها كان هناك لاعب خطير في الحركة السياسية القائمة وهو اليهودي «كعب بن الأشرف» كان مُسعر حرب من الطراز الفريد، يمضي ليله ونهاره في اجتماعات بكل من يعادي الإسلام، يحاول أن يصنع حِلفًا يضرب به ثبات الأمور في المدينة.

بدأ الأمر بعد هزيمة قريش في بدر حيث قال على الملأ: «لئن كان محمد قد أصاب هؤلاء القوم فباطن الأرض خير من ظهرها»، ثم مضى بين الناس يهجو النبي محمدًا، لا يترك مجلسًا إلا وينفث فيه من سُمِّ كلماته، ثم أخذ في التحريض

على النبي مستنكرًا استخزاء اليهود وقبولهم للصلح معه، والغريب أن الرجل لم يكن له قوم يمكن أن يتم التحاور معهم من أجل إسكاته، إذ ينتمي إلى يهود بني النضير من جهة الأم، وعليه كان لاعبًا منفردًا لا يدخل في عهد النبي مع اليهود.

وكانت الطامة الكبرى حينما ذهب إلى قريش يستعديهم على النبي والمسلمين، مؤكدًا أنه لم يَألُ جهدًا في صنع ظهير من أعداء دعوة النبي محمد في المدينة إذا ما قرروا العودة والانتقام، مشددًا على سرعة خطوتهم القادمة.

كان الرجل يتحرك بشكل مكشوف، كانت أشعاره تسبقه، وتصريحاته المُحرضة يطلقها على رؤوس الأشهاد، وكان على رجل الدولة أن يجد حلًّا.

المشكلة هنا أنك لا تتعامل مع خصم سياسي، وآراؤه ليست اعتراضًا على الإسلام ولا تمسكًا باليهودية؛ إنه رجل مُحارب، مُحرِّض، يستهين ويستخفّ ويَسخَر ويسبّ مجتمعًا بأكمله، يتحرك بالفتنة والضرر، وليس له قومٌ يردّونه، وعليه كان قرار القتل أمرًا حتميًا.

في العمل السياسي تُعد التصفية الجسدية جريمة لا يمكن قبولها، وفي عالم الحرب تكون تُهم التحريض والإساءة إلى المقدسات والعمل على ضرب المجتمع جريمة لا يجب أبدًا السكوت عنها.

ولقد كانت أدلة الإدانة قائمة... وعليه تم تنفيذ القرار.

درس أُحد

مات أبو جهل، وتبعه أبو لهب، وصار أمر قريش في يد أبي سفيان، وما أمكره من رجل...

يتميز أبو سفيان عن سابقَيْه بالحنكة، وغلبة العقل لديه أكبر، كما أن التروي عنده يفوق الحماسة...

ولهذا لم يُلق الرجل بنفسه في حرب انتقامية مع النبي محمد قبل أن يطمئن إلى أنه يملك فعليًا كل مقومات النصر.

عام كامل قضاه الرجل في بناء تحالفات سمحت له بأن يضم لجيشه بعض القبائل المتفرقة حول مكة ككنانة وتهامة، وأضاف إليهم الأحباش ممن يحسنون القتال والرمي بالرمح، وما إن اطمأن لتدبيره حتى شرع من فوره في تجهيز

الجيش، واستطاع أن يحشد ثلاثة آلاف مقاتل، ومائتي فَرَس عليها مائتا فارس لا يُشقّ لهم غبار كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل.

ثم كانت الخطوة الغريبة وهي اصطحاب قريش للنساء، والسبب في ظني أن قريش كانت تعرف جيدًا أن جزءًا من قوة المسلمين يكمن في العقيدة التي يتبنونها، تلك التي حوَّلتهم إلى أسود لا تهاب الموت بل تطلبه، وعليه قرروا أن يصنعوا سببًا نفسيًّا يدفع مقاتليهم إلى التقدم وعدم التقهقر للخلف، ولا شيء سيفعل هذا كوجود نسائهم معهم؛ حمية العربيّ ما كانت لتسمح بأن يفر الرجل تاركًا أهل بيته.

نضيف هنا أنه كان من ضمن عتاد الجيش شعراء وخطباء لشحذ همم الجنود وتذكيرهم بالثأر وإلهاب الحماسة.

لم يترك أبو سفيان ومن معه بابًا من أبواب العتاد إلا ودخلوا منه!

تقول الأخبار إن العباس بن عبد المطلب قد أرسل إلى النبي محمد خبر الجيش القادم، لا سيما أنه رفض الخروج معهم هذه المرة، وعندها أمر النبي محمد بعقد اجتماع عاجل في المسجد لتدبر الأمر ووضع الخطة.

كان جوهر الاجتماع قائمًا على الاختيار بين أمرين: هل نخرج لملاقاة جيش قريش خارج المدينة، أم ننتظرهم هنا وننقضّ عليهم؟

وعلى الرغم من أن استراتيجية النبي في الغالب كانت ضد انتظار الأعداء، إذ كان يميل إلى مبادرتهم عوضًا عن انتظارهم، فإنه في هذه المرة رأى أن ينتظرهم في المدينة، وبنى رأيه من منطلق أن طبيعة مبانيها كانت تتيح لهم التحصن، ودروبها يمكن استغلالها في استدراج جيش قريش وتفتيته، وفوق هذا يمكن استثمار الصبية والنساء في الحرب بشكل آمن، إذ يرمونهم من فوق الأسطح بالحجارة، لا سيما أن فارق العدد كالعادة كان كبيرًا بين الجيشين، والمدهش أن أكبر داعميه في هذا الرأي كان «عبد الله بن أُبيّ» العدو الخفي والمنافق المعروف!

ولكن... رأى غالب أصحاب النبي أن الخروج أولى، منهم مَن بنى رأيه بمنطق حماسي كحمزة بن عبد المطلب، الذي رأى أن أبجديات البسالة والفروسية تعني الخروج والمواجهة لا الانتظار، ومنهم من بنى رأيه - كالشباب - على أنها المعركة الأولى لهم، وأن بدر كانت معركة غير متوقعة فاتُّهم شرف القتال فيها، بما يعني أن الآراء كانت حماسية في غالبها، لكنها الأغلبية.

وعليه، استمع النبي إلى كل الآراء، وسمح لأتباعه بمخالفته، ودخل بيته وارتدى درعه وخرج عليهم.

لم يكن القائد راضيًا بالكلية عن هذا التوجه، لكنها الشورى التي أراد تأكيدها

بين أصحابه، وأن أمور الحياة يجب أن تكون مشاركة، وألا يستأثر أحد مهما كان منصبه بالقرار النهائي في الأمور الحاسمة.

بيد أن بعضًا من الذين حضروا الاجتماع راجعوا أنفسهم، وقد علموا أن الرأي الذي قرروه لم يكن هو رأي النبي، فتوجهوا إليه ليعلنوا نزولهم على رأيه السابق بالبقاء في المدينة، غير أنه أخبرهم بحزم بألا يحق لنبيٍّ لبس لامة الحرب واستعد للخروج إلى العدو أن يرجع. كأن القائد يعطي درسًا جديدًا في رفض التردد في اللحظات الحاسمة، وشدد على أنه ما دام هذا رأيهم الذي اجتمعوا عليه فيجب أن يمضوا فيه ويتقوا الله، ويصبروا في مواجهة العدو.

وهكذا خرج النبي بجيشه المكوّن من ألف مقاتل، بعدما رفض رأي بعض الأنصار الاستعانة باليهود أو حتى طرح الأمر عليهم، في مثل هذه الحروب يحتاج المرء وبشدة إلى أن يطمئن إلى من يقف بجواره ويحمي ظهره، غير أن مفاجأة غير سارة حدثت في مبتدأ الأمر، وهي رجوع ثلث الجيش إلى المدينة!

والسبب أن عبد الله بن أُبيّ تذمر من كون النبي لم ينزل على رأيه المكوث في المدينة، هذا فضلًا عن كونه غير راغب في مساعدة المسلمين أو تعريض نفسه للخطر من أجل محمد ومن معه.

العجيب في الأمر ليس رفضه الخروج، بل في خروجه ومن معه ثم عودته في

منتصف الطريق، مما أثر على نفسية الجيش، حتى همَّ بعض المؤمنين بالعودة معه مثل بني سلمة وبني حارثة، لقد كان الموقف عصيبًا بحق على النبي وجيشه المُخلص، لكنّ ثبات القائد واتزانه سمح له بأن يعيد ترتيب جيشه مرة أخرى، ويستعيد زمام الأمر.

كما في بدر صفَّ النبي جيشه بشكل منظم، وجعل الرماة وعددهم خمسون راميًا خلف ظهر الجيش، وجعل عليهم قائدًا وهو عبد الله بن جبير، وشدد عليه ألا يبرح ومن معه موقعه قائلًا بلهجة حاسمة:

«انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لا نُؤتين من قِبلك».

قبل أن يعود إليه ثانيةً قائلًا على مسمع كأنه يريد الاطمئنان على وعي القوم لخطورة موقعهم:

«احموا لنا ظهورنا إنا نخاف أن يجيئوا لنا من ورائنا، والزموا أماكنكم لا تبرحوا منها، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنَّبْل، فإن الخيل لا تقدم على النَّبْل».



اصطفّ الجيشان، وفي وجدان كل فريق مشاعر شتى...

جيش قريش يحلم بالثأر وتجهَّز له، ليس لديه سبيل آخر سوى استعادة كرامته التي ذهبت بها معركة بدر، واستعادة الأمن الذي صار مهدَّدًا فلم تعد قوافله تمضي إلا على بساط من الخوف، نساؤهم معهم فلا سبيل للتراجع والفرار، جيشهم مُكتمل فلا حجة للفشل والهزيمة، لا بد أن ينتهي الأمر هذه المرة ولا سبيل آخر.

جيش المسلمين كاد يصيبه الارتباك؛ النقاش الذي تم لحسم أمر الخروج ثم عودة ثلث الجيش، ظهورهم غير آمنة لوجود يهود المدينة وعصبة المنافقين كانت تشغل الذهن يقينًا، بيد أن النبي محمد كان ثابتًا بشكل مُبهر، وتنظيمه لهم وأوامره كانت تعطي مؤشرًا على أنه يعرف جيدًا ما الذي يفعله.

وبدأت المعركة... طوفان من فرسان المسلمين شق طريقه إلى قلب الجيش القرشي، حمزة بن عبد المطلب، وأبو دجانة، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم من صناديد المسلمين حملوا على جيش قريش فأصابوه بالرعب، حتى قيل إن ضربات الواحد منهم كانت أبكاراً! ضربة منفردة كفيلة بأن تُسقط فارسًا قُرشيًّا!

مع مرور ساعة من نهار كانت الكفة تميل إلى المسلمين، ذلك قبل أن يُمنى

الجيش بخسارة أحد أهم قادته حمزة بن عبد المطلب، والذي قُتل غيلةً، حيث تربص له أحد الأحباش ويسمى «وحشيّ»، والذي خرج مع الجيش بأمر من سيده جبير بن مطعم بعدما وعده بأن يعتقه إنْ هو قتل حمزة انتقامًا من قتله لعمه، ويقال إن هند بنت عتبة هي الأخرى قد وعدته بمكافأة إنْ هو فعلها.

ظل وحشي يتربص لحمزة لا تهمه المعركة في شيء، حتى إذا ما سنحت الفرصة رماه بحربته وقد كان راميًا ماهرًا، فأصابه ونال حريته.

كان سقوط الفارس حمزة خبرًا جللًا، لكنه لم يوهن جيش المسلمين، إذ استمروا في حملتهم على جيش قريش، وكان من أثرها أنْ تفرَّق القرشيون وبدا التخبط في صفوفهم.

الظاهر للعيان أن الجيش يتقهقر إلى الخلف، والخافي منه هو خالد بن الوليد الداهية ومعه عُصبة من الفرسان تأتمر بأمره.

خالد وطوال المعركة كان يبحث بشكل حثيث على ثغرة ينقضّ منها على المسلمين، تنظيم النبي محمد للجيش كان مزعجًا له، لكنه بدهائه المعروف كان يرقب بدأب، منتظرًا أول خطأ يرتكبه جيش المسلمين، وهو ما حدث بالفعل!

فأمام تراجع جيش قريش غرَّ الأمر الرماة بعصيان أوامر القائد، الطمع

وحديث النفس كانا حاضرين في نفوس البعض، ظنوا أن المعركة قد انتهت، فقرروا أن يهبطوا من ثغرهم لجمع الغنائم، وفي الوقت الذي كانت تشق فيه سيوف علي وأبي دجانة وسعد بن أبي وقاص، رؤوس فرسان قريش، هبط من خلفهم معظم الرماة ـ أربعون راميًا من أصل خمسين ـ ليلتقطوا الغنائم، ولم يكن خالد بن الوليد يريد أكثر من ذلك، لقد أتت الفرصة على طبق من ذهب، ظهْر الجيش بات مكشوفًا، وعليه أن يستثمر الأمر.

فعليًا كان النصر قريبًا، حتى إن الزبير بن العوام قال في ما بعد: «لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل أو كثير»، ولكن قاتل الله الطمع...!

لقد جنح الرماة إلى الغنائم، فجمح خالد على ظهورهم...

فجأة وفي أثناء فرار جيش قريش جاء خالد بن الوليد من الوراء يتبعه عكرمة بن أبي جهل، نظر فرسان المسلمين خلفهم فرأوا الفاجعة، خالد قادم من أعلى الجبل.

ارتباك مفاجئ دفع فرسان قريش الفارين للعودة مرة ثانية ليضربوا جيش المسلمين المضطرب، وصلوا فعليًا إلى قلب جيشهم حتى بلغت ضرباتهم النبي محمد نفسه، رماه أحدهم بحجر أصاب وجهه فوقع من شدة الضربة، وقد

غطت الدماء وجهه، بسرعة مدهشة أحاط بعض الفرسان بالنبي محمد حماية له، حتى إن بعضهم تلقى الضربات بدلًا عنه في فدائية وشجاعة، كان هذا قبل أن يرتفع صوتٌ في جيش قريش بأن محمدًا قد قُتل.

نهض النبي محمد ومعه بعض المسلمين إلى شِعب بجوار جبل أحد يحتمون به ويلتقطون الأنفاس بعد المباغتة، لقد كان من أثر المفاجأة أن قتل بعض المسلمين إخوانهم، وكان لا بد من استحضار الذهن ثانيةً.

أمر النبي بعض أصحابه باستعادة قمة الجبل مرة أخرى فتم لهم ذلك بعد كثير جهد وبسالة، مما مكّن النبي ومن معه من لَمّ شتات أنفسهم والخروج من الهزيمة الساحقة التي كادوا يقعون فيها، ولأنه لا توجد معهم سهام فلقد أخذ المسلمون يلقون بالحجارة على المشركين فأبعدوهم عن الوصول إليهم، قبل أن يأمر النبي بالعودة إلى القتال مرة أخرى!

العودة للقتال في حالة كهذه قرار ليس باليسير، لا يأخذه إلا قائد يمتلك بسالة وتمرسًا، وسيطرة على جنوده تدفعهم لطاعته والثقة به في المُضي عكس التيار.

عاد الحال لينقلب ثالثةً، إذ رفع علي بن أبي طالب لواء المسلمين مرة أخرى، ولواء الجيش هو أحد مصادر عزته، والجيوش في ذاك العصر كانت تؤتى من حَمَلة ألويتها، فكان اختيار الفارس الشجاع علي دلالة نفسية على أن الضربة

السابقة وإن أوجعت إلا أنها لم تُطح بثبات الذهن بالكلية، ولم تصل إلى أن تحسم الأمر بشكل نهائي.

وهو ما كان، وقفت قريش أمام عودة المسلمين بخوف وحذر، لا أحد يريد مجابهة هذا الجيش العنيد، دعونا لا ننسَ هنا أن عودة قريش كانت بعد تقهقر، ولم يشعل الأمل في قلوبهم إلا خطأ الرماة الذي استثمره خالد، لكن ثبات النبي محمد وأتباعه وسرعة تداركهم للأمر، ثم وقوفهم أعلى الجبل طلبًا لنزال جديد جعلهم يعيدون التفكير مرة أخرى في ما يجب عليهم فعله، وكان الرأي أن ينتهزوا الفرصة ويعودوا إلى مكة بهذا النصر، فلا أحد يضمن ما الذي يمكن أن يحدث لو قرروا التمادي في الحرب، سيما وكل الشواهد تؤكد أن المسلمين ليسوا باللقمة السائغة.



يختلف المفكرون في وضع تعريف لموقعة أُحد، وهل كانت هزيمة للمسلمين...!

جرى العُرف على أن النصر يكتمل حينما يفر جيش أمام آخر، وهو ما لم يحدث في تلك المعركة، حتى الغنائم لم تكن حاضرة لأحد الجيشين بشكل يمكن أن يحسم الأمر، من هنا جاء الالتباس، بيد أن الشيء المؤكد أن المسلمين لم ينتصروا في المعركة!

في كتابه «الرسول القائد» يؤكد القائد العسكري «محمود شيت خطاب» أن معركة أُحد يمكن وصفها بأنها كانت نصرًا «تعبويًا» لقريش بينما هي فشل «سوقي» لها، يقصد بالتعبوي أنها حققت نصرًا مرحليًّا نفسيًّا في معركة محدودة، بينما فشلت «سوقيًا» أي في تحقيق الهدف الأهم والواضح لها في القضاء على المسلمين، ذلك أن خروج القوم من مكة كان له هدف واضح وصريح وهو إنهاء دعوة المسلمين نهائيًّا، وهو ما لم يتم.

غير أن هذا لا يغيِّر من الحقيقة في شيء، حقيقة أنه كانت هناك خسائر موجعة في الأرواح، والمؤلم أن الخسائر تلك كانت بعد نصف انتصار!

درسان مهمّان يمكن استنباطهما من موقعة أُحد:

أولهما، أن الاحتفال قبل النصر قادر على أن يطيش بثبات الذهن ويقلب الآية تمامًا، والتاريخ في القديم والحديث يخبرنا بهذا، بخطر الاحتفال قبل تحقق النصر الكامل، غير أن قليلًا مَن يدرك هذا.

الدرس الثاني، هو أن الغنائم كثيرًا ما فرَّقت حزمة الجماعة، وطمع النفس التي كانت تؤثر إخوانها قبل قليل أطاحت بالجميع. والتاريخ كذلك سيخبرك عن كثير من الأفكار والثورات مُنيت بالهزيمة لانشغال أصدقاء الأمس بجني مكاسب ثورتهم حتى عادت فلول العدو وأطاحت بهم جميعًا!

غير أن الدرس الديني الذي اهتم القرآن بتأكيده للمسلمين، هو أن ما حدث كان من صُنع أيديهم، قاصدًا أن يعيد ترتيب أذهانهم مرة أخرى، حيث يبدو أن بعضًا ممن خرج في تلك الغزوة كان يظن النصر شيئًا مؤكدًا، فهذا رسول الله معنا، فكيف ننهزم!

وعليه كان الأمر الذي اهتم القرآن بالرد عليه هو سؤالهم الحائر: «أنَّى هذا؟!»، يقصدون به كيف حدثت هذه المصيبة...؟!

هنا جاء الرد من الله:

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ

أولًا سماها ربهم «مصيبة»، لم يُجمِّل الأمر ابتداءً، إن ما حدث كان مُصيبة تسببتم فيها بطمعكم، وعدم التزامكم، غير أنها مُصيبة تسببتم في مثلها من قبل وبشكل أشد وجعًا لجيش قريش في بدر، وأمور الحياة في الجملة لا يمكن انتقاؤها، بالأمس انتصرتم، واليوم تعثرتم، والأسئلة الفارغة التي تُطرح للاستعجاب ليس لها مكان، فبأيديكم تمت العثرة، وسنن الله ماضية على الجميع.

على كلٍّ، نقطتان نقف عندهما ها هنا:

أما الأولى فهي ما فعله المشركون بجثث المسلمين وقد مات منهم نحو

سبعين رجلا، نحن لم ننسَ بعد تكريم النبي محمد لجثث قتلى قريش في بدر، والحرص على دفنهم، الأمر هذه المرة مختلف، فلقد عبث القوم بجثث المسلمين، حتى إن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بقرت بطن حمزة عم النبي وأخرجت كبده وحاولت أن تأكلها لولا المرارة، وأخذت ومَن معها في قطع الأنوف والآذان. نقول هذا لا لشيء إلا لنفهم الفارق بين الناس حتى في لحظات نصرهم.

النقطة الثانية أن النبي محمد كان حريصًا على أن تظل هيبته ومَن معه قائمة، وعليه ما إن عاد إلى المدينة إلا وجمع الجيش ثانية وخرج بهم إلى مكان يسمى حمراء الأسد يبعد عن المدينة مسافة ثمانية أميال، وضرب موعدًا مع قريش سمعت به كل القبائل المجاورة.

كان الجيش مستعدًا هذه المرة، كل من فيه ممن شارك في معركة أُحد، ولم يقبل النبي أن يخرج معه أحد ممن تخلف عن الغزوة السابقة، المنطقي هنا أن تعود قريش لتُنهي ما بدأته، لكن الواقع يؤكد أن قريش كانت في عين نفسها صغيرة، وحشدهم لمعركة أُحد كان رد فعل لما حدث في بدر، إنهم يهابون مُحمدًا وجنده، وعليه آثروا السلامة، ولم يخرجوا لقتال المسلمين، وعاد الجيش إلى المدينة وقد ضمد كثيرًا من جراح المعركة الماضية.

هل من شيء نود قوله قبل طي هذه الصفحة... الحقيقة أن هناك شيئًا مهمًا، وهو أن النبي لم يعنِّف أو يعاقب المخطئين في أُحد، مرارة ما حدث كانت كافية للتأديب، بل إنه عندما خرج ثانية أخذ معه نفس الأشخاص، وأكد أنه سيظل - امتثالًا لأوامر ربه - قائمًا بالشورى بينهم، وأن الخطأ السابق لن يمحو فضلهم، وأن الله - رغم عتابه لهم - غفور رحيم.

وللتوثيق، فإن قتلى أُحد من المسلمين كانوا سبعين رجلًا، أربعة من المهاجرين والباقي من الأنصار، ولم يتم أسر أحد، بينما قُتل من جيش قريش اثنان وعشرون رجلًا، وأُسر واحد...

نؤكد أنه لا يوجد أسير من المسلمين، كما أنه لم يفرّ أحد، ظلوا جميعًا واقفين على جبل أُحد حتى رحلت قريش إلى بيوتها ممتنة بشبه انتصار.



استعادة الاتزان

لا شك أن عثرة أُحد لم تمر بسلام...

في الوقت الذي استثمرت فيه قريش ما حدث على أنه نصر كامل، وجنَّدت شعراءها للتباهي بنصرها الساحق كما تزعم، كانت هناك تحركات ومؤامرات تحدث في الخفاء.

نحن الآن في العام الرابع من الهجرة، بعد شهور قليلة من معركة أُحد، النبي محمد يرسل سرايا محدودة في عمل عسكري مهم لتأديب بعض القبائل التي غرَّها نبأ تعثر المسلمين، ومنهم بنو أسد الذين قرروا التعجيل بالإغارة على المدينة، فأرسل إليهم النبي سرية يرأسها أبو سلمة بن عبد الأسد ـ وهو من نفس القبيلة لكنه أسلم ـ ففرق شملهم، وترك رسالة لمن غره ما حدث بأن الأمور ما زالت تحت سيطرة المسلمين.

بيد أن الليل كان يطوي في مستودع أسراره الكثير من المؤامرات...

ضربتان متتاليتان مُني بهما النبي محمد وأتباعه، كان أثرهما موجعًا وبشدة.

الأولى كانت بعد غزوة أُحد مباشرة حيث أتى إلى النبي بعض رجال من إحدى القبائل تسمى «العضل والقارة»، طالبين من النبي أن يبعث معهم بعض أصحابه ليعلموا الناس الإسلام، مؤكدين أن فيهم مسلمين لكنهم بحاجة إلى فهم الشرائع والعبادات. وبالفعل أرسل معهم النبي عددًا من أصحابه، قال بن إسحاق إن عدتهم ستة، ويقول البخاري إنهم عشرة... ولقد أكد كثر رواية البخاري.

وفي مكان يسمى الرجيع بين عشفان ومكة تم الغدر بهم، فقتلوا ثلاثة منهم، وأخذوا الآخرين إلى مكة فتم التنكيل بهم وصلبهم.

أما الضربة الثانية، فكانت في صفر من السنة الرابعة من الهجرة، حيث قدم على النبي رجل يقال له أبو البراء عامر بن مالك، وطلب من النبي أن يرسل معه رجالًا إلى أهل نجد يدعونهم إلى الإسلام، وأنهم في حِماه لن يمسهم أحد بسوء.

طمعًا في هداية القوم أرسل النبي بعض أصحابه، ابن إسحاق يقول إنهم أربعون، بينما يرى البخاري أنهم سبعون، غير أنهم كانوا من قراء القرآن المُدركين لأسس الرسالة وتعاليمها.

وعندما وصلوا إلى مكان يقال له بئر معونة تم الغدر بهم جميعًا، وقتلهم، اللهمَّ إلا رجلًا وحيدًا فرّ بعدما ظنوا أنه قد قُتل، لقد ذُبح من أصحاب محمد هذه المرة ـ في أقل التقديرات ـ تسعة وثلاثون رجلًا، ويا لها من خسارة فادحة ومؤلمة.

والسؤال: هل خُدع النبي محمد مرتين؟

والحقيقة أن الإجابة تكمن في القيمة التي يعمل من أجلها النبي، لو كانت رسالته هي الغزو وطريقته هي السيف لما أرسل أحدًا، أو على الأقل أرسل فرسانًا من نوعية علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص.

الرجل هنا يمارس دوره الرئيسي، الطمع في هداية الناس بشكل سلمي غلب على تفكيره، ومع هذا احتاط بأخذ المواثيق والعهود، لكن يبدو أن قريش وأذنابها قد قررت نقل المعركة من المواجهة المباشرة التي لم تحقق لهم أي فائدة، إلى تدابير الغدر والخيانة.

إنها لأيام عصيبة على النبي محمد، فما بين ضربة أُحد المادية بخسارة رجال أوفياء، والمعنوية التي استثمرتها قريش جيدًا، ثم ضربات الغدر والاغتيال، صار لزامًا على الرجل أن يتحرك وبسرعة، فالوضع داخليًا وخارجيًا لا ينبئ بخير...

لا شك أن الوضع صعب، والتوتر قائم، والحذر صار هو المسيطر على الحركة...

وطبيعة النبي محمد وفق الشواهد السابقة تدلل أنه لن يترك الأمر كثيرًا قبل أن ينتقل من رد الفعل إلى الفعل.

والواقع أن الرجل قسم جهده وتركيزه على إعادة ترتيب البيت من الداخل، فما بين سعيه المستمر بين رجاله للاطمئنان إلى وحدة الصف، إلى مواساته المستمرة ودعمه لبيوت الشهداء وذويهم، حدث ما استدعى عليه أن يوجه ضربة عنيفة إلى يهود بني النضير.

الرجل يتابع بدقة التحولات النفسية لليهود وأتباعهم من المنافقين، يدرك جيدًا حركتهم في بث التوتر بين الناس، جاءه نبأ السخرية منه وتصريحهم بأن لو كان نبيًّا كما يدَّعي لما انهزم في أُحد.

يشعر بالخطر منهم، لكن العهود التي تربطه بهم كانت هي الفيصل في أي قرار يتخذه معهم، حتى حدث ما حدث...!

بدأ الأمر بقتل «عمرو بن أُميَّة الضمري» وهو واحد من المسلمين، لرجلين بالخطأ، فقرر النبي أن يدفع دية الرجلين لأهلهما، وكان من شروط الاتفاق مع اليهود أن يتعاونوا في دفع الديات.

ذهب النبي محمد ومعه أبو بكر وعمر إلى يهود بني النضير وعرض عليهم الأمر، فكان استقبالهم طيبًا، غير أنهم تباطؤوا بشكل مريب في تأخير النبي بينهم، بعين حذرة - بطبيعة الحال - رصد النبي ومن معه كيف خرج القوم من المجلس ليختلوا بأنفسهم، ثم تباطؤهم في الإجابة، ولأنهم لا يستطيعون قتل الرجل بينهم لما سيحدثه هذا من مذبحة من قِبل أتباعه فقد قرر أحدهم أن يعلوا بيتًا ويلقي عليه بحجر فيقتله وكأن الأمر قضاء وقدر.

عرف النبي الخبر، ربما سمع همسهم، أو ربما بوحي من ربه، غير أن المسملين في المدينة أصابهم القلق من تأخر نبيهم وصاحبيه عند اليهود فذهب بعضهم إليه، فأعاد حينها النبي طلبه بمشاركة اليهود في الدية، وعندما رفض القوم تأكد له أن ملاينتهم السابقة كانت من باب الاستدراج، وأن أوان الحسم قد أتى!



إن سياسة الناس أمر أشد تعقيدًا مما يتصوره المُراقب، والسلطة في مُجملها مُفسدة للأخلاق والسلوكيات، وأكرر أنه من النادر أن ترى سياسيًّا مستقيمًا كالسيف، أو واضحًا كالشمس، حتى بدا لنا أن دار المُلك مستنقع آسن، وأن مكان الشرفاء على يسار السلطة في كل آن وحين.

مشكلة السياسي الشريف أن مصالح شعبه ستدفعه إلى أخذ قرارات عصيَّة

على فهم المراقب، وإن لم يجتهد المُتابع لفهم التفاصيل والإرهاصات فلن يرى حكمة القرار ولا أهميته.

مزية النبي محمد سياسيًّا أنه يعطيك نموذجًا لإدارة الدولة في الظروف المضطربة، يعلِّمك كيف يكون السياسي فعلًا لا رد فعل، وكيف يكون القرار على قوته مستوفيًا شروط الحزم دون أن يتخطى حواجز اللعبة السياسية وأصولها.

محاولة الاغتيال لم يكن عليها شهود، فمررها النبي دون أخذ قرار حاسم بشأنها، لكنه توقف على خرق بني النضير لبنود الاتفاق في ما يختص بمشاركتهم دفع دية الرجلين اللذين قُتلا بالخطأ من قِبل واحد من أهل المدينة، رفضًا يُمثل نقضًا للتعاهد القائم بين النبي محمد وبينهم، وعليه كان قرار النبي بإخراج بني النضير من المدينة، وإعادة سيطرته على دولته بشكل كامل.

وكان من جملة ذكائه أنه أرسل إليهم أن يخرجوا من المدينة ما دامت لا تسعهم شروط الاتفاق، وراقب التحركات التي يقوم بها المنافقون من أهل المدينة وعلى رأسهم «عبد الله بن أُبيّ بن سلول» في مؤازرتهم ليهود بني النضير، وإخبارهم أنهم إنْ قاتلوا سيقاتلون معهم. وعليه كان رد القوم بأنهم لن يعترفوا بأي اتفاق بينهم وبين النبي محمد، كما أنهم باقون في المدينة فيما يمثل تحديًا، أو بلغة أهل السياسة الانتقال إلى مرحلة اللعب على المكشوف.

وهنا أعلن النبي الحرب عليهم، خرج بجيشه فحاصر حيّهم، كان القرار سريعًا وحازمًا مما أربك المنافقين فتراجعوا عن تقديم العون لبني النضير، مما حسم الأمر سريعًا، ودعاهم إلى التفاوض، والذي كان منه خروجهم من المدينة بسلام مع السماح بحمل كل ثروتهم ومدخراتهم معهم، وهو ما وافق عليه النبي محمد، حتى قيل إن الرجل من اليهود كان يخلع باب بيته ويحمله معه.



بعدما أطاح النبي محمد ببني النضير وأرهب من تطاول من المنافقين، خرج على رأس جيش من أربعمئة مقاتل للاقتصاص لمقتل السبعين رجلًا الذين قُتلوا غيلةً وغدرًا، لكنه عاد بغير قتال في ما سُميت «غزوة الرقيع»، وبعدها خرج إلى بدر مرة ثانية بعدما تحداه أبو سفيان بعد موقعة أُحد أن يلتقيا هناك بعد عام، خرج المسلمون في عدد كبير بلغ ألف وخمسمئة مقاتل، غير أن أبا سفيان تراجع عن القتال بعدما علم عدد المسلمين وإصرارهم.

وبعد عودة النبي لم يسترِح وخرج ثالثة إلى منطقة «دومة الجندل» في طريق الشام وقد كان يسيطر عليها بعضًا من قُطّاع الطرق، فتفتت شمل القوم إذ علموا بالجيش القادم، بيد أن النبي أرسل بعضًا من رجاله إلى القبائل المجاورة يعرِّفهم بالإسلام، فأسلم منهم عددًا.

ما نطويه في كلمات متتالية قليلة لا ينبغي أن نمرره على الذهن سريعًا، لأننا نتتبع الآن عبقرية عسكرية وسياسية فذة، عقلية ثابتة أمام الغدر، متزنة أمام العثرات، مبادرة لا تسمح بتقلب الأحوال أن ينال منها أو ينقلها إلى خانة رد الفعل، أعلم جيدًا أن أهل المثالية الواقفين على هامش التاريخ لن يفهموا كثيرًا عبقرية ما يفعله النبي...

على كلٍّ، شبه الجزيرة العربية ـ وقريش تحديدًا ـ كانت تفهم جيدًا ما يفعله الرجل...

تفهمه... وتخشاه.



الليالي الطويلة

لو تتبع المرء منا سيرة النبي محمد في الحرب لظن حياته كلها كانت فوق ظهر فرسه، ولو تأمل حكاياته ومواقفه في بيته ومع أزواجه وبناته وأحفاده لتراءى له أنه رب أسرة مُقيم، ولو ذهب يجمع مواقفه مع أصحابه والمحيطين به لما وسعه إلا أن يعطيه الدرجة الكاملة في التواصل الاجتماعي!

لا عجب، أنت أمام رجل عبقري، قادر على أن يستثمر كل دقيقة وثانية في إعطاء الحياة معنى ما، وإضفاء لون من التأثير على حياته وحياة من حوله.

نتحدث عن الحروب والغزوات ومشاكسات السياسة حتى يُخيَّل إليك أن هذه مُجمل حياة الرجل، والحقيقة أنه وسط كل هذا كان هناك تشريع ديني يتم تأسيسه، ونظم اجتماعية يعمل على إرسائها، ووصايا خاصة بتزكية النفوس

ورقيها يتم تعليمها، ومشروع فكري كامل يبذل جلَّ جهده كي يُفهمه لأتباعه كي يكون لهم منهج يهتدون به بعد رحيله.

ولولا أن منهجي في تتبع حياة الرجل كان يُعنى بالوقوف على شخصية القائد، لسوَّدت من الصفحات المئات في تفاصيل لا أقول جانبية أو هامشية، وإنما عظيمة ومهمة وذات دلالة.

النبي محمد وخلال كل ما نراه من حروب واضطرابات كان يمارس أسلوبه الثوري في كسر قوانين اجتماعية قائمة.

لك أن تتخيل أنه ووسط كل هذا الجو العاصف كان التشريع ينزل بتحريم الخمر، وإعطاء المرأة ميراثًا، والسماح لها بأن تختار زوجها بمحض إرادة حرة.

في ظل وضع مضطرب كهذا كان النبي يعمل على فرض معايير المساواة، والحرية، والعدالة الاجتماعية، تلك القيم التي كانت غير مفهومة في زمان كهذا، بل ومستهجنة في بيئة لا تعترف بقيمة الفرد بعيدًا عن عشيرته...

كان رجلًا ثري النفس والروح، عظيم الشأن والقيمة، مُحيرًا لكل متتبع وباحث، إذ كيف يجتمع في شخص واحد تمام كل هذه الخصال؟! بيد أن أتباعه يعرفون الإجابة، ذلك أنهم يؤمنون بأنه نبي، صُنع على عين الله وبرعايته.

نعود إلى القائد في عامه الخامس بعد الهجرة، ننظر فنرى قيمة أن تعيش آمنًا

غير خائف، تبني دولتك وأنت صاحب اليد العليا في تحديد معالمها، تفتح باب مجلسك وتستقبل الوفود وكلاكما مُطمئن غير وجل ولا ملتفت.

ستة أشهر كاملة قضاها الرجل في ممارسة دوره كصاحب رسالة ومنهج، نعم كانت عينه تراقب وترصد قريش من بعيد، واليهود من بني خزاعة وما يقومون به من اتصالات مع بني النضير الذين طُردوا، ومنتبه كذلك إلى تحركات المنافقين وكبيرهم عبد الله بن أُبيّ.

كان النبي محمد الذي يقترب من عامه الستين يفرغ جُلّ طاقته في رسم معالم منهجه بوضوح يتيح لأتباعه إكمال المسار نحو مُستقبلٍ قد أَعدّ لهم عدتهم فيه، كان يجلس مع أصحابه يتكلمون، ويتجادلون، ويتشاورون في أمور الحياة كبيرها وصغيرها.

كان مُطمئنًا إلى أن ما فعله خلال الأعوام القليلة الماضية قد أرهب كل قبائل العرب، وأنه ألزمهم بمواقفه الحاسمة ألا ينساقوا وراء إغواء شيطانهم.

غير أن الحق وإن كان قادرًا على لَمّ شمل الشرفاء، فإن الباطل يسعه أن يجمع على مائدته شرار الناس، وحقد النفوس قادر هو الآخر على أن يصل القلوب السوداء بعضها ببعض!

وهو ما حدث بالفعل...

بدأ الأمر بنفر من اليهود، جمعهم الحقد على النبي محمد، وأوجعهم ما فعله بهم، يقول ابن إسحاق بسنده:

«إن نفرًا من اليهود منهم سلام بن أبي النضري، وحُيَيّ بن أخطب النضري، ونانة بن الربيع، وهوذة بن قيس الوائلي، هم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله، وقالوا إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله».

بعدها ذهبت نفس الجماعة إلى غطفان من قيس بن غيلان فدعوهم إلى حرب المسلمين، وعليه اجتمع كل هؤلاء بالإضافة إلى بعض القبائل المتناثرة سواء المتحالفة مع قريش أو الطامعة في شيء من مغنم الحرب وخرجوا إلى مواجهة النبي محمد بقيادة أبي سفيان بن حرب.



الموقف هذه المرة أكثر خطورة من ذي قبل.

خروج النبي محمد لحروب الأحزاب المجتمعة غير متكافئ بالمرة، فضلًا عن عدم اطمئنانه ليهود بني قريظة الموجودين في قلب مدينته والمؤكد مشاركتهم في الحرب إذا ما حمي الوطيس، كما أن المكوث داخل المدينة ليس بالحل الأمثل

كذلك بنو قريظة أيضًا يعرفون جيدًا كيف يدلُّون الجيوش المجتمعة إذا ما دخلوا المدينة واستباحوا طرقها...

وبينما النبي محمد وأصحابه في مجلس حربهم المنعقد، إذ يشير عليهم سلمان الفارسي بأمر غريب، كان رأي سلمان أن يقوموا بحفر خندق حول المدينة يمنع دخول الجيوش إليها!

كان الرأي مدهشًا لعدم اعتياد العرب على مثل هذه الأمور، الحرب في تلك المنطقة يعني التقاء السيوف، بيد أن سلمان أشار إلى أن مثل هذا العمل أمر مشهور في بلاد فارس ولطالما نفع الجيوش هناك في الذود عن أراضيها، فقرر النبي أن يبدؤوا من فورهم في حفر الخندق.

وكان من المفترض أن يشترك كل أهل المدينة في حفر الخندق نظرًا لأن الحرب عامة وكبيرة وطامة هذه المرة، وأنها يقينًا لن تُفرق بين المسلم وغيره، وفي الوقت الذي خرج المسلمون في حماسة لتنفيذ الفكرة اعتذر المنافقون لضعفهم!

لم يُضِع النبي وقتًا في إقناع أحد بالخروج، خرج بنفسه يحفر الأرض حتى غطاه التراب، كان المسلمون يرون نفرًا ممن معهم يعودون إلى المدينة ثانية، في إشارة إلى أن النفاق لا يزال يحصد قلوب البعض.

بلا شك هذا مما يُضعف الحماسة ويُدخل القلق إلى النفس، غير أن وجود النبي

محمد بينهم، وإقباله على العمل بلا كلل كان يعيد شحن نفوسهم من جديد بطاقة إيمانية ونفسية كبيرة.

حتى أناشيدهم في أثناء الحفر كانت تحمل دلالة على البسالة، وعدم التراجع، وأنهم أكفاء لحمل الفكرة والدفاع عنها، فكانو ينشدون في حماسة:

نحن الذين بايعوا محمدًا   على الجهاد ما بقينا أبدًا

كان حفر الخندق أمرًا صعبًا، الأخبار المتطايرة بأن الناس مجتمعون على إنهاء دعوة محمد كان يصل إلى المدينة ويتم تضخيمه من قِبل المنافقين واليهود طمعًا في أن يُحبط النبي محمدًا ومن معه، وبرودة الجو غير المحتملة جعلت ليلهم قارسًا، كما أن ابتعادهم عن موارد الرزق كان يشغل بالهم، العمل نفسه كان شاقًّا عليهم وغير مألوف، يقول محمد بن سلمة واصفًا الحال: «كان ليلنا بالخندق نهارًا حتى فرَّجه الله».

بيد أن النبي محمد كعادته كان ثابتًا، قسَّم العمل عليهم لكل عشرة من الصحابة أربعون ذراعًا عليهم أن يحفروها.

المدهش أن القائد كان يعمل معهم، يشاركهم الكدح، والجوع، ويربط على بطنه الحجارة ليضغط بها على أمعائه فيُسكت جوعها!

ليالٍ صعبة مرَّت على النبي محمد وأصحابه، ساعات من العمل الشاق ما إن

انتهت حتى جاء الخبر بأن القوم قد اقتربوا، وأن عليهم أن يتركوا معاول الحفر كي يُمسكوا بسيوف الحرب!



أقبلت قُريش ومن معها من كنانة وتهامة والأحباش وبعض القبائل الأخرى وتمركزوا في مكانين هما «الجرف وزغابة» وأقبلت غطفان ومن تبعها من نجد ونزلوا عند أُحد.

كان عدد قريش أربعة آلاف مُقاتل، والجيوش الأخرى ستة آلاف، ولم تكن هناك قيادة موحدة، فقريش يقودها أبو سفيان بن حرب، وغطفان بقيادة عيينة بن حصن، وأشجع بقيادة مسعود بن رخيلة، وسُليم يقودها سفيان بن عبد شمس.

نعم كانت قيادتهم مختلفة، لكن هدفهم كان واحدًا، وواضحًا؛ القضاء على المسلمين نهائيًا، وليس متوقعًا أبدًا عودتهم دون الوصول إلى هدفهم مهما كانت الأسباب، ومهما كان الثمن.

وعليه كانت مفاجأة الخندق صادمة لهم، توقعات القوم بهجمة شرسة عنيفة لم يعد ممكنًا، احتاروا في أمر ذلك الخندق وتعجبوا، هذا ليس من تدبير العرب ولا يعرفون كيف يمكن التعامل معه.

وبينما خيول قريش تدور حول الخندق بحثًا عن ثغرة، كان الشر يعمل على كسب أتباع جدد ويفتح بابًا جديدًا على المسلمين...!

بعيدًا يمكننا أن نرى تحرُّك حيي بن أخطب... الرجل الذي بذل جهده في جمع كل هذا العدد كان يضاعف جهده ـ ويشكل يليق بخبث روحه وكراهيته ـ كي يجد حلًا لمشكلة الخندق، توجه إلى بني قريظة ـ آخر قبيلة يهودية في المدينة ـ تسلل إليهم طامعًا في أن يُخرجهم لضرب المسلمين من الخلف، كي تتمكن الجيوش من عبور الخندق وضرب المسلمين.

دخل حيي بن أخطب على كبير اليهود كعب بن أسد القرظي قائلًا:

«ويحك يا كعب، أتيتك بعز الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم على جانب أُحد، وقد عاهدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه».

فقال له كعب: «جئتني والله بذلّ الدهر، فإني لم أرَ من محمدًا إلا وفاءً وصدقًا».

وعلى الرغم من رد كعب فإن حيي بن أخطب لم يزل يلحّ عليه حتى أقنعه بالتعاون، مؤكدًا له أن الأمر هذه المرة مختلف، وأن الجيوش التي تقف على الجانب الآخر من الخندق لن تبرح حتى تُنهي الأمر، وأن عليه أن يشارك في حرب معلومة نتائجها!

تمَّت الخيانة من قِبل اليهود، غير أن النبي محمد كان منتبهًا كعادته، سيما وأنه لم يكن مُطمئنًا بحال إلى جانبهم، عالمًا بأن الغدر شيمة طبعهم، بيد أن مثل هذه الأمور تحتاج إلى حسم وتوثيق، فأرسل إليهم سيد الأوس سعد بن معاذ وسيد الخزرج سعد بن عبادة ومعهما عبد الله بن رواحة، وقال لهم:

«انظروا أحقٌّ ما بلغنا عن القوم أم لا، فإن كان حقًّا فالحنوا إليَّ لحنًا أعرفه ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء في ما بيننا فاجهروا به أمام الناس».

من كلام النبي تظهر لنا خطورة ما يحدث، حتى إنه طلب من الرجال الذين أرسلهم إلى اليهود ألا يجهروا بالخبر إن كانت الخيانة قد تمت؛ نفوس المسلمين لم تعد تحتمل ضربات نفسية جديدة!

وها قد حدث السيئ، ذهب الرجال إلى اليهود فوجدوهم على أخبث حال، قالوا ما بيننا وبين محمد من عهود، وشتموا النبي حتى رد عليهم سعد بن معاذ، وكاد الأمر يتطور لَولا أن سعد بن عبادة تدخل قائلًا لصاحبه: «دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أدنى من المشاتمة».

عاد السعدان إلى النبي وأبلغاه بالطريقة التي طلبها منهم، وكان على نبي المسلمين أن يتدبر أمره.

الموقف سيئ بحق، قريش ومن معها قادمة من أعلى واليهود من أسفل، والمنافقون من الداخل يوهنون العزائم وينشرون التشاؤم والتردد في نفوس المسلمين.

يسخر الواحد من موقف المسلمين قائلًا: «وَعَدَنا محمد بكنوز كسرى وقيصر، والواحد منا اليوم لا يأمن أن يذهب إلى الغائط».

يذهب أحدهم إلى النبي قائلًا بصوت عالٍ: «إن بيوتنا عورة ـ أي مكشوفة ـ على العدو، فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا».

لم يرتبك النبي رغم أن الموقف باعث على الارتباك، لم يذهب ثبات ذهنه رغم الخطر المُحدق، كان يعلم جيدًا أن الخوف شعور إنساني، منطقي أن يحيط بجنده في موقف عصيب كهذا، لكن لا يصح أبدًا للقائد أن يظهر بمظهر الخائف المرتبك، العيون كلها تتجه إليه، تستمد ثباتها من صلابته، وإيمانها من رباطة جأشه، ولقد كان الرجل كبيرًا بحق.

أحاط بالنبي خلاصة رجاله، ثلاثة آلاف فارس قد وهبوا أرواحهم للنبي تصديقًا له، فأمر القائد بكتيبة لحراسة المدينة من مئة رجل يرأسها سلمة بن أسلم، وأبلغه أن يجمع النساء في مبانٍ محصنة ومعهن الأطفال والعجائز كي لا يطالهم اليهود، ويطمئن الجند على نسائهم، ثم أمر زيد بن حارثة بأن يقف ومعه كتيبة من ثلاثمئة رجل على مدخل المدينة من جهة اليهود.

وزَّع النبي قواته بشكل مدروس، كان يعلم أن الوقت يلعب لصالحه، هؤلاء قوم أتوا لينهوا الأمر في ليلة وضحاها، وهم وإن كانوا نظريًّا مُحاصِرين للمدينة، إلا أنهم عمليًّا واقعون في الحصار ذاته، سينفد مطعمهم ومشربهم يقينًا، فلا يوجد على أطراف المدينة ما يكفي لإطعام عشرة آلاف رجل فضلًا عن علف دوابهم، دَعْكَ من أن القوم ليسوا على قلب رجل واحد، وأن الشر الذي يجمعهم وإن كان راسخًا فإنه ليس بكافٍ وحده، سيما لو كان هناك تحرك من قِبل المسلمين لضرب تجمعهم ووحدتهم.

نظر النبي إلى وجوه أجنحة العدو المختلفة، فرأى اتحادًا ظاهرًا على هزيمة المسلمين وإفنائهم، لكن بواعث العداء لدى كل فريق مُختلفة، فقريش تحركها عداوة سياسية ودينية وثأر شخصي، أما غطفان فدافعهم الأكبر هو حُب الغارة، وجمع الغنائم.

وعليه تحرك القائد، فأرسل إلى غطفان ومن معها من نجد برسالة مفادها أنه سيعطيهم من ثمار المدينة إن هم عادوا بغير قتال، فأرسل إليه عيينة بن حصن والحارث بن عوف من قادة غطفان بأنهم يريدون ثلث ثمار المدينة، ولأن النبي لا يملك فعليًّا أمر التصرف في الممتلكات الخاصة فقد أرسل إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، كبيرَي الأوس والخزرج، يستشيرهما في الأمر، وكان هذا الحوار:

قال أحد السعدين بعدما سمع العرض: «أهذا أمر تحبه فتصنعه، أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟».

فقال النبي: «بل شيء أصنعه لكم، العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، وأردت أن أكسر شوكتهم».

فقال سعد بن معاذ:

> «يا رسول الله... قد كنا ونحن وهؤلاء على شرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا شراءً أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام، وهدانا إليه، وأعزنا به وبك تعطيهم أموالنا، والله ما لنا بهذا حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم».

انتهى الحوار... رفض الزعيمان رؤية القائد، وأعلنا أن السيف هو الحاسم في القضية، غير أنهما جددا في ثنايا حديثهما بيعتهما على الأرواح، وأن الرفض كان من منطق العزة والشرف. غير أن سعي القائد هنا وإن لم يتم إلا أنه فعل - نفسيًّا - في نفوس غطفان فعله، ما دام القوم قد تحدثوا عن خيانة حلفائهم، فالأمر يبشِّر بخير، حتى وإن لم يتم، ذلك أن الطمع حين يدخل النفوس يحل محل العزم!

في تلك الأثناء جاء إلى النبي رجل من غطفان وهو نعيم بن مسعود مُعلنًا إسلامه، مؤكدًا أنه لا أحد يعلم بنيته تلك من قومه، وعرض على النبي المساعدة، فقال له النبي بعدما رحب به: «إنما أنت رجل واحد، فاخذل عنا إن استطعت، فإنما الحرب خدعة».

كأن النبي يقرأ دواخل البشر، كلمة «الحرب خدعة» التي قالها لنعيم بن مسعود دخلت عقل الرجل وتسللت فيه، وخرجت بخطة جعلت جهد الرجل في التخطيط يساوي انضمام ألف سيف أو يزيد إلى جيش المسلمين!

فلقد ذهب صاحبنا إلى يهود بني قريظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية ويعرفونه جيدًا، فقال:

> «يا بني قريظة قد عرفتم ودِّي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، إن قريش وغطفان ليسوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم وآباؤكم ونساؤكم، لا تستطيعون أن تُحولوا منه إلى غيره، وإن قريش وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم ونساؤهم وأولادهم في غيره، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا وعادوا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القومْ حتى

تأخذوا منهم رهناء من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدًا حتى تناجزوه».

فما كان من اليهود إلا أن قالوا موافقين على رأيه: «لقد أشرت بالرأي».

خرج أبو نعيم من عندهم وذهب من فوره إلى أبي سفيان بن حرب فقال له: «لقد عرفتم ودِّي لكم وفراقي لمحمد، وأنه قد بلغني أمر قد رأيت عليَّ حقًّا أن أبلغكموه نصحًا لكم، فاكتموه عني»! فقالوا: «نفعل».

قال:

«إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد، وأرسلوا إليه أنَّا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قبيلتي قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من يبقى فنستأصلهم، فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهائن فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا».

ثم استأذن في الخروج بعدما قال مقالته، وذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش.

وحدث ما خطط له الرجل، أرسلت يهود إلى القبيلتين تطلب رهائن حماية

لها وتأكيدًا أنهم لن يعودوا ويتركوهم، فرفضت قريش وقد تأكدت أن يهود قد غدروا بهم، وتأكد لليهود في المقابل أن قريش ستغدر بهم إن لم تستطع أن تنتصر على النبي محمد وتتركهم له لينتقم منهم.

نعم، كان للحرب النفسية أثرها السلبي على الأحزاب المجتمعة، غير أنها لم تكن كافية وحدها في إنهاء الحرب.



في أثناء الحصار حدث بعض المناوشات، منها أن وجد فرسان قريش ثغرة في الخندق فمر خلالها بعضهم، منهم عمرو بن ودّ العامري، والذي خرج انتقامًا من جراحه في بدر والتي منعته من المشاركة في أُحد، وكان عمرو من فرسان العرب الأشداء، مرهوب الجانب، عظيم الشأن، يهابه الكثيرون ويخشون سيفه، نادى الرجل كي يخرج له أحد المسلمين لمبارزته، فخرج له علي بن أبي طالب، والذي ما إن رآه عمرو بن ود وتعرف على هويته إلا وقال له: «عُدْ يا ابن أخي فوالله ما أحب قتلك».

فقال له علي: «لكني والله أحب قتلك».

وبدأت المبارزة بين الرجلين، كلاهما فارس لا يُشق له غبار، طال علي من ضربات الرجل ما أدمى وجهه، غير أن ضربة ابن أبي طالب كانت قاصمة وقاضية، سقط من أثرها عمرو بن ود قتيلًا.

أرسلت قريش طلبًا إلى النبي تريد استرداد جثة فارسها مقابل ما يطلبه المسلمون من مال، وهذا إن دلّ فإنما يدل على مكانة الرجل، فأمر النبي أن يرد جثمان الرجل ومعه رسالة أن المسلمين قوم لا يأكلون ثمن الموتى.

ويبدو أن مصرع فارسهم المغوار كان دافعًا للذين عبروا الثغرة أن يعودوا ثانية أدراجهم، فسيوف المسلمين كانت حاضرة، وفرسانهم متجهزون.

تحولت المعركة إلى رمي بالنبال والسهام، بين فينة وأخرى يُقتل واحد هنا وآخر هناك، أبرز من أصيب بالسهام كان سعد بن معاذ أحد كُبَرَاء الأنصار، غير أنها لم تكن إصابة مميتة، وإن كانت خطرة.

ثم جاء الخبر بأن بيوت المدينة يتم تهديدها، أو بمعنى أدق بيت النبي محمد ونساؤه...!

كالعادة لم يترك اليهود فرصة إلا وانتهزوها، غير أنه انتهاز خسيس كغالب طباعهم، الآن بنو قريظة يحاولون الوصول إلى قلب المدينة، علهم يصيبوا مُحمدًا ومن معه من ظهورهم، غير أن بسالة الكتيبة التي تركها النبي لحماية المدينة استطاعت أن تُبطئ حركتهم حتى جاء المدد من الجند وعلى رأسهم القائد فانسحب المعتدون.

عشرون ليلة عاشها المسلمون تحت الحصار، تحت الضيق، فالظنون حائرة في

العقول تحاول أن تُطيح بثباتها، والقلوب تخفق بشدة واضطراب حتى بدت كأنها قد بلغت الحناجر، والنبي واقف كالجبل الأشم، ثابت بين رجاله في النهار والليل، وفي خلوته انكسار لخالقه ودعاء بأن يؤمِّن الروع ويستر العورة ويُسرع بالمدد.

وقد كان... ذات ليلة جاءت ريح عاتية أطاحت بخيام القوم، الأحزاب المجتمعة لم تكن تتوقع أن يصبح الأمر بهذا السوء، الزاد ينفد، والقلوب يطالها دخن التربص، كل طائفة لا تأمن لصدق الطوائف الأخرى؛ قريش في نفسها شيء من غطفان، وغطفان لا ترى في اليهود حليفًا مخلصًا، وجميعهم يرون أن مفاجأة الخندق منعتهم من إنهاء الأمر وجعلت القادم غير واضح، وفوق هذا تأتي الريح لتقتلع الخيام، وتمنعهم من إشعال النار، والبرد يضرب في الأوصال فيأتي التمني يحدِّثهم بأن في بيوتهم دفئًا وراحة...!

وعليه قرر أبو سفيان الانسحاب عائدًا ومن معه، تاركين متاعهم شاهدًا على خيبة سعيهم...

وهكذا انتهت أشد المحن، انتهت بلا خسائر تُذكر اللهمَّ إلا ستة قتلى أَرْدَتْهم سهام القوم الطائشة، وقد قتل المسلمون ثلاثة من قريش، على رأسهم فارسهم الأهم عمرو بن وُدّ، الذي قتله الفارس علي بن أبي طالب بسيفه.

انتهت المحنة وقد طرحت واقعًا جديدًا انتبه إليه النبي محمد وقاله لرجاله:

«لا تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم!».

ولم يكن تصريح النبي هذا من جملة تصريحات الزعماء في نشوة نصرهم، لقد قرأ الرجل المشهد الجديد جيدًا، لقد زادت ثقة رجاله به وإيمانهم بما يقول، كما أن فكرة اجتماع الأحزاب بهذا الشكل ستصبح في حُكم المستحيلة بعد رجوعهم بهذه الخيبة، بالإضافة إلى أن قريش صارت متشككة في وِلاء القبائل العربية، والقبائل نفسها صار في يقينها شيء من قدرة قريش على مواجهة المسلمين.

ماذا لدينا بعد انقضاء المحنة...؟

ومَن غيرها، «بنو قريظة» الخائنة... لتتجهز إذن كي تدفع الثمن!



لو كان للسيف أن ينطق لقال: «ويل للخائن المغلوب»، ويل له لأن الخيانة لا تُمحى إلا بالدم، والعفو عمَّن خان لا يصح سيما في وقت الحرب، لا يصح كذلك مع من كانت غدرته قاصمة للظهر إنْ تمَّت، لا يصح مع من أعطيناهم ظهورنا فأوسعوها طعنًا، وأعطيناهم كلمتنا فوضوعها تحت أقدامهم وهم يركضون للنيل منا والعيون بعيدة والقلوب مشغولة بدفع خطر آخر.

بنو قريظة تُرسل إلى النبي محمد في الصُّلح فيرفض، تطلب أن تخرج من المدينة

كما بني النضير فيرفض، هو لا يريد إلا الحرب، لا يريد سوى أن يدفعوا الثمن، يريد أن تصل الرسالة واضحة هذه المرة، رسالة أنْ لا شيء سيوقف هؤلاء المؤمنين حتى يكونوا أمرًا واقعًا في دنيا الناس، ولن يكون هذا حتى يتم تنظيف البيت من الداخل، وبشكل حاسم.

خرج النبي بعد عودته مباشرة من الخندق إلى بني قريظة، وضرب حصارًا كاملًا استمر خمسًا وعشرين ليلة.

ليالٍ تشبه قلوبهم في سوادها وظلمتها، عايشوا فيها الرعب الذي سببوه للمسلمين، كان المصير المجهول هو أكثر ما يثير رعبهم وخوفهم، إنهم يدركون جيدًا عزم النبي محمد على أن يُقيم فيهم حد الخيانة.

أرسلوا في طلب أحد المسلمين للتفاوض، وكان أنْ ذهب إليهم أبو لبابة والذي قابلوه بالبكاء والعويل فرقَّ قلبه لهم وأنبأهم بالإشارة إلى أن الذبح ينتظرهم إن هم استسلموا! فزاد خوف القوم من مصير أسود كئيب.

في الأخير قرروا النزول على حُكم سيد الأوس «سعد بن معاذ» وقد حداهم أمل أن يكون حكمه مخففًا ويكتفي بإجلائهم عن المدينة.

جاء زعيم الأنصار على فرسه محمولًا وقد كانت إصابته السابقة بسهم في غزوة الخندق قد أجهدته وبدا أنه مودِّعٌ للحياة، جاء الرجل الجريح وحوله ثلة من

الأوس يطالبونه بأن يكون حكمه على الخائنين هينًا، فلم يزد على أن قال: «لقد آن بسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم».

وفقًا للأعراف فإن حُكم الرجل الذي ارتضاه الخصم نافذ، سيما وأنه نفس الرجل الذي جاءهم سابقًا ليحاول أن يثنيهم عن غدرهم فردوه ردًا غير جميل.

وعليه ما إن وقف الرجل بين القوم وأمامه النبي محمد حتى نظر إلى زعماء بني قريظة وقال: «إني أحكم فيكم أن تُقتل الرجال، وتقسَّم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء».

كان الحُكم قاسيًا وعنيفًا، بيد أن الخيانة أشد قسوة وعنفًا، أعراف العرب ومواثيقهم كانت تؤكد الحكم وتؤيده، قوانين العصر الحديث في ما يختص بالغدر والخيانة وقت الحرب تؤيد الحكم هي الأخرى رغم قسوته، ولقد أيد النبي محمد حُكم الرجل، وتم قتل الرجال إلا قليلًا ممن كان لهم أمان لدى بعض الصحابة.

ولعلّي بسائل حَسَنِ النية يتعجب من قتل قبيلة بأكملها، وأن العفو كان أليق بشيم النبي محمد!

والحقيقة أن القصاص عدل وحياة، الرجل تعامل مع معركته بأسلوب حاسم،

أكثر من سبعمائة مقاتل العفو عنهم يعني نقل المعركة إلى بقعة جديدة، قبيلة بأكملها تعترف بأن الرجل لم يخالف عهدًا وميثاقًا ومع ذلك خانوه في توقيت حاسم، وكادت غدرتهم تلك تُنهي دولة الرجل وفكرته.

أناس بلغت بهم الخِسَّة أن هاجموا النساء والبيوت الخالية كي يشتتوا جيش المسلمين، ثم ها هم الآن يطالبون بالعفو، لكن العفو لم يكن حاضرًا، وحَكَم عليهم من ارتضوه حكمًا بأن يصبحوا نسيًا منسيًّا...



القلوب السوداء

مرة أخرى، انتصر النبي محمد في مواجهة قريش والقبائل، وأطاح بآخر معقل يهودي في دولته، وهو ما أضعف كذلك حركة النفاق في المدينة!

دعُونا نؤكد أن جزءًا غير هيِّن من خطر وجود اليهود كان في دعمهم لحركة النفاق القائمة، وكثيرًا ما حاول «عبد الله بن أُبيّ» أن يتدخل عند النبي مع كل موقف مخزٍ لليهود دفاعًا عنهم بحجة أنهم من مواليه، وبعدما خلت البلدة من اليهود كان على المنافقين لعب دور آخر، لا سيما أن الأمور باتت تحت سيطرة كاملة لعصبة المسلمين وتحت إمرة قائدهم، وهو بالفعل ما حدث في أثناء المسير إلى ديار بني المصطلق!

نحن الآن، وفق ما أكد ابن إسحاق، في السنة الخامسة من الهجرة، يأتي الخبر إلى

النبي بأن قبيلة تسمَّى «بني المصطلق» يجمعون الجيوش لحرب المسلمين، يُرسل النبي أحد رجاله ليستوثق من الخبر فيأتيه بالتأكيد.

وكعادته يؤمن الرجل بأنه «ما غُزي قوم في دارهم إلا ذَلُّوا»، وعليه نادى في جيشه أنْ تجهَّزوا، وبالفعل تجهَّز سبعمئة من المسلمين، غير أن الشيء المثير للدهشة هو خروج نفر ممن لم يخرجوا في جولات كبيرة من قبل، هؤلاء الذين لا يطمئن المسلمون إلى ولائهم الكامل، وعلى رأسهم الرجل الأهم والأخطر «عبد الله بن أُبيّ بن سلول».

وصل النبي إلى معاقل القوم ونادى فيهم أنْ أسلموا، فأَبَوا، تمت مهاجمتهم، ولم تكن المعركة كبيرة، إذ لم يُقتل من بني المصطلق إلا عشرة فرسان قبل أن تعلن القبيلة استسلامها.

وفي أثناء العودة بدأت الأمور تأخذ مجرى آخر...

حول بئر ماء التفَّ جمعٌ من الفرسان يشربون ويسقون خيولهم، حدث تزاحم منطقيٌّ بين الناس، يقال إن أجيرًا لعمر بن الخطاب ازدحم مع رجل من الخزرج فتشاجرا، فصرخ أجير عمر ينادي «ياللمهاجرين» ونادى الآخر «ياللانصار» ورغم أن كلتا الصرختين لم تجدا في نفوس الناس صدى أو أهمية، فإن «عبد الله بن أُبيّ بن سلول» تلقفها ونظر إلى أتباعه مِن حوله قائلًا: «قد

نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش «يقصد المهاجرين» إلا كما قال الأول «سمِّن كلبَك يأكلْك»، أما والله لو رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذل».

ثم نظر إلى أتباعه قائلًا: «هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دُوركم».

وكان في المجلس فتى ربما لم ينتبه إليه «عبد الله بن أُبيّ بن سلول» لحداثة سنه وهو «زيد بن أرقم»، أزعجه ما قيل في حق النبي والمهاجرين، فهرع إلى حيث النبي محمد يجلس ومعه بعض أصحابه فحكى له ما حدث.

ما إنْ انتهى زيد من كلامه إلا وتحدث عمر بن الخطاب قائلًا: «مُرْ به عبَّاد بن بشر فليقتله»!

التفت النبي محمد إلى عمر قائلًا: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟!»، ثم أردف بلهجة حازمة: «ولكن أذن بالرحيل»!

ليس السيف دائمًا هو الحل الناجع، النبي يعرف هذا جيدًا، إنه مدرك أن هناك حروبًا تُدار في الأروقة والمجالس المُغلقة، وخطط وتدابير مفتوحة غير أنها محفوظة في قلوب البعض تنتظر الفرصة، وكلام يطير بين الناس يجب ألا

يُسمح له بأن يصل إلى الآذان أو يسكن العقول، وعليه قرر أن يغطي على الفتنة القادمة بالتجهز للرحيل، وجعل فترات الاستراحة قليلة حتى لا يسمح بأحاديث جانبية.

وصل الخبر إلى «عبد الله بن أُبيّ بن سلول» فجاء سريعًا إلى النبي يتبرأ مما قال، والرجل رغم كل شيء كان مُقدَّرًا من قِبل كثير من أهل المدينة، حتى إن بعض الأنصار قال محاولًا التخفيف من وقع الأمر: لعل الغلام زيد قد أُوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل.

رفض النبي الحديث في الأمر، وشدد على أن تمضي القافلة بلا توقف، حتى جاءه أحد الأنصار وهو «أسيد بن حضير» متعجبًا يقول: يا نبي الله لقد رحلت في ساعة مبكرة، ما كنا نروح في مثلها؟!

فقال له النبي: أوما بلغك ما قال صاحبكم؟

أجابه الرجل: نعم لقد بلغني، ولكن يا رسول الله ارْفق بالرجل، لقد كان قومه ينظمون له الخرز ليتوِّجوه حين أرسلك الله لنا، وإنه ليرى بأنك استلبت منه مُلكًا.

هذا هو أصل الأمر إذن وجوهره، زعامة مفقودة لم يستطع صاحبها أن يتقبل تدابير الأيام وتقلبها، فقرر أن ينضم للفريق الرابح طمعًا في ضربه من الداخل، وكما قلنا كان الرجل ذا وجاهة فكان له بطبيعة الحال أتباع.

وكأن التاريخ يخبرنا في كل موقف أنْ فتّش جيدًا عن المصالح، هي القادرة على أن تشرح لك بدقة دوافع البشر وسلوكهم.

كما أسلفنا، كانت الرحلة مستمرة، يوم وليلة حتى ظهرت شمس يوم آخر أرهقت بأشعّتها الوجوه المُتعبة، فأمر النبي باستراحة، وما إنْ مست الأجساد الأرض حتى ناموا جميعًا من الإرهاق ولم يتحدث أحد عما حدث.

في تلك الأثناء جاء إلى النبي «عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول» وقد وصله ما قاله أبوه عن النبي، ووقف بين يدي قائده قائلًا:

«يا رسول الله، قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ بن سلول في ما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلًا فمُرْني، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله ما علمتْ الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلًا مؤمنًا بكافر فأدخل النار».

رفض النبي كلام الرجل على ما به من حماسة، وقال له ناصحًا: بل نرفق به، ونُحسن صحبته ما بقي معنا.

بعد هذه الحادثة تنبه أتباع «عبد الله بن أبيّ بن سلول» لما يسببه الرجل من قلق

واضطراب؛ إنّ تراجعه عن تهديده بهذا الشكل الضعيف بل وإنكار كلامه واتهامه لزيد بالكذب قد أسقط جزءًا من مكانته في أعين الناس.

ما زال العرب يرون الكذب منقصة، فما بالك لو اجتمعت مع الجُبن! وعليه كان الأنصار يردون على عبد الله بن أُبيّ بن سلول كلامه، بل حدث يومًا أنْ كان النبي ذاهبًا إلى المسجد للصلاة فقام عبد الله بن أُبيّ بن سلول ليتحدث إليه فأسكته قومه بشكل مهين.

هنا ابتسم النبي وهو يهمس في أذن مرافقه عمر بن الخطاب قائلًا: كيف ترى يا عُمر، أما والله لو قتلته يوم قُلت لأرعدت أنوفًا لو أمرتها اليوم بقتله لقَتَلَتْه!



غزوة بني المصطلق لم تكن حدثًا حربيًا كبيرًا، بل على العكس تم إطلاق سراح القبيلة بأكملها، وتزوج النبي محمد من «جويرية بنت الحارث» ابنة أحد زعمائها، ودخل غالب القوم في الإسلام وكانوا سندًا للمسلمين بعد ذلك وعونًا، لكن هذه الرحلة تحديدًا كانت كاشفة عن جزء مهم جدًّا من الطبيعة البشرية، مليئة بالأحداث الخطيرة التي تؤكد لنا وبشدة أن سياسة الناس ليست أمرًا سهلًا، وتصدُّر المشهد تكليف باهظ الثمن، وفوق هذا أن أعداء الداخل أشد خطرًا من أعداء الخارج المعلومة هيئتهم الواضحة أسلحتهم!

النبي محمد حتى هذه اللحظة قد تعرض لمحاولات اغتيال، عمليات سب وتشهير، اتهامات طالت سلامته العقلية، وكثير من الأذى النفسي والجسدي، ويبدو أن سلة الشر أصبحت فارغة من التهم المباشرة، مما دعا أعداء الرجل إلى التعرض لِعرض النبي محمد والخوض في شرف إحدى زوجاته!

ولنسمع القصة إذن...

ما زلنا في طريقنا للعودة إلى المدينة المنورة، نحن الآن في استراحتنا الأخيرة وقد بدأت معالم البلدة في الظهور من بعيد، النبي محمد وسط رجاله، وعائشة زوجته في هودجها تلملم حاجياتها استعدادًا للرحيل.

نعم، كعادة النبي كانت ترافقه إحدى نسائه في رحلاته، واختار القدر عائشة لتكون رفيقته في تلك الرحلة، وبطلة الأحداث القادمة!

منهكة القوى لا شك عائشة، الاضطرابات التي حدثت في أثناء الرحلة وأوامر النبي باستمرار السفر كان مُرهِقًا للجميع. على كلٍّ، ها هي معالم المدينة تظهر من بعيد، وإنْ هي إلا ساعات وتحتضن المنازل ساكنيها العائدين.

وبينما القافلة تتجهز، خرجت عائشة من هودجها لتقضي بعض حاجتها، عادت سريعًا غير أنها اكتشفت أن عُقدها الذي كان يحيط برقبتها قد وقع منها فرجعت لتبحث عنه.

وفي أثناء بحثها جاء الرجال بالبعير فحملوا الهودج وقد ظنوا أن عائشة بداخله، وبدأت رحلة العودة.

ويبدو أن رحلة بحثها عن العقد أذهلتها عن القوم العائدين، أو ربما اطمئنانها أنهم لا ريب مُنتظروها قد أعطاها الأمان كي تأخذ وقتها في مسح المنطقة بحثًا عن عقدها الضائع، غير أنها حين وجدته وعادت لم تجد الجيش ولا القافلة، فقررت أن تجلس مكانها وقد أيقنت أنهم سيعودون إليها حين يفتقدون وجودها.

لم يَطل المُقام بها، إذ مر عليها فارس من فرسان المسلمين كان قد تخلف عن القوم اسمه «صفوان السلمي»، فما إن رآها وعرفها حتى قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قرّب بعيره كي تركب عليه بعدما وقف بعيدًا، حياءً وأدبًا، وعادوا إلى القافلة سريعًا، غير أن عودتهم تلك لم تمر مرور الكرام.

ذلك أن بطل قصتنا السابقة «عبد الله بن أبيّ بن سلول» كان واقفًا وسط الناس، ألقى على أسماعهم ببعض الكلمات التي تحمل من الخبث الشيء الكثير، كلام عن سبب تأخر رجل وامرأة وعودتهما متأخرين، كلام مُفخَّخ، بيد أنه غير واضح ولا صريح، ومضى الرجل يضرب الراحة بأختها ويبث سمومه بين

الناس، يبدو أنه قد تعلم الدرس السابق، فكان كلامه تعريضًا وتلميحًا حتى لا يؤخذ عليه.

وتطاير الخبر بين الناس، ولا عجب هنا ولا دهشة، إذ نفوس الناس مجبولة على التعاطي مع الأخبار الغريبة المُدهشة، وفي الناس حب للنميمة وهوس بالحديث الخافت الذي يملؤه الظن وتتوه فيه الحقائق.

ولماذا بظنك تجد في نصائح الأنبياء والحكماء وأهل الرأي تحذيرًا من الغيبة والظن السيئ بالآخرين والخوض في الأعراض؟!

إنها محاولات نبيلة لكبح جماح نفس تجد لذّتها في قتل ليلها الطويل في الأحاديث المثيرة مهما كانت غامضة، بل ربما زادها الغموض سحرًا وإثارة!

وصلت الرحلة إلى المدينة وقد صار حديث القوم مُنصبًّا على الحدث الأخير، فيما يبدو أن ابن سلول قد غطى على خيبته السابقة بزوبعة جديدة، والحقيقة أنها كانت أزمة عنيفة على النبي وأصحابه القريبين، وعلى عائشة نفسها التي عرفت بالأمر متأخرًا.

ذلك أن المرض قد أسقطها طريحة الفراش بعد العودة مباشرة، كان مرضها شديدًا مما أخرجها من دنيا الناس ليالي، يبدو أن رحمة الله أنقذت الزوجة الطيبة من أن تسمع أسوء وأخطر وأقذر ما يُمكن أن تسمعه امرأة بحق شرفها وعِرضها.

لكن دعونا نتوقف مع النبي محمد، لقد كانت الضربة قاسية هذه المرة، إنه يعرف عائشة جيدًا، بل يعرف صفوان نفسه والذي يحبه ويقدّره ويثق بأمانته وأخلاقه، والأهم أنه يعرف جيدًا أن ما يحدث هو ضريبة يجب دفعها لمن أراد أن يتصدر المشهد العام.

لم يصدر من النبي محمد إلا تصريح عام واحد: مَن يعذرني في رجل بلغ أذاه في أهل بيتي؟

كلمة تعبر عن مرارة حقيقية من المستوى الذي وصلت إليه قوى الشر والنفاق، كلمة مست مرارتها بعض الأنصار فقرروا أن يقتلوا «عبد الله بن أبيّ»، غير أن حمية القبلية عادت للظهور على السطح ثانية، وهددت قبيلة الأوس التي ينتمي إليها ابن سلول بأن تحمي الرجل، وكادت الأمور تتطور لولا تهدئة النبي للناس.

تأخر الوحي على النبي محمد هذه المرة، المدينة على صفيح ساخن، يؤسفنا القول هنا إن شرف عائشة تعرض له بعض القريبين من أبيها وزوجها، ترديد الكلام يجري على الألسنة حتى إن علي بن أبي طالب والذي يعرف عائشة ومُقتنع ببراءتها، عرض على النبي محمد أن يتزوج من امرأة أخرى كمحاولة لإنهاء الأمر!

حتى جاء الفرج من عند الله بعد ليالٍ قاسية، قرآن فيه نبأ براءة عائشة، آيات مُريحة لنفوس تألمت من ضربات الغدر، وتطوي صفحة بائسة، وتعيد النبي محمد للتركيز في خطوته القادمة... والحاسمة.



لذة القهر

نبي العرب رجلٌ جدير بالدراسة، حريٌّ بأن نتعامل مع مواقفه وخطواته بشكل أكثر قربًا وعُمقًا...

لا مجاملة هنا أو محاباة، حتى نحن كأتباع له ومؤمنين برسالته بحاجة ماسّة إلى فهم استراتيجيات الرجل، وفلسفته، وطريقة تعامله مع الأحداث والمواقف.

توجيهاته وأحاديثه ومواقفه التي نحفظها تبركًا تنادينا في كل آن وحين أنْ نقترب أكثر، نفهم كيف يمكن أن نتعامل مع حياة لا تعطينا ما نتمنى، بل تنحاز إلى الاستحقاق مدفوع الثمن.

ولقد دفع النبي ثمنًا باهظًا وكبيرًا كي يصل إلى ما وصل إليه...

البعض ـ بحسن نية ـ يرى في كل خطوات النبي دعمًا سماويًّا، وأن وسمه

بالعبقرية فيه خصم من رصيد الرسالة، بمعنى أنه كان نبيًّا رسولًا يوحَى إليه وفقط.

وهذا ظُلم للرجل لا يرضاه الله! ذلك أن النبي، وطوال حياته كان حريصًا على تثبيت مناهج في التعامل، ووضع أسس ونظريات تلائم أحوال البشر.

رفض بشدة أن يتم إطراؤه بشكل مبالغ، مع التأكيد أنه بشر نبي، بشر في كونه واعيًا بطبائع الناس وأحوالهم وما يطيقون، مُتفهم للطبيعة الإنسانية بضعفها ونزقها وأحوالها، وهو نبي يحمل رسالة وفكرة ودينًا من الله رب العالمين.

ولو لم نعِ هذا فسنخسر كثيرًا؛ ذلك أن مسيرة النبي محمد تعلمنا كيف يرتبط التاريخ بالحركة، حركة الفرد والجماعة، وأن النصر في الحياة هو تفاعل بين الإرادة العليا، والإنسان، والطبيعة القائمة ـ بما فيها الزمن ـ وكيف أن الله بقدرته اللامحدودة لا يتدخل في حركة الأرض إلا بمقدار يسمح بتوفر العدل التام والشامل لعباده، كي تصبح السنن والقوانين هي الشغل الشاغل لمن أراد سعيًا في الأرض، وتغييرًا في حركة التاريخ.

ولو كان لي أن أقف على مَعْلم مهمّ ومحوري في شخصية النبي محمد في ما يختص بتسويق دعوته وإنجاحها لقلت بأنها تكمن في قدرة الرجل الفذة على تحوله من رد الفعل إلى الفعل، وعبقريته الاستثنائية في تشكيل الواقع بدلًا من التعامل مع الأبجديات القائمة.

يطيب لكثير من أتباع الرجل أن يروا في فترة مكوثه في مكة «ثلاثة عشر عامًا» أنها كانت فترة ابتلاء مستمر وضعف واستكانة، وهذا تفكير سطحي مدهش!

النبي محمد كان فاعلًا طوال الوقت، حتى في فترته المكية كان قادرًا على صنع أمر واقع وإجبار الخصوم على التعامل به!

نعم كانت لقريش اليد العليا في ما يختص بالقوة، غير أنها بكل عنفوانها وقفت عاجزة عن محاصرة الرسالة وانتشارها، بلا شك كان النبي مضطهدًا لكنه لم يكن ضعيفًا، كان يعرف جيدًا قيمة الزمن، وأهمية الصمود، ويعمل بكل كَدٍّ وإبداع كي يُخرج دعوته من شعاب مكة المخفية إلى براح العالم الفسيح.

ينتظر بترقب موسم الحج ليرسل كلماته مع الجموع العائدة، يخرج بنفسه إلى الطائف في محاولة لكسر الجمود، يتفاوض في وقت ما، ثم هو في وقت آخر يُلقي بشروطه في وجوه زعماء قريش ويرفض التفاوض حولها!

حتى كانت النتيجة النهائية تكوُّن مجتمع في يثرب يؤمن به وينتظره كي يبدأ معه الرحلة الجديدة.

ولم يصل النبي إلى واقع يثرب بسهولة، الهجرة لم تبدأ - كفكرة على الأقل - من لحظة إعلان المسير إلى ديار الأنصار، لقد تبعتها محاولات كثيرة لخلق مجتمع

آخر بعدما رفضت مكة دعوة الإسلام بشكل قاطع، لقد بدأت الهجرة بشكل فعلي يوم خرج النبي إلى الطائف، وتم التعامل معه بشكل قاسٍ كما رأينا، غير أن النبي لم ييأس، وحاول ثانية مع قبائل أخرى «بني كندة، بني حنيفة، بني عامر بن صعصعة...»، بيد أن كل هذه المحاولات لم تأتِ بثمار، وعليه فإن التعامل حتى مع الهجرة كانتصار إلهي فقط ليس بالأمر الصحيح، الطريق لم يكن مُعبَّدًا أبدًا، هناك تفاعل إنساني لا يمكن أبدًا القفز فوقه أو تجاهله.

وعلينا أن نعي جيدًا أن الاضطهاد في حد ذاته ليس شرفًا للمُضطهِد، الشرف كله قائم على قدرة الواقع تحت الضغط في البحث عن حلول، في قدرته على استثمار الفرصة، وإلا فما أكثر المظلومين الذين تحولت نفوسهم من أثر الظُّلم فصار لديهم استمتاع بالمظلومية، وتوحُّد مع الجلاد، ورفض للحرية، وتخبط وقت النصر والتمكين!

لم يستمتع النبي يومًا بلذة القهر، ولم يعش ساعة مستكينًا أمام الظلم، روحه الرافضة كانت حاضرة على الدوام.

ولقد استثمر النبي شدائد الفترة المكية في تقوية نفوس الرعيل الأول لدعوته، وكل خطواته ومواقفه خلال هذه الفترة كانت نابعة من عقلية تؤمن بالنصر، عقلية لا تستعجل التمكين لكنها مستعدة له.

وفي المدينة يمكنك أن ترى جيدًا كيف أتاح مناخ الحرية للنبي قدرًا كبيرًا من تنفيذ مخططه، وكيف استطاع أن يتعامل مع التحديات القائمة باختلاف أشكالها وطرقها، وإن كان النصارى في أدبياتهم يرون الدين حالة من السكون والضعف، ويلتفون في خشوع حول رمزهم «الصليب» الذي يذكِّرهم بأن نبيهم قد صُلب وقُتل، وأنه ضحَّى من أجلهم وتحمَّل البؤس من أجل سعادتهم!

إلا أن النبي محمدًا له رأي آخر، إنه يرى أن العقلية المسلمة يجب أن تؤمن بالقوة، قوة الكلمة والفكر، قوة الجدال والطرح، قوة النموذج القادر على طرح حلول لمشكلات الحياة مهما كانت مُعقدة، قوة أن تكون فعلًا لا رد فعل، حتى الحرب والتسليح يؤمن النبي محمد بأهميتهما من أجل حماية الحق الذي تعتقده، لإيمانه المنطقي بأن الشر لن يقف مكتوف اليد أبدًا.

كان النبي يؤمن بحتمية البحث عن النصر، والخروج من قُمقم المظلومية الذي يطيب لأتباعه اليوم العيش فيه.

حتى بعدما انهالت عليه سهام المنافقين ونالت من عِرضه الطاهر في أثناء غزوة بني المصطلق، لم يستكن الرجل - رغم ألمه الشديد - واستطاع أن يتخطى الأزمة بمهارة شديدة، ويشغل الناس بقادم الأيام عن حاضرها، ويفاجئهم بالأفعال الحاسمة فيقتل كل آثار المحنة، وألاعيب النفاق!

ذلك أنه وبعد ما حدث في أثناء رحلة بني المُصطلق، وما تلاها من اضطراب طال المدينة، ولعب خلاله المنافقون أهم أدوارهم، خرج النبي على الناس بخبر صادم، أعاد من خلاله تركيز أذهان أتباعه على الهدف مرة ثانية، وقضى به على ما تبقى من أحاديث الفتنة، وعالج به تماسك المجتمع الذي طاله شرخ العصبية والقبلية.

قرر النبي محمد - ونحن ما زلنا في العام السادس من هجرته - أن يذهب إلى مكة ليعتمر ويطوف ويقوم بالنُّسك!

لقد رأى النبي محمد أن الحدود الشمالية والشرقية والتي تخضع لنفوذ الروم والفرس مصدر للقلق، ووارد جدًّا في أثناء انهماكه في مصادمات مع قريش والقبائل أن يأتي الخطر من بعيد، كما أن الأخبار التي تصل من خيبر تؤكد أن اليهود المجتمعين هناك يجمعون أمرهم على توجيه ضربة إلى المسلمين يستردّون بها ما ضاع منهم في المدينة، وعليه كان الرجل بحاجة إلى تأمين أكثر الجبهات المفتوحة استنزافًا لتركيز وقوة المسلمين، وبالطبع كانت قريش هذه الجبهة، سيما وأن تحييد قريش كان يعني تحييد القبائل المحيطة كلها، ذلك أن القبائل الصغيرة تابعة للقوى المُحيطة، وعليه ستنضمّ هذه القبائل إلى القوى الكبرى وتتحالف معها.

ولكن كيف يصل النبي محمد إلى اتفاق مع قريش وهي المترِّسة خلف جبل من الكِبر والغطرسة سيمنعانها بلا شك من قبول أي صيغة للتفاوض...!

وعليه قرر النبي أن يذهب إليهم مُحرِمًا!

كان قراره بالنسبة إلى المسلمين عجيبًا، إنه يأمرهم بالذهاب إلى مكة من دون سلاح، حتى قال بعضهم إنه بهذا يسوقهم إلى الذبح!

خرج النبي محمد إلى مكة ومعه ألف وأربعمئة مُسلم، وفق ما ذكر البخاري وغيره، أمامهم الإبل يسوقونها للهَدْي، لا أسلحة معهم اللهمَّ إلا - كما تقتضي العادة - سيوفهم الشخصية.

الخطة التي رسمها بالغة العبقرية، ذلك أنه صَدَّر الحيرة إلى قريش، ومضى ينتظر رد الفعل!

لو سمحت له قريش بالعمرة فهو نصر كبير، واعتراف موثق به وبدينه، وستنتهي كل مسببات الحرب مع المُسلمين بطبيعة الحال.

ولو منعت قريش المسلمين من العمرة فهي بذلك ترتكب خطيئة تقترب من دائرة العار؛ رغم كل شيء هناك أعراف يجب احترامها، والكعبة بيت القبائل العربية كلها وليس لقريش حق ملكيتها، بل لا تتعدى كونها سادن البيت، ومنع أكثر من ألف معتمر هو تنكر للواجب، وعار لن تستطيع قريش تحمله!

ولم يتأخر الرد على النبي محمد كثيرًا، فما إن وصل إلى عسفان حتى لقيه بشر بن سفيان الكعبي قائلًا: يا رسول الله، هذه قريش قد علمت بمسيرك، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور ـ يقصد متأهبين للقتال ـ وقد نزلوا بذي طوى، يعاهدون الله لا تَدْخلها عليهم أبدًا.

فرد عليه النبي: ويح قريش، أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، إنْ أصابوني فإنَّ هذا ما أرادوا، وإنْ أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به.

ما زال النبي محمد مندهشًا من حال قريش، يتعجب من غباء مُستحكم في القوم، من معادلتهم الخاطئة في التعامل معه، إنهم يختارون الطريق الأصعب في التعاطي مع فكرته.

والحقيقة أن النبي محمد لم يكن يريد الحرب، لقد كان هدفه فوق هذا بكثير...

وعليه سلك الرجل طريقًا آخر لمكة غير الذي تنتظرهم فيه قريش، حتى وصل الحديبية أسفل مكة، حينها بركت ناقته، فنزل منها وقال: لا تَدْعُوني قريشٌ اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها!

وهذا التصريح تحديدًا يمكن أن ينبئنا بنية النبي وهدفه، إنه قادم لشيء غير الحرب... وفوق العمرة!

على الجانب الآخر، ما إنْ علمت قريش بتغير طريق المسلمين حتى عادت بسرعة إلى مكة، قريش تعرف جيدًا المأزق الذي وضعهم فيه النبي محمد، وعليه بدأت بمراسلته، علّها تصل معه إلى اتفاقية، تتجنب فيها الحرب وتضمن كذلك عدم وجوده ومن معه في قلب مكة!



في المبتدأ أرسلت قريش رجالًا من خزاعة، سألوه عما يريد وأجابهم أنه قد أتى للحج وتعظيم شعائر الله، فعادوا إلى قريش وأخبروهم بذلك، فثارت قريش وقالت: «وإن جاء لا يريد قتالًا، والله لا يدخلها علينا عنوة، ولا تتحدث بذلك العرب».

ومع هذا أرسلوا ثانية إلى النبي رجلًا يقال له «مكرز بن حفص» رآه النبي من بعيد وعرفه فقال لأصحابه: «هذا رجلٌ غادر»، بيد أنه جلس معه وقال له مثل ما قال لمن قبله.

وهنا قررت قريش أن تُرسل رجلًا مختلفًا فكان «حليس بن علقمة» سيد الأحباش، وأحد حلفاء قريش في حروبهم، فلما رآه النبي قال لأصحابه: «إنه من قوم يتألَّهون، فابعثوا الهَدْي في وجهه حتى يراه»، يقصد هنا أن هذا الرجل من قوم يحترم العبادة الظاهرة، ورؤيته للإبل التي جهَّزها المسلمون للهَدْي سيكون لها عامل مهم في التفاوض والإقناع!

وهو ما كان فعلًا، اكتفى الرجل بالنظر إلى الهَدْي عن المحادثة، وعاد إلى قريش منبهرًا بما رأى، مؤكدًا حق النبي في الطواف حول البيت وإقامة شعائره، فأُسقط في يد قريش وقالت له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك!

وهنا غضب الرجل، وهددهم إن وقفوا في طريق أداء الرجل للحج، أن يقف الأحباش مع المسلمين، ويحاربوا قريش!

مع الوقت بدأت قريش تستوعب حجم المأزق الذي تم إيقاعهم فيه، الرجل قادر على الفوز عليهم حتى وهو جالس بملابس إحرامه، يدير الأمر بذكاء وحنكة بشكل مرهق ومزعج لنفوسهم المرتبكة.

مرة أخرى عادوا وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي، وهو رجل عنيف، دخل على النبي مهدِّدًا، فقام المسلمون حول نبيهم وعيونهم تبرق في حزم، حتى إن المُغيرة بن شُعبة هدده إنْ هو تجاوز حده.

بيد أن النبي كان هادئ النفس، وكرر عليه ما قاله بأنه قادم لزيارة البيت الحرام، ثم العودة لدياره في المدينة.

عاد عروة إلى قريش منبهرًا بمكانة النبي بين أصحابه قائلًا: «يا معشر قريش، إني قد جئت إلى كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط، مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يُسْلِمونه لشيء أبدًا، فانظروا أمركم».

بعد ذلك أرسلت قريش، في موقفٍ صبيانيٍّ، بعض الفرسان ليرموا جماعة المسلمين بالنِّبال، فأَسَرَهم المسلمون وأرسلوهم إلى النبي، فعفا عنهم تأكيدًا لنياته الحسنة، وحرصه على تجنب العداوة.

وهنا قرر النبي أن يرسل رسولًا إلى قريش، اختار في البداية عمر بن الخطاب، غير أن وجهة نظر عمر كانت قائمة على أن مواصفات الرسول ليست فيه في هذا الموقف، ذلك لعداوته العنيفة مع قريش سابقًا، وعدم وجود مَنَعَة أو قبيلة هناك توفِّر له حماية، وأشار على النبي بأن يُرسل عثمان بن عفان، فهو من ناحية رجل هادئ لا يحب التصادم، ومن ناحية أخرى فإنه.أموي له عُصبة وقبيلة تحميه*.

وبالفعل توجه عثمان إلى أبي سفيان وكُبَرَاء قريش وأبلغهم بنية المسلمين، فرحبوا به وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت فرفض أن يطوف قبل أن يطوف رسول الله.

قررت قريش أن تستبقي عثمان بينهم لبعض الوقت بحجة التشاور - ويقال إنها اعتقلته بعدما ثبت تواصله مع بعض المسلمين الذين حبستهم قريش في مكة - وعندما غاب عثمان ظن المسلمون أن شرًّا قد لحق به، فهاجت النفوس، وبدا كأن الحرب على الأبواب.

* في رواية للطبري أن النبي أرسل ابتداءً خراشة بن أُميَّة الخزاعي كرسول منه لقريش، بيد أنه طورد من قِبل بعض فرسان قريش فعاد النبي ثانية، فأرسل عثمان

وبالفعل، بدأ النبي بالتجهز لحرب لم يُرِدْها أبدًا...

عاهد النبي أصحابه على القتال، وبايعهم عليه، وبدأ بعض الفرسان فعليًّا في التجهز واستبدال بلباس الإحرام ملابس القتال، وكادت طبول الحرب ترتفع عاليًا لولا عودة عثمان إليهم، والذي يبدو أن قريش أرسلته بعدما علمت أن حبسه لديهم ربما يأتي بشرٍّ لهم.

ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو إلى النبي، غير أنها في هذا المرة أرسلته بمطالب وشروط ومساحة للتفاوض.

وفعلًا، جلس سهيل مع النبي محمد وعرض عليه أمورًا أهمها ألا يحج في عامه هذا على أن يعود العام المُقبل!

وهو الشرط الذي قابله عموم المسلمين بالرفض، غير أن النبي محمد كان له رأي آخر...

انتهى التفاوض على ما يلي:

أولًا، لا يزور المسلمون البيت حاجِّين هذا العام.

ثانيًا، هدنة بين المسلمين وقريش مدتها عشرة أعوام.

ثالثًا، مَن خرج من مكة إلى المدينة مسلمًا بغير إذن وليِّه، يرده المسلمون إلى قريش، بينما من رجع إلى قريش مرتدًّا عن الإسلام لا يحق للمسلمين المطالبة به.

رابعًا، من أراد أن يدخل في حلف مع المسلمين دخل بشرط الالتزام بالاتفاق، ومن أراد أن يحالف قريش فليحالفهم شريطة أن يلتزم كذلك بالاتفاق المبرم بينهما.

وما إن تم الاتفاق الشفوي حتى خيَّم الإحباط على المسلمين، شوقهم للعودة إلى مكة كان كبيرًا، كما أن قوتهم كانت تعطيهم شعورًا بالعِزة لا يتماشى مع الاتفاق الذي رأوه يحمل ظُلمًا لجانبهم.

لم يفهم غالب المسلمين هدف النبي، ولا سبب قبوله بهذه الشروط، ولا سيما أن النبي لم يشاور أحدًا فيها على غير عادته، بل أخذ القرار منفردًا دون شرح أو تبرير، حتى إن عمر بن الخطاب ناقش النبي مؤكدًا عدم فهمه لما حدث، وكان رد النبي مقتضبًا، مؤكدًا له أن هذا الاتفاق بالتحديد كان إلهامًا من ربه، وأنه يثق بوعد ربه وأنه لن يضيّعه.

وفي أثناء كتابة الاتفاق كانت هناك مناوشات، حيث رفض سهيل أن يبدأ الكتاب بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» ورأى أن تُستبدل بها عبارة «باسمك اللهم» حيث العبارة الأولى غريبة على أدبيات العرب، فوافق النبي، ثم اعترض ثانية على عبارة «هذا ما تصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» وقال له إن عبارة محمد رسول الله مُصادِرة على المطلوب، وأنه لو كان نبي الله ما حاربته قريش، فوافق كذلك النبي.

كل هذا والمسلمون ينظرون بأسى وحزن وإحباط، غير أن الأكثر ألمًا لم يأتِ بعد!

ذلك أنه وقبل التوقيع على العقد حدث موقف كان له بالغ الأثر في زيادة حزن المسلمين وأساهم من عقد هذا الاتفاق، حيث فوجئوا بدخول أبو جندل بن عمرو بن سهيل عليهم شاهرًا إسلامه!

ولك أن تتخيل حجم المفاجأة، ابن الرجل الذي يُمثل قريش في المفاوضات قد أتى لينضم إلى جانب المسلمين...

في هذا اللحظة قام عمرو بن سهيل وطلب من النبي أن يُسلمه ابنه بناءً على الاتفاق الذي بينهم، وعندما ناقشه النبي أنهم لم يوقِّعوا على الاتفاق بعد، قرر سهيل غاضبًا أنه إما تسليم ابنه إليه وإما لا اتفاق بينهما.

حاول النبي أن يتحدث معه أن يجيزه له، كنوع من الاستثناء فكان رفض الرجل أشد.

هال أبو جندل ما يراه، فلم يظن الرجل أبدًا أن نهاية رحلته ووصوله إلى المسلمين ستكون خاتمتها أن يعيدوه بأيديهم إلى الأرض التي هرب منها، صرخ فيهم: «يا معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلمًا، ألا ترون إلى ما قد لقيت؟!».

كانت كلمات أبو جندل تنزل كأنها سياط على قلوب المسلمين، الذين كظموا غيظ قلوبهم احترامًا لنبيهم، وتابعوا بأسى وحزن عودة الرجل مكبلًا إلى سهيل ومن معه.

غير أن النبي قال له مودِّعًا: «اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم».

اعترض عمر ثانية على ما يحدث، مذكِّرًا النبي أنه وعدهم بالعمرة، فرد عليه النبي أنَّ في قادم الأيام متسعًا وليس شرطًا أن يكون هذا العام، حتى قال له عمر: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل، فلماذا نعطي الدَّنيَّة في ديننا إذن؟!».

فما زاد النبي محمد على أن قال له: «أعطيها وهو ناصري».



يرى البعض أن تنفيذ أوامر القادة والثقة بهم لا بد أن يُستتبع بضرورة الحال موافقةً على كل ما يقومون به، وترك جانب النقاش، واعتباره نوعًا من الجدال الفارغ، وملمحًا من ملامح التمرد المرفوض.

ولا يفهم هؤلاء أن القائد الحقيقي يؤمن بحق أتباعه في مناقشته، وأن يكون لهم

رأيهم الخاص، شريطة أن يكون هناك حدّ يلزم فيه كل شخص حدود موقعه.

لهذا لم يُنكر النبي على أتباعه عدم فهمهم لما فعله، لم ينزعج من رأيهم الرافض لبنود العقد، حتى إنهم حينما شككوا في نية قريش الالتزام بالعهد قال لهم في هدوء: «وفُّوا لهم، واستعينوا الله تعالى عليهم».

الشيء الوحيد الذي أحزنه أنهم لم يسارعوا بتنفيذ أوامره بالتحلل من ملابس الإحرام والعودة للمدينة مرة ثانية.

وحزنه هنا كان نابعًا من فكرة أن الاتفاق قد تم، ويجب أن يتم التغلب على المشاعر الخاصة بسرعة ومن ثم العودة إلى المدينة والتجهز لما هو قادم.

ولذلك عندما طلب منهم النبي أن يحلقوا رؤوسهم ويخلعوا ملابس الإحرام، نظر بعضهم إلى بعض في وجوم، كل واحد منهم ينتظر أن يبدأ صاحبه بأخذ هذه الخطوة القاسية، الخطوة التي تعني أن حلمهم الجميل بزيارة مكة والطواف أصبحت غير ممكنة في هذا العام.

وعليه دخل النبي حزينًا لخيمته، وحين رأته زوجته أم سلمة ـ وكانت تصحبه هذه المرة ـ وعلمت بما حدث قالت له: «يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلِّم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلق لك».

ونفَّذ النبي اقتراح زوجته، فما إن رآه أصحابه حتى قاموا من فورهم يفعلون مثله!

الروايات تؤكد أن القوم كان يجرح بعضهم بعضًا في أثناء الحلاقة من أثر الحزن الذي سكنهم، حزن عدم العمرة، وحزن عدم تنفيذ أوامر نبيهم بسرعة...

ولا عتب على القوم، فما قام به النبي محمد من قبول لشروط العقد كان محيرًا بحق، ولقد أثبتت الأيام أن ما حدث كان فتحًا من الله على ما به من إجحاف ظاهر...

ولو تجمع أهل الرأي والخبرة ليتدارسوا بنود العقد إسقاطًا على الحال القائم، وما تبعه من مكاسب عظيمة لجانب المسلمين، لتحيروا وشهدوا بأن هذا الرجل لو لم يكن نبيًا، لكان أعظم رجالات الدنيا وأذكى زعمائها.



الحصاد

طوال الوقت كانت دوافع النبي محمد في الحفاظ على بقاء قريش متماسكة أكبر من رغبة قريش نفسها!

لقد بدأ النبي دعوته بكل هدوء، طلب من قريش أن تنضم إليه فأبت، طالبها أن تخلِّي بينه وبين الناس فرفضت، حاول أن يحمي أصحابه منها فلاحقتهم بالتعذيب والمطاردة...

تحمَّل الرجل حتى ذهب إلى المدينة وبدأ نشاطه بشكل أكثر حرية، وقرر أن يمارس ضغطه على قريش حتى استطاع أن يقتنص منهم اعترافًا به وبدينه، ويصل إلى اتفاق بوقف الحرب بينهم.

ولو كان لحظِّ نفسه منه نصيب لَطَاوع مشاعر الثأر التي لطالما أطاحت بعقول

قادة وزعماء، ولَقَرَّر ـ سيما بعد غزوة الأحزاب ـ أن يواصل الضربات على القوم حتى ينتهي منهم، غير أن النبي كان يعرف جيدًا أن تماسك قريش هدف يجب الحفاظ عليه حتى يأتي الوقت المناسب، تأتي اللحظة التي تنضم فيها البلدة إلى جانب المسلمين بشكل يحفظ لها مكانتها بين العرب، ليس من مصلحة أحد أن تُهان قريش في الجملة، واستثمار القيادات التاريخية ـ حتى وإن كان هدفًا بعيدًا ـ أفضل بكثير من الإطاحة بها وإهانتها!

لقد كان النبي محمد قائدًا له ثِقله في تدابير الحرب والمواجهات المسلحة، بيد أنه كان عبقريًا فريدًا في قراءة النفوس، ودراسة الواقع، فتح الله عليه من الحكمة ما جعله قادرًا على رؤية أقصر الطرق لغايته وأفضلها، وأقلها مؤنة، وأعظمها نفعًا، والتي كان منها تحييد قريش في هذا الوقت مع امتلاك اعتراف رسمي منها بوجوده وقوته.

وعليه، بعدما اطمأن إلى أن خصمه الأول «قريش» قد خرج من المعادلة، حتى توسع في نشر رسالته، ولقد أكد المؤرخون أن عدد من أسلم خلال عامين بعد الصُّلح يزيد على عدد المسلمين الذي أسلموا في تسعة عشر عامًا كاملة!

حتى الشرط الذي أزعج المسلمين في بنود المصالحة الخاص بعودة مَن أسلم من قريش، لم يتم العمل به إلا قليلًا، قبل أن تتوسل قريش للنبي محمد أن يلغيه!

شروط الاتفاق كان بها تأجيل العمرة عامًا، وهذا على صعوبته ـ عاطفيًّا ـ إلا أنه أمام قرار الهدنة يُعد مكسبًا.

ومن الشروط أنَّ من جاء إلى قريش من المسلمين لا يردّونه لهم ثانية، وهذا أيضًا شيء مقبول، إذ ما حاجة المسلمين إلى رجل مُضطر إلى إظهار إيمانه نظرًا إلى عدم وجود بيئة تقبله! فليذهب إلى أي مكان أراده، ولا حاجة للمسلمين إليه.

أما الشرط المزعج لأصحاب النبي فكان عدم قبول المسلمين أشخاصًا من قريش قرروا أن يُسلموا، ورأى المسلمون حينها أن هذا الشرط يعد تخليًا عن إخوانهم في مكة ممن اهتدوا إلى الإسلام.

وفي ظني أن النبي محمد كان يرى الأمر بشكل مختلف، يعتمد بشكل مهمّ على خططه التي وضعها، ورؤيته التي يمضي وفقها، ربما كان يرى أن وجود مسلمين متخفِّين في مكة سيكون بمثابة قنبلة موقوتة مستقبلًا، ربما كان يرى أن قريش لن تحافظ على اتفاقها وسيتم دخول مكة ورفع الظُّلم عن الساكنين فيها، أو ربما كان يرى ـ بعين بصيرته أو بوحي ربه ـ ما حدث بعد ذلك من أبي بصير!

أبو بصير أحد رجالات مكة الذين أعلنوا إسلامهم، فقررت قريش أن تحبسه،

بيد أن الرجل ـ وكان ثوريًا بطبعه ـ استطاع الهرب والوصول إلى المدينة، ما إنْ وصل حتى كان في أعقابه فارسان أرسلتهما قريش ليعودا به وفقًا للاتفاق المُبرم، نظر النبي محمد إلى الرجل المُضطهد وقال له: «يا أبا بصير، إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا».

حاول الرجل أن يثني النبي عن قرار تسليمه بقوله: «يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني»، فقال له النبي مكررًا جُملة بعينها: «يا أبا بصير، انطلق، فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا».

وعليه، تم تسليم الرجل إلى الفارسين، بيد أن الرجل استطاع أن يخدع مرافقيه، ويقتل واحدًا منهم، بينما فر الآخر هلعًا إلى المدينة، يُخبر نبي المسلمين أن رجله قد فعل ما فعل.

وبينما هو يحكي للنبي ما حدث، إذ بأبي بصير يدخل عليهم شاهرًا سيفه، ناظرًا إلى نبيه قائلًا: «يا رسول الله، قد وفيت ذمتك، وأدَّى الله عنك، أسلمتني ليد القوم، وقد امتنعت بديني أن أُفتن أو يُعبث بي».

فنظر إليه النبي، ثم قال لمن حوله: «ويل أمه مُسعر حرب لو كان معه رجال».

خرج أبو بصير ومعه سيفه حتى وصل إلى مكان على شاطئ البحر الأحمر يسمى

«سيف البحر» فاتخذه مأوى له، وما إن علم المسلمون والمستضعفون في مكة بنبأه حتى ذهبوا إليه ومنهم أبو جندل الذي جاء خبره في أثناء توقيع المعاهدة، ولأن موقعهم كان قريبًا من طريق القوافل فلقد عملوا على إزعاج قبائل قريش والتعرض لها، ولقد أُسقط في يد قريش، لقد ظنت بعد الهدنة أن حركة التجارة ستمضي في أمان، وها قد ظهر خطر جديد يهددها، فلم تجد بدًّا من الذهاب إلى النبي محمد والتوسل إليه أن يضم هؤلاء القوم إلى رجاله في المدينة!

وبالفعل أرسل إليهم النبي فأتوه جميعًا اللهمَّ إلا قائدهم أبي بصير الذي جاءه خطاب النبي وهو على فراش الموت.

جاء الجيش الصغير الذي أقلق قريش فوجدوا المدينة في انتظارهم، وابتسامة النبي الهادئة تستقبلهم، فأدركوا معنى العبارة التي لطالما رددها على آذانهم وكانوا يظنونها تسلية لهم وعزاء: «إن الله سيجعل للمستضعفين مخرجًا».

ويترك الأسئلة الحائرة تجري في الأذهان حتى اليوم، أسئلة عن استطاعة الرجل قراءة الواقع بهذه الدقة، والنظر إلى المستقبل، وقدرته على جعل غالب خطواته في دائرة الفعل، وكيف استطاع أن يقلب الطاولة على رؤوس متكبِّري مكة وتحويل كل قرار حسبوه انتصارًا لهم إلى نصر ساحق له.

وستظل الأسئلة حائرة والدهشة قائمة حتى نؤمن بأنه نبي من عند الله، أعطاه

ربه بصيرة واتزانًا وفهمًا لنتعلم ونعي، وندرك كيف يكون النصر هو الهدف، نصر يحمل كل أدوات التخطيط، وليست به شبهة غدر أو خيانة.



في العام السادس من الهجرة تم كل هذا النجاح...

لِنَحْفَظ هذه جيدًا، لا يوجد في أدبيات نبي المسلمين ما تُسمى الفرصة الضائعة!

على العكس، هناك نجاحات تتحقق من أنصاف الفرص، وأرباعها!

تسعة عشر عامًا منذ قال كلمته الأولى على جبل الصفا معلنًا أنه رسول الله، عقدان إلا عامًا قبل أن ينال الاعتراف الرسمي من قريش بأن يتيم بني هاشم وأتباعه قوة لا يُستهان بها، وقبل أن تلتحم حبات العِقد الثاني لدعوته كانت رُسل الرجل تطير لتبلغ رسالة ربه إلى القوى العُظمى في الدنيا.

ففي ذي الحجة سنة ستة أرسل النبي نفرًا ومعهم حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وبعث شجاع بن وهب إلى الحارث بن شمر الغساني ملك عرب النصارى، ورهينة بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم.

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس، وسليط بن عمرو الضمري إلى النجاشي ملك النصارى بالحبشة.

في نفس العام ـ وإن كان الواقدي يؤكد أنها كانت في السنة السابعة ـ توجه النبي إلى خيبر حيث اجتمعت اليهود.

الأخبار المتواترة تؤكد أن اليهود الذين يجتمعون بخيبر بينهم وبين غطفان اتفاق على حرب المسلمين، كما أن جهدهم في تأليب قبائل الشام على النبي محمد وأتباعه كان كبيرًا، فخرج النبي بجيشه البالغ ألف وستمئة مقاتل حتى هبط واديًا يقال له الرجيع يفصل بين خيبر وغطفان حتى يباعد بين اجتماعهم، ثم بعث علي بن أبي طالب بعدما أعطاه راية المسلمين وقال له: «انفذ على رِسْلِكَ حتى تنزل ساحتهم ثم ادْعُهُم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النعم».

دخل جيش المسلمين خيبر ومعهم النبي، وعلي بن أبي طالب يرفع الراية ويتقدم الجيش، وكانت خيبر مجموعة من الحصون، فبدأ المسلمون في التقدم وإسقاط حصن بعد آخر، كلما فتح المسلمون حصنًا فَرّ من فيه إلى الحصن الذي يليه.

لم تكن الأمور يسيرة على جيش المسلمين، بل يمكننا القول إن هذه المعركة كانت أكثر المعارك التي خاضها المسلمون بأسًا، فتترُّس اليهود في الحصون وعدم مواجهتم للمسلمين مباشرةً كان مُنهكًا مع شح الزاد الذي قَلّ مع طول الوقت، غير أن عزم المسلمين كان شديدًا، وإصرارهم على طرد اليهود من شبه الجزيرة كان حاسمًا.

مشكلة اليهود مع المسلمين أنهم مصدر للقلق الدائم، خصم خبيث متجهز دائمًا لأي دائرة على المسلمين كي ينقضوا عليهم، النبي محمد ما كان أبدًا لينتظر حتى يجد القوم على أبواب مدينته، سيما وأن التجربة أثبتت أنه حتى المُعاهدات لم تكن ذات قيمة في التعامل مع أناسِ الغدر والخسة جزء أصيل من تكوينهم النفسي.

وعليه واصل النبي وفرسانه مطاردة اليهود من حصن إلى آخر، ولك أن تعلم أن حصار الحصن الواحد كان يستمر لبالي طويلة قد تبلغ الأربع عشرة، حتى أيقن اليهود أن المسلمين لن يعودوا فقرروا الصلح.

وبالفعل كان الاتفاق على أن يخرج اليهود جميعهم من خيبر، وأن يتركوا الحصون بما فيها، بيد أن المزارعين من اليهود طلبوا من النبي أن يظلوا في الأرض يزرعونها على أن يقتسموا مع المسلمين خراجها، فوافق النبي على ذلك.

وبهذا انتهى مُقام اليهود بشبه الجزيرة اللهمَّ إلا بعضًا منهم «يهود فدك» و«يهود تيماء» حيث صالحوا النبي، ولم يَثبت عليهم غدر.

وبعد خيبر وجد النبي نفسه مأمون الجانب، حيث تم تحييد قريش، والقضاء على الخطر اليهودي، فقضى ستة أشهر في المدينة منتظرًا شهر «ذي القعدة» والذي وفقًا لمعاهدة الحديبية هو موعده لزيارة البيت الحرام.

وخلال هذه الشهور «من فتح خيبر إلى دخول مكة» اقتصر الأمر ـ عسكريًا ـ على إرسال سرايا صغيرة حول المدينة، لفرض سيطرته الكاملة على حدود دولته، أو لتأديب بعض القبائل التي ما زال شيطانها حاضرًا.



مكة

مر عام مذ رجع المسلمون عن تأدية عمرتهم...

وها قد آن أوان «عُمرة القضاء» كما سمّاها النبي، نظرًا إلى كونها قضاء عن عمرة سابقة تم حبسه ومن معه عنها، لذا أمر النبي بأن يكون على رأس المعتمرين كل من كان حاضرًا العام الماضي، مع فتح الباب لأي شخص أراد الاعتمار وزيارة البيت.

مضى النبي إلى مكة ومعه أصحابه أمامهم الهَدْي من الإبل - وبعض البقر - غير أن النبي قرر أن يسبقه محمد بن سلمة ومعه خيل وسلاح كثير، ويقف عند منطقة تسمى «مر الظهران»، وبالفعل مضى الرجل بجيشه حتى قابل بعضًا من قريش والذين روَّعهم منظر السلاح الكثير، فأُسقط في يدهم، ومضوا في هلع إلى مكة لينقلوا الخبر إلى قريش.

بدورها فزعت قريش، وقالت تحدِّث نفسها: «ما أحدثنا حدثًا، وإنَّا على كتابنا وعهدنا، ففيمَ يغزونا محمد؟!».

وبعثوا من فورهم بمكرز بن حفص ومعه نفر منهم، حتى لقوا النبي، وقالوا له: «يا مُحمد، ما عُرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر؟!».

فلم يزد النبي إلا أن شدد على أنه لن يدخل بالسلاح...

دروس الماضي واضحة أمام نبي المسلمين؛ قُريش وإن كانت حتى اللحظة على عهدها، إلا أن قلوب بعض رجالها مثل عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُميَّة وغيرهما ممن لهم ثأر مع المسلمين ليس لها مأمن، لذا أراد النبي محمد أن يخبر قريش بأنه جاء مُعتمرًا، غير أن السيف حاضر على أطراف مكة، فإما وفاءً من كلا الجانبين، وإما فالبدائل حاضرة!

وعليه خرجت قريش - إلا بعضًا منهم بقوا في دار الندوة - على رؤوس الجبال تاركة مكة للمسلمين، لا يريدون أن يروا بأعينهم مُحمدًا وأتباعه وهم يطوفون بالبيت بعدما كانوا في ما مضى يدارون إيمانهم في قلوبهم.

صعب على أبي سفيان ومن معه من بطون قريش أن يشهدوا وقوف بلال أعلى الكعبة يؤذن بأذان المسلمين، وبالفعل ما إن ارتقى بلال الكعبة وأذن بصلاة

الظهر حتى قال عكرمة وقد كان حاضرًا في دار الندوة: «لقد أكرم الله أبا الحكم إذ لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول»، ورد عليه صفوان وكان جليسه: «وأكرم الله أبي كذلك فلم يشهد هذا اليوم».

وأقام النبي في مكة ثلاثة أيام وفق ما هو متفق عليه، وحينما أراد أن يقيم مأدبة ويدعو إليها قريش، رفض أهل البلدة وصمموا أن يخرج النبي منها، إذ انقضت الأيام الثلاثة.

وبالفعل خرج النبي عائدًا إلى مدينته، بعدما ترك أثرًا بالغًا في قريش، وغيَّر حسابات أهلها تجاهه، وترك في النفوس الحائرة جوابًا عن المُستقبل...

لقد فهم الجميع أن المستقبل لهذا الرجل، ولهذا الدين، ولهؤلاء الأتباع...

وعليه، لم يمضِ وقت طويل، حتى جاء أهم فرسان قريش مُسلمًا... خالد بن الوليد.



سياسة الرجال

أن تنتمي إلى دولة عُظمى لها جيش ومكانة وتصبح بعدها قائدًا كبيرًا، فهذا أمر ليس به عجب.

وقد نُعجب بالهمة، أو الذكاء، أو الطموح، فنذكر نابليون، ومونتجمري، وتشرشل، غير أن إعجابنا لن يتخطى حدود الدهشة ولن يدخل في باب العجب.

أما أن تُولَد في مجتمع لا يعرف الجيوش النظامية، ولا الحروب الكبرى، ولا يفهم شيئًا عن التخطيط والتدبير الحربي، ثم تنطلق لتراوغ، وتقاتل، وتصنع من حياتك سلسلة انتصارات مستمرة، وعلى قوى عُظمى، فهذا العجب كله، والدهشة في أبلغ صورها.

ولقد وُلد خالد بن الوليد في قريش حيث التجارة سمة أهلها، لكنه لم يرَ في نفسه إلا سمات الفارس، كان سيفه يسكن عقله، وعقله على ذبابة سيفه، وروحه بين قبضته، لا يضرب إلا بعدما يفكر، ولا يُفكر إلا في كيف يضرب! أذاق المسلمين ألمًا في أُحد، ولولاه لكانت قريش خبرًا بعد عين، ووقف كذلك متأهبًا في انتظار فشل المفاوضات في أثناء الحديبية، متجهزًا بجيشه كي يوقف المسلمين من بلوغ البيت الحرام.

ولقد عرفه النبي محمد جيدًا، عرف مقامه وقيمته وقدره، عرف حديث نفسه، وانفلات خلجاته، إن الرجل الذي حيَّر قريش في تخطيطه وعبقريته قد أُعجب بخالد، وتعجب من أن يكون هذا الفارس الطموح لم يهتدِ إلى الجانب الأفضل بعد!

لقد كان خالد بن الوليد تحت رادار النبي محمد طوال الوقت، وقد يحدث أن يُعجب المرء بذكاء خصمه وشجاعته، فما بالك لو كان هذا الشخص نبيًّا يعرف أقدار الرجال، ويحزن من أن تذهب العبقرية بصاحبها إلى المعسكر الخطأ، وتوظَّف في ضرب الحق بدلًا من دعمه والوقوف معه.

وعليه كان النبي يسأل الوليد بن الوليد عن أخيه، ويرسل بشكل غير مباشر رسائل طمأنة إلى خالد، حتى إنه في أثناء دخوله مكة قال للوليد: «لو جاء خالد... لقدمناه!».

بيد أن خالد لم يستطع أن يشاهد دخول المسلمين مكة، لم تكن دوافع خروجه بعيدًا محصورة فقط في الغيظ أو الحنق من مشهد المسلمين وهم يدخلون البلدة مطمئنين، وإنما غلبته الحيرة، وأضناه عدم الاطمئنان إلى الجانب الذي يميل إليه.

خالد له عقل، ولطالما أرهقه عقله بالتفكير، حتى فكر في أن يذهب إلى الحبشة أو الروم، ويعتزل القتال الدائر بين قريش والمسلمين، ذلك أنه لم يكن مُطمئنًا إلى صواب إدارة قريش لأزمتها مع محمد، كما أن هناك حواجز نفسية تمنعه من أن ينضم لجيش المسلمين، فالقادة لا يغيِّرون وجهتهم سريعًا، وكثيرًا ما تكون لهم حساباتهم الخاصة.

في أثناء العُمرة بحث الوليد بن الوليد عن أخيه خالد، كانت كلمات النبي محمد قد شجعته أن يفاتح خالد في أمر الإسلام، ومعه ما يُشبه التوصية، بأن دخول فارس قريش في الإسلام لن يمنعه مكانته كقائد، وإنما سيتم تقديمه إلى المكانة التي يستحقها، وعندما علم الوليد أن خالد ليس في مكة ترك له رسالة مكتوبًا فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني لم أرَ أعجب من ذهاب عقلك عن الإسلام، ومثلُ الإسلام ما جهله أحد، وقد سألني

رسول الله ﷺ عنك، قال: أين خالد؟ قلت له: يأتي به الله تعالى، فقال: ما مثله يجهل الإسلام، ولو جعل نكايته مع المسلمين لكان خيراً له، ولقدَّمناه على غيره، فاستدرِكْ يا أخي ما قد فاتك من مَواطن صالحة».

وكانت هذه الرسالة هي كلمة السر، لقد اطمأن خالد إلى أن الطريق إلى الإسلام مُعبَّد، وأن قيمته محفوظة، وطموحه مُعتبر، فقرر أن يذهب إلى نبي المسلمين، غير أنه ذهب إلى أصحابه المُقربين طمعًا في أن يذهب إلى المدينة بصحبتهم، ذهب إلى عكرمة بن أبي جهل الذي صُدم من قرار خالد، وأخبره بوضوح أنه لو أسلم أهل الأرض جميعًا لما أسلم هو، وصفوان بن أُميَّة كان له نفس الرأي الرافض، وفي أثناء تجهزه للسفر قابل صديقه عثمان بن أبي طلحة الذي طاوعه في ما ذهب إليه وصحبه إلى المدينة، وكانت المفاجأة الأهم أنهم قابلوا عمرو بن العاص وبعد نقاش علموا أنه ذاهب ليُسلم بين يدي النبي، فذهبوا جميعًا إلى المدينة!

وعندما علم النبي بمقدم القوم ابتهج، وقابل خالد مبتسماً وقال له: «الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلًا، ورجوت ألا يُسْلِمك إلا إلى الخير».

هل دخل خالد بن الوليد الإسلام من باب المصلحة؟ ربما!

ليس من وظيفتي التفتيش في النيات، بيد أن الشواهد ربما تذهب إلى هذا الاتجاه، غير أن سيرة خالد وأعماله مع المسلمين بعد ذلك تؤكد أن الرجل نفع الإسلام كثيرًا، وكانت له مواقف تدفعنا إلى الإيمان بأنه قد آمن بكلِّيته بدين الإسلام وأحبه وضحَّى من أجله.

بيد أن الأهم هنا، هو الوقوف على عبقرية النبي محمد في التعامل مع نفوس الناس، وقدرته على فهم دوافع البشر، لقد استطاع أن يكسب خالد في صفه دون حرب، وأضاف إلى جيشه قوة عسكرية كبيرة لا يجود الزمان بمثلها كثيرًا.



وصل الإسلام إلى حدود الشام، سيما وأن بها عربًا كثرًا، فهل أَمِن مَن أسلم منهم على حياته؟

للأسف ضاقت صدور النصارى بالدين الجديد، فقتل والي الشام من قبل الرومان مَن أسلم من عرب الشام رغم قلتهم، وعليه رأى النبي أن يحمي المسلمين هناك، سيما وأن الرسول الذي بعثه النبي إلى ملك الروم تم قتله بشكل مهين هو الآخر، من هنا كان يجب أن يكون هناك رد حاسم.

غير أن الروم تختلف كليًا عن كل القوى التي واجهها النبي سابقًا، نحن أمام

إمبراطورية، لديها ترسانة حربية كاملة، والاصطدام معها ليس بالأمر الهين أو اليسير.

حسابات النبي محمد كانت مختلفة، الرجل يرى أن ما يحدث يقف عقبة أمام انتشار رسالته، وقتل المسلمين في الشام فتنة لمن أراد أن يُسلم هناك، دَعْكَ من أن قتل الرسول الذي بعث به إليهم يحمل إهانة واستهانة بالغة، والمسلمون في عين أنفسهم الآن صاروا قوة لا ينبغي التعامل معها بمثل هذا الصلف والغرور.

وعليه أرسل النبي محمد ـ ونحن في جمادى الأولى من السنة الثامنة ـ جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة، هذا أكبر جيش يخرج حتى هذه الساعة.

كانت توجيهات النبي حاسمة حتى في ما يختص بالسيناريو الأسوأ وهو قتل القادة، فأمر إن قُتل زيد أن يكون الأمير جعفر بن أبي طالب، فإن قُتل تذهب القيادة إلى عبد الله بن رواحة، فإن قُتل فعلى المسلمين أن يختاروا قائدًا في ما بينهم!

مضى الجيش إلى أرض الشام، وجاءتهم الأخبار أن هرقل قائد الروم خرج لملاقاتهم في جيش تعداده مئة ألف مقاتل، وانضم إليه عدد من نصارى العرب يقترب من مئة أخرى!

بطبيعة الحال كان وقع الأمر خطيرًا على جيش المسلمين، ورأى بعضهم أن يبعثوا إلى الرسول كي يرسل إليهم مددًا أو يرى ما الذي يجب عليهم فعله، غير أن عبد الله بن رواحة رجل السيف والشِّعر وصاحب اللسان المفوّه قام فيهم خطيبًا، مؤكدًا أن العدد لن يُرهب قومًا يبغون نصرًا أو شهادة، وأن الدين الذي خرجوا من أجل إعلائه يحثهم على التقدم!

ولقد كانت لكلماته الصادقة تلك أثر السحر على الجيش، فتقدموا غير مبالين...

وعند قرية من قرى البلقاء بدأت المعركة...

كأن النبي قد تحدث بوحي من ربه حين شدد على الاهتمام بحَمَلة راية المسلمين، ذلك أن جيش الروم ذُهل من بأس المسلمين، بحسابات المنطق تُعد هذه الحرب نُزهة لجيش بني الأصفر، غير أن ما حدث كان مربكًا لهم بحق، نحن هنا لا نتحدث عن أسطورة من أساطير الرومان القديمة، نحن نتحدث عن حرب حقيقية شهدها التاريخ ووثّق أحداثها، لقد عمد جيش الروم أمام ضربات المسلمين الشديدة إلى قتل حامل الراية، ولم يكن هذا سهلًا، اختراق الجيش المسلم كان مُرهقًا أمام صمودهم غير المحسوب بالنسبة إلى الروم، وحتى عندما قُتل حامل الراية الأول زيد، تلقفها بسرعة جعفر دون أن يرتبك الجيش، وحين قُتل جعفر حملها عبد الله بن رواحة في شجاعة نادرة.

وعندما قُتل عبد الله بن رواحة تلقاها رجل يدعى ثابت بن أقرم، لكنه شعر بأنه دون المسؤولية فنادى في المسلمين أن يصطلحوا على رجل يحمل الراية، وكان خالد بن الوليد!

خالد الذي لم تمضِ على إسلامه أيام أصبح رأس الحربة في أخطر مواجهة يخوضها المسلمون! تلقى الرجل الراية بيد، وحَمَل باليد الأخرى على جيش الروم يذيقهم من علقم سيفه، ويسيل الدماء المغرورة أنهارًا لتروي الأرض تحت خيل المسلمين.

غير أن خالد كان يدرك جيدًا أن هذه حرب غير متكافئة، فقرر أن ينسحب بجيشه، ولكن الانسحاب نفسه أصعب من التقدم والصمود، أن تعطي خصمك ظهرك يعني ببساطة نهايتك.

وعليه قاتل خالد ببسالة حتى حلول الليل، وعندما هدأ الجيشان بعث خالد جماعة من فرسانه خلف المعركة، وأمرهم أن يلتحقوا بالجيش عند السَّحَر في جلبة وصراخ، ثم أصدر أوامره بأن يتغير تمركز المسلمين، فجعل الميسرة ميمنة، والميمنة ميسرة، والصدر خلفًا والخلف صدرًا!

لم يعِ جيش الروم ما حدث، كل ما دار بأذهانهم أن مددًا قد أتى إلى المسلمين، فأصابهم القلق، وتأكدت شكوكهم في الصباح إذ فوجئ فرسان الروم بوجوه غير التي رأوها بالأمس، لم يفطن أحد إلى أن هناك تدبيرًا قد جرى!

وعليه حينما أصدر خالد أوامره بالتراجع وقع في خاطر الروم أن هناك خدعة في الأمر، وإلا كيف يتراجع الجيش الصامد بعدما أتاه المدد، فكانت الأوامر من قِبل قادة الروم بعدم مطاردة المسلمين حتى لا يقعوا في الفخ المتوقع، وحدث ما أراده خالد، وعاد بجيشه سالمًا إلى النبي.

والسؤال: كم قتيلًا في جيش المسلمين بعد هذه المواجهة؟

والإجابة: اثنا عشر! منهم قادة الجيش الثلاثة، واترك لذهنك أن يتخيل كيف يمكن أن يخلِّف هذا الاصطدام الهائل هذا العدد البسيط من الشهداء!

صدِّقني سنظل حائرين طوال الوقت في فهم قدرة الإيمان في نفوس الناس، سنحتار يقينًا في إدراك حجم القوة التي يهبها صدق اليقين بدواخل المؤمنين.

عاد الجيش إلى المدينة ليصطدم بأهلها، ما حدث ليس من أدبيات الحرب لدى المسلمين، الجيش العائد في عين الناس قد فر من المعركة، لا احتفاء هنا ولا تقدير لهم، بل العار هو ما يجب أن يلاقوه، حتى إن الصبيان أخذوا يهيلون على الجيش التراب، وينادونهم: يا فرار... يا فرار!

غير أن النبي ﷺ تلقى الجيش بالترحاب، وأمر بأن يتوقف هذا الاستقبال المُهين، وقال: «بل هم كُرار بإذن الله»، كأنه يخبرهم أن ما حدث جولة وليست نهاية الحرب.

كان وجع النبي كبيرًا بمقتل أصحابه، ولا سيما جعفر بن أبي طالب، فاحتضن أبناءه، وواساهم، قبل أن ينظر إلى ما حدث ويقوم بتحليله.

وهنا نأتي لسؤال آخر: هل هُزم المسلمون؟

والإجابة يقينًا أنْ لا، لقد قُتل منهم اثنا عشر رجلًا، في مقابل قتلى كثر لم يصلنا عددهم بالتحديد، يكفي أن خالد بن الوليد يومها تكسرت في يده أكثر من تسعة سيوف، وكان مع الجيش العائد غنائم مما سقط من قتلى الروم.

لكن الشيء الأبرز من كل هذا أن هذه كانت الجولة الأولى للمسلمين خارج نطاق شبه الجزيرة العربية، لقد تم نقل المعركة إلى حدود العالمية بنجاح!



رغم كل شيء لا يعرف المسلمون ما يُسمى الانسحاب المُنتصر الذي ابتكره خالد بن الوليد، شيء من الإحباط طال نفوسهم، سيما وأن الانتصارات المستمرة جعلت قبولهم لما حدث في مؤتة شيئًا غير مستساغ، بالإضافة إلى الخوف المنطقي من أن يكون أثر هذا الانسحاب باعثًا على تشجيع القبائل على التمرد ضدهم.

وعليه قرر النبي محمد أن تتم مواجهة الأعراب الذين ساعدوا الروم في معركة مؤتة، لتأكيد قوته من جهة، ولتأديب تلك القبائل من جهة أخرى.

بعث النبي ابتداءً عمرو بن العاص - بدهائه وقوة لسانه - إلى قبائل العرب يستميلهم إلى جانب المسلمين، وعمرو لمن لا يعلم أحد أدهى دهاة العرب ومضرب الأمثال في زلابة اللسان وقوة الحُجَّة حتى قيل إن عمر بن الخطاب وجد رجلًا لا يُحسن الكلام فقال متعجبًا: «سبحان الله، خالقُ لسانِ هذا هو خالقُ لسانِ عمرو بن العاص!»، ومع هذا لم تنجح مساعي عمرو في استمالة أحد، فأرسل إلى النبي يطلب المدد، ليحارب المسلمون وحدهم أعراب الشام.

أرسل النبي جيشًا فيه عمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق وعلى رأسه عبيدة بن الجراح، فطاردوا قبائل الأعراب التي فرَّت الواحدة تلو الأخرى، فتم المراد وتسامع الناس بخبر جيش المسلمين الذي لا يتسامح مع من ينصابه العداء ويرفع عليه سيفه.



عالمية الرسالة

وفي أثناء كل ما مر بنا من أحاديث السيف والسياسة كانت رُسل النبي محمد تذهب هنا وهناك لتبلغ رسالة ربه.

ونكرر أنَّ ليت الحياة عادلة وفي الناس إنصاف، كي لا يُجبَر أصحاب الرسالات على تمهيد الأرض بالقوة دفعًا لقوى التجبر، لكنّ التمنى لن يوصلنا إلى شيء، ودفاتر التاريخ مكتوب على هوامشها حكايات لم تتم لدعوات نبيلة حاولت أن تحتمي بمثاليتها في مواجهة قوى الشر، فلم يبقَ منها إلا وجع الذكرى، وقوة العبرة.

نعود إلى النبي محمد لنرى أثر ما قام به من بعد صلح الحديبية حتى السنة الثامنة.

بعد الحديبية مباشرةً كما ذكرنا، بعث النبيُّ رُسلَه إلى بقاع الأرض، وهذا تفصيل لردود الأفعال على رسائله:

- هرقل عظيم الروم:

جاءه كتاب النبي يدعوه إلى الإسلام، وهرقل ليس مجرد ملكًا يخشى على مُلكه فحسب، وإنما عالِم له دراية بخبر النبوة، وعليه تلقى الرسالة بكثير من الجدية، وأمر بالبحث عمن يعرف النبي محمدًا بشكل شخصي، بغضٍّ النظر أكان من أتباعه أم من أعداء فكرته، وعندما بحث الجند وجدوا قافلة تجارية من قريش فأرسلوا في طلبها، وجاء القوم على رأسهم كبير قريش شخصيًّا، أبو سفيان، وكان اجتماع بين هرقل معه كُبَرَاء دولته، وأبي سفيان ومن معه، وجرى حوار مهم، بدأ بسؤال هرقل عن أكثر الناس نسبًا للنبي، فتقدم أبو سفيان، فأدناه منه ملك الروم ثم سأله عن نسب النبي محمد فأجابه بأنه ذو نسب وشرف.

فسأله: هل قال أحد بمثل قوله من قبل؟ فأجابه أنْ لا.

فسأله: هل كان من آبائه من ملك؟ فكرر أنْ لا.

فسأل عن نوعية من يتبعونه: أأشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ فأخبره أنْ ضعفاؤهم.

فسأل: هل يزيدون أم ينقصون؟ فأجابه بأنهم في ازدياد.

فكان سؤاله: هل يرتدّ منهم أحد بعد إيمانه؟ فأكد له أنْ لا.

فسأل عن أخلاقه قبل أن يظهر نبأ نبوته وهل عهد عليه أحدٌ كذبًا من قبل؟

فقال: لا.

فهل غدر من قبل؟ فكرر الرجل أنْ لا.

ثم سأل عن الحرب بينهم، فأجابه أنْ «نعم، وهي سجال بيننا وبينه».

ثم كان سؤاله عن تعاليم الرجل وما يدعو إليه، فأجاب أبو سفيان بأنه يقول لهم: «اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الأرحام».

وهنا توقف هرقل عن السؤال وبدأ في الشرح، حيث أكد أن إجابات أبي سفيان تصب كلها في صالح صدق نبوة النبي محمد، حيث الرسل يُبعثون في قوم ذوي نسب، وأنه لا يبحث عن مُلك فائت، إذ لم يكن في قومه زعماء سابقون، كما أن من لا يكذب على الناس حريٌّ بألا يكذب على الله، فضلًا عن أنه لا يغدر، ويزيد أتباعه ولا يقلون أو يتراجعون، كما أن تعاليمه توافق الفطرة السليمة ولا غضاضة عليها.

ثم قال: «فإنْ كان ما تقول حقًّا، فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم

أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه!».

بعد هذا اللقاء حاول هرقل أن يُقنع قادة الروم باتِّباع الرجل، غير أنهم رأوا في كلامه شططًا غير مقبول من زعيم إحدى أهم إمبراطوريات الأرض.

فقرر أن يتراجع عن سعيه، ويرضى بالحفاظ على وجوده كملك، سيما بعدما ظهر له أن قادته ووزراءه لن يسمحوا لأمر مثل هذا بالحدوث.

وتأكيدًا لدفع أي شبهة تجاه نياته بعدما ظهر منه ميل لتصديق نبي العرب، قرر قتل رُسل النبي محمد، وتجهيز الجيش لملاقاة المسلمين في مؤتة!

- كسرى ملك الفرس:

حمل رسالة النبي محمد إلى كسرى شجاع بن وهب، وعندما حاول الحاجب أن يأخذ منه الرسالة رفض الرجل إلا أن يسلمها لعظيم الفرس يدًا بيد، وما إن أمسك كسرى الرسالة وقرأها له ترجمانه حتى مزَّقها غاضبًا، وأرسل إلى «بازان» نائبه على اليمن أن يُرسل رجلين من عنده ليُحضرا له هذا النبي مكبلًا بالحديد!

ويبدو أن كسرى غير مدركٍ للتغيرات التي تحدث من حوله، فالرجل ما زال يتعامل مع العرب على أنهم أمة تائهة في صحراء شبه الجزيرة، ولا يعي أن هناك دولة بالمعنى الحقيقي للكلمة تتكون هناك.

طاعةً لسيده أرسل «بازان» رجلين من عنده برسالة إلى النبي محمد يأمرانه أن يذهب معهما إلى كسرى! ولقد استقبلهما النبي واستمع إليهما في هدوء وأمرهما أن يمكثا عنده ليلة قبل أن يجيبهما في الغد، وفي اليوم التالي فاجأهما النبي محمد بخبر يشبه النبوءة مفاده أن كسرى تم قتله على يد ولده «شيرويه» وأخبرهما أن يقولا لبازان على لسانه بأن الإسلام سيبلغ ما بلغ كسرى، وأنه إنْ أسلم فسيجعله كما هو حاكمًا لليمن.

وعندما عاد الرجلان إلى سيدهما وأخبراه الخبر لم يستوعب ما يحدث، حتى أتاه تأكيد لمقتل كسرى، فتيقن أنه يتعامل مع نبي وليس مُغامرًا مفتونًا، فأعلن إسلامه وهو الرجل الفارسي، وأسلم معه كثير من أبنائه وقومه، ودخلت اليمن الإسلام من أيسر باب.

- **النجاشي ملك الحبشة:**

أرسل إليه النبي برسالة مع عمرو بن أُميَّة الضمري، وكانت رسالته هيِّنة ومغلَّفة بتقدير لدور الرجل في استقبال المسلمين في أثناء محنتهم في قريش، كان النجاشي يميل إلى الإسلام أقرب إلى التصديق برسالة النبي محمد، وبالفعل أرسل إليه النجاشي رسالة يرد بها عليه ويؤكد إيمانه بنبوته وتصديقه لما يقول، ولم يُجبر النجاشي أحد على الإيمان بالإسلام من أهل الحبشة.

- **المقوقس عظيم القبط:**

وصلت رسالة النبي إلى أقباط مصر يحملها حاطب بن أبي بلتعة، دفع بها إلى المقوقس عظيم الروم، والذي دعا كُبَرَاء قومه للتشاور، وتحاور مع ابن أبي بلتعة وناقشه، ثم أرسل إلى النبي محمد برسالة وهدايا، مؤكدًا أنه كان ينتظر ظهور نبي، وإن كان يظن أنه سيخرج من الشام.

لم يرفض المقوقس ولم يؤمن، ورد على رسالة النبي ردًّا جميلًا...

وأرسل النبي كذلك رسائله إلى «المنذر بن ساوى» ملك البحرين، وكذلك «جيفر وعبد» إلى ملكَي عمان، فأسلموا جميعًا.

ولقد أرسل النبي برسائله إلى ملوك الغساسنة غير أن ردهم عليه ليس موثقًا، وكذلك أهل اليمامة.

الشاهد أن النبي وفي أثناء سعيه عسكريًّا لتعبيد الأرض تحت قدميه، كانت رسله تطير إلى الرؤساء والملوك تعرض عليهم الإسلام، وكان سفراؤه في شغل دائم يحاولون كسب أرض جديدة للدعوة، وتوسيع رقعة الإسلام بشكل هادئ، وما بين رافض ومؤمن ومتردد، نرى كيف أصبح الإسلام ونبيه حديث الدنيا، وصار العالم على مشارف الدخول إلى عصر جديد.



الهيبة

عندما تفتقر الشعوب إلى إنجازات حقيقية يلجأ قادتها إلى رفع الشعارات، وزيادة إنتاج الأغنيات الوطنية، ومحاصرتك بالإعلام، وتكثيف جرعة الشيفونية الجالبة لتعصبٍ آنيٍّ وهيبة مستعارة.

على النقيض من هذا، الشعوب صاحبة الأهداف الكبرى لا يحتاج قادتها إلا إلى شحذ الهمة، وضبط المسار، واستيعاب الطاقات الخلاقة التي تفرزها البيئة القائمة وتوظيفها في الاتجاه الصحيح.

ولقد نجح النبي محمد في توحيد عدسة المسلمين تجاه أهداف رسالته، وحافظ على هيبة أتباعه من خلال زرع العِزة فيهم، عِزة منبتها الانتماء إلى الإنسان لا الاستكبار عليه، وجعل كل فخر بالنسب والأصل والنظر من علٍ إلى خلائق الله هو من تمام دعاوى الجاهلية المقيتة.

كما جعل لرسالته هيبة عظيمة في وقت قياسي، فدين الإسلام قادرٌ على الحوار والجدال والنقاش، حاضرٌ بقوة ليتفاوض، ويقيم تحالفات، وينشغل بما هو أكثر من مطالب وأحلام أهل الصحراء. إن رُسل الدين الجديد يجوبون الدنيا، ويطرقون أبواب الملوك.

وعندما تم توقيع المعاهدة مع قريش في الحديبية تأذى كثير من المسلمين من ضياع الهيبة كما كانوا يظنون وقتها، حتى قال عمر بن الخطاب «لماذا نرضى بالدنية؟»، إنه يرى أن اتفاقية كهذه بها من الذل ما يتنافى مع ما تعلمه من الإسلام، ويضاد الصورة التي جاهد من أجل تأكيدها نبيُّه وقائده.

وأثبتت الأيام ذكاء القائد، واستيعابه لما يحدث، ووضوح هدفه ورؤيته، مع إيماننا قبل كل شيء بدعم الله وسنده وتوفيقه لنبيه ورسوله.

وقد كانت الهيبة تلك والتي رأى عمر أنها باتت على المحك باتفاق الحديبية، هي نفسها الباعث على غزو قريش، وفتح مكة، وتحقق النصر الكامل!

ذلك أن الاتفاق كان ينص على أن أي قبيلة أرادت أن تنضم لحلف المسلمين أو حلف قريش فلهم ذلك، شريطة أن يلتزموا بالاتفاق، بمعنى أنه ما دمت قد قررت أن تكون حليفًا لقريش فيجب ألا ترفع سيفك مثلًا على المسلمين أو أحد من حلفاء المسلمين.

وكانت هناك قبيلتان بينهما مناوشات وثأر دائم وهما «خزاعة» و«بنو بكر»، فقررت خزاعة أن تدخل في حلف المسلمين، بينما رأت بنو بكر أن حلف قريش أفضل لها.

وحدث أن غدرت بنو بكر بخزاعة، والمفاجأة أن قريش أمدَّتهم بالسلاح، وأن بعضًا من فرسان قريش - سيما الكارهين للمسلمين - قد حاربوا مع بني بكر وتم التعرف فعليًا على صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العُزَّى، ومكرز بن حفص.

والأدهى من كل هذا أنه وفي أثناء القتال دخل فرسان خزاعة الحرم، وصرخوا في «نوفل بن معاوية» قائد بني بكر أننا في الحرم، قالوا له «إننا في حرم إلهك» فردَّ عليهم قائلًا بوحشية وصلف: «لا إله اليوم!».

وتم رفع الأمر لنبي المسلمين، وكان على الرجل أن يستعيد الهيبة...!

وعلم أبو سفيان بأن النبي محمد قد وصله الخبر، فذهب من فوره إليه في المدينة، محاولًا منع مُصيبة يعلم جيدًا أنها تحوم على رؤوس قومه.

لم يقابل أبو سفيان أحدًا إلا ورأى في وجهه غضبًا مما حدث، أدرك الرجل أن مصير قريش بات في يد أهل المدينة وقائدهم، حاول أن يتودد إلى أبي بكر وعمر وعلي بن أبي طالب وزوجته فاطمة إلا أنهم جميعًا أخبروه بأنه لا أحد يستطيع الشفاعة أو مراجعة النبي فيما سيقرره، وأن على قريش أن تدفع ثمن الغدر.

«والله لأغزون قريش».

هكذا صرَّح النبي محمد وردَّدها ثلاثًا، ثم أمر أصحابه أن يتجهزوا لدخول مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وشدد على سِرِّية الأمر*.

بيد أن أحد المسلمين ويسمى حاطب بن أبي بلتعة قرر أن يُخبر قريش بقرار النبي وأرسل إليهم برسالة حمَّلها لامرأة وأمرها أن تخفيها فوضعتها في شعرها، وفتلت عليها ظفائرها! غير أن النبي علم بالأمر ـ وحْيًا من ربه يقينًا ـ فأرسل في طلب المرأة فارسين عظيمين وهما علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، واللذين لحقا بالمرأة واستجوباها حتى أخرجت الرسالة، وعادوا بها إلى نبيهم.

في وضع خطير كهذا وجد النبي نفسه في مواجهة حالة خيانة عظمى، فكيف تصرف؟

نظر النبي إلى حاطب بن أبي بلتعة وسأله: ما حَمَلَك على هذا؟!

فأجابه حاطب بخجل: يا رسول الله، أنا والله مؤمن بالله ورسوله، ما غيَّرت وما بدَّلت، ولكني امرؤ ليس لي في القوم أهل أو عشيرة، وكان لي بين أظهرهم وفد وأهل فصانعتهم عليه!

هذا رجل خائف، مسلم يقينًا، لكنه يخشى على أهله في مكة إن فشلت عملية

* يرى الطبري والواقدي أن النبي لم يخبر أحدًا بوجهته، حتى صاحبه المُقرب أبا بكر.

الغزو أن يتم الانتقام منهم فقرر أن يخطب ودهم بهذه الفِعلة! وهذا في شرع الدول أمر منكر غير مستساغ، وعليه رأى عمر أن يتم إعدام الرجل جرّاء فعلته، غير أن النبي محمد كان له رأي آخر، فعفا عن الرجل قائلًا لعمر: «يا عمر، لعل الله اطَّلَع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم!».

لقد تفهم النبي أنه أمام حالة ضعف إنساني، ورغم حزمه المعروف فإنه قرر أن يأخذ من ماضي الرجل لحاضره، وعفا عنه مع عِظم ذنبه، احترامًا وتقديرًا لموقف سابق ظهر له فيه حسن طويته وصدق إيمانه.

طوى النبي صفحة حاطب بن أبي بلتعة، ثم خرج بجيش يبلغ عشرة آلاف مقاتل في رمضان السنة الثامنة، حتى إذا وصل إلى منطقة يقال لها «الجُحْفَة» التقى عمَّه العباس ومعه أهله وقد حزم أمره أن يهاجر مسلمًا إلى ابن أخيه. بعض الروايات تؤكد أن العباس كان قد أسلم قبل هذا غير أنه لم يهاجر كي يُبقي على شرف السقاية بمكة في حيازة الهاشميين.

ويبدو أن العباس كان مشفقًا على قريش، إذ هاله الجيش الذي أتى به ابن أخيه فقرر أن يرسل إليهم كي يبعثوا كُبَرَاء البلدة للتفاوض، ذلك أنه رأى في دخول هذا الجيش مكة عنوة شيئًا غير سارٍّ للبلدة التي رغم كل شيء تحتل في قلبه مكانة كبيرة. خرج العباس يتجول في الصحراء علَّه يجد أحدًا من ذوي

الحاجات أو الحطابين يرسله إلى قريش كي يستدركوا أمرهم، وكانت المفاجأة أنه التقى أبا سفيان الذي كان قد خرج قَلِقًا يتلمس الأخبار، ويحاول قراءة أي بشائر تنبئ عن مستقبلهم بعد ما حدث!

بلهجة تشي بالخطورة قال العباس: «واصباح قريش، ويحك يا أبا سفيان، والله لو ظفر بك رسول الله ليضربنّ عنقك، اركب معي حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك».

وبالفعل، ركب أبو سفيان خلف العباس، ومر به على المسلمين الملتفين حول النيران يستدفئون بها دون أن يفطن أحد لهوية أبي سفيان، الوحيد الذي قام لينظر إليه كان عمر بن الخطاب، والذي ما إن رآه حتى عزم أمره على قتله، مؤكدًا أنْ لا عهد يحميه، ولا عقد اتفاق يقف دون الحيلولة بينهما.

جرى العباس وعمر كل منهما يحاول أن يصل إلى النبي محمد قبل الآخر، حتى إذا ما وقفا بين يديه، حاول عمر أن يأخذ منه تصريحًا بقتل أبي سفيان، بيد أن العباس أكد للنبي أن الرجل في جواره، وأنه أعطاه العهد والأمان، وكان أنْ فضّ النبي الاشتباك وأمر بأن ينام أبو سفيان في خيمة العباس حتى الصباح، وعندما أشرقت الشمس دخل أبو سفيان على النبي محمد، الذي ما إن رآه حتى قال له: «ألم يأن لك أن تعلم بأن لا إله إلا الله؟!».

فرد أبو سفيان: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، والله لو قد علمت أن معه إلهًا غيره، لقد أغنى عني شيئًا بعد».

فسأله النبي: «ألم يأن لك أن تعلم بأني رسول الله؟!».

فقال أبو سفيان: «أمَّا هذه والله فإنَّ في النفس منها حتى الآن شيئًا».

أبو سفيان بذكائه المعروف يحاول أن يُمسك بالعصا من المنتصف؛ يُعلن أنه ما عاد يعتقد في الأوثان، بيد أن اتِّباعه لدين الإسلام وإيمانه بنبوة محمد أمر لم يستقر في قلبه بعد.

وعليه، نهره العباس قائلًا: «ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تُضرب عنقك»!

فكان أن شهد بها أبو سفيان... وأسلم!

فالتفت العباس إلى النبي قائلًا: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا».

فقال النبي: «نعم، من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

ثم أمر النبي ألا يذهب أبو سفيان مباشرةً، وأمر أن ينتظر عند مخرج الطريق أعلى الجبل، وبالفعل وقف الرجل ليشاهد بعينه رايات الجيش تمر من أمامه،

يسأل العباس عنها ويستعلم عن أصلها، حتى بلغ انبهاره تمامه فقال للعباس: «ما لأحد بهؤلاء سبيل، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيمًا».

فابتسم العباس قائلًا: «يا أبا سفيان إنها النبوة».

فرد عليه مجيبًا: «نعم إذن».

هذا قبل أن يصرخ العباس في أبي سفيان بأن يُسرع إلى قريش ويحاول أن يبذل جهده من أجل التمهيد للتسليم، وأن يؤكد لهم بأن الكل آمِنٌ ما لم يرفع أحدهم سيفًا.

وبالفعل دخل أبو سفيان مكة وهو يصرخ فيهم: «يا معشر قريش، قد جاءكم في ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمِن، ومن أغلق عليه باب بيته فهو آمِن، ومن دخل المسجد فهو آمِن».

زلزلت الصدمة قريش، وكان على الناس أن يستعيدوا رباطة جأشهم بسرعة؛ إن مصائرهم باتت بالكلِّية في يد المسلمين، ومستقبل مكة أصبح في قبضة يتيم بني هاشم...!



المُنتصر الحكيم

مكة ترتجف بالمعنى الحرفي للكلمة...!

لم تكن كلمات أبي سفيان مُطمئنة على ما فيها من وعود، نحن رغم كل شيء في شبه جزيرة العرب، حيث لا كرامة لمهزوم، المنتصر هنا هو من يقرر ويحكم، وللنصر في هذه المنطقة نشوة لا يرويها إلا مذاق الدم.

فما بالك لو كان المنتصر هو مظلوم الأمس، وقادة جيشه لهم على رمال تلك البقعة حكايات وتاريخ...!

هل سيترك النبي محمد ثأر حمزة؟! وَهَبْ أن عظمة روحه دفعته إلى هذا، فهل سيستطيع أن يكبح جماح جيشه؟ هل يملك الرجل فعلًا القدرة على تهدئة بلال، وعمار، وصهيب، وعمر...؟!

لا إجابات هنا يمكن أن تشفي الصدر، الشيء الوحيد المتاح هو الانتظار، بكل ما فيه من توتر، وقلق، وخوف.

أبو سفيان من ناحية أخرى يحاول بجُلِّ طاقته أن يُفادي قريش الاصطدام بجيش المسلمين، حكى لهم عن الجيش الكبير القادم، يؤكد وبثقة أنه استطاع التفاوض على الاستسلام الآمن، وزوجته هند من خلفه تهيِّج الناس عليه وتسبه، رافضةً أن يتم تسليم البلدة للمسلمين.

ولنا هنا وقفة مهمة عن إسلام أبي سفيان، والذي يبدو من الأحداث أنه إسلام اضطراري، ليس فيه يقين ولا إيمان!

والواقع أن الحياة لا تفتأ تخبرنا بأن الناس تسير خلف الحق بدوافع شتى، فهناك المؤمن المُصدِّق بالكلِّية، والتابع طلبًا لمَغْنم، والثالث مَن تم تأليف قلبه بمال أو مكانة ما، ولا ننسَ الخائف الذي لا يطمئن للأيام وتقلباتها، وليس دورنا على أي حال التفتيش عن مكنونات القلب، بل نشاهد، ونُسجل، ونتتبع المواقف لاحقها وسابقها، ويكون حُكمنا في النهاية على ظاهر الأعمال، تاركين بواطنها لمن يعرف خلجات الضمائر والقلوب.

النبي محمد يعرف جيدًا أن نفوس الناس ليست سواء، هدفه في المُقام الأول نشر رسالته بأمان، وفي سبيل هذا كان يؤلِّف القلوب بشتى الطُّرق، لم يكن

حالمًا ليُطالب الناس جميعًا بأن يكونوا على يقين أبي بكر، ولا حماسة عُمر، ولا إخلاص علي، هناك من يحتاج إلى مزيد من الوقت كي يفهم، لا بأس في كل هذا، إن الرجل ليس بمسيطر على القلوب، ودوره هو البلاغ لا أكثر.

لقد قبل النبي إسلام أبي سفيان المُتعجل لعلمه أن مثل أبي سفيان ليس سهلًا عليه تغيير قِبلته بسرعة. لينخرط الرجل في جموع المسلمين إذن، ولتُشكل الأيام والمواقف روحه من جديد، سيما وأن إيمانه الحالي ـ وإن بدا للبعض مريبًا ـ إلا أن أثره في دخول مكة بسلام سيكون كبيرًا.

وهو ما حدث، تجهمه وجديته تركا أثرهما في الناس، وبعيدًا عن الخوف الفطري من الساعات القادمة إلا أن رأي القوم اجتمع على تسليم البلدة لجيش المسلمين.



ودخل المسلمون مكة...

جدية النبي محمد وحرصه دفعاه إلى التعامل مع الخطوة الأخيرة من خطته باهتمام بالغ، وعليه لم يثق كثيرًا بأن مكة أصبحت خاضعة بالفعل، ولم يطمئن بالكلّية إلى أن أبا سفيان سيمهّد له الطريق، ويُقنع الناس بالتسليم.

لذا أمر الجيش بالدخول من أربع جهات مختلفة: من الشمال الزبير بن العوام

يقود جماعة من البدو المتحالفين، ومن الجنوب خالد بن الوليد على رأس جماعة أخرى من القبائل المتحالفة، ومن الشرق المهاجرون بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، ومن الغرب الأنصار بقيادة سعد بن عبادة مع توصيات مشددة أن يتجنب الجميع رفع السيف، أو الاشتباك مهما حدث، كان هذا قبل أن يأتيه خبر بعض من فرسان قريش الذين قرروا مواجهة المسلمين.

جمع النبي الأخبار فعرف أنهم مجموعة من شباب البلدة منهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أُميَّة وسهيل بن عمرو، والذين لم يستطيعوا مشاهدة البلدة تُسلَّم إلى المسلمين، فقرروا مهاجمة أحد الأجنحة، بيد أن طالعهم كان سيئًا باختيار جناح الجنوب بقيادة خالد بن الوليد ـ صديقهم السابق ـ والذي اشتبك معهم وحدث بالفعل رمي بالنبال وسقوط قتلى، غير أن النبي أصدر أمره السريع بوقف الاشتباك، سيما وقد اطمأنّ أنها حركة عنترية لا تحمل توجهًا عامًّا من قريش، ولا تحظى بموافقة كُبَرَاء البلدة.

بيد أن الحدث الأهم كان من سعد بن عبادة حامل لواء الأنصار، وذلك أنه حين مر على أبي سفيان قال بلهجة مُنتصرة: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحلّ الحُرُمَات»، وما إن وصل الخبر إلى النبي حتى أصدر أمرًا سريعًا لعلي بن أبي طالب بأخذ اللواء من سعد بن عبادة وإعطائه لولده «قيس بن سعد بن عبادة»

ليكون مكانه على رأس الأنصار، ثم هتف بصوت عالٍ: «اليوم يوم المرحمة، اليوم تُعظَّم الحرمات».

ثم رأى أهل مكة من كانوا يسمونه - تقليلًا لشأنه - «يتيم بني هاشم» وهو يدخل البيت الحرام وسط جيشه...

على رأسه عمامة سوداء، وفي يده راية بيضاء، يقرأ من قرآن ربه ما عرفوا بعدها أنها سورة الفتح، يتلوها في هدوء متدبرًا معانيها، مُطأطئ الرأس في تواضع لخالقه الذي نصره.

كثير من الطمأنينة تبدو في وجه الرجل، والتي انتقلت رويدًا رويدًا إلى قلوب القوم تُنعش أملًا بأن النبي المُضطهد الذي رأى منهم كل سوء سيكون كريمًا معهم.

يُروى أن واحدًا من أهل قريش تقدم متحدثًا إلى النبي وقد أخذته رجفة المشهد، فابتسم له النبي في ود قائلًا: «هوِّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

أقبل أبو بكر على النبي ومعه أبوه الشيخ العجوز وقد عمي بصره، فلام عليه النبي أنْ أتعب الرجل وقال له: «هلّا تركت الشيخ في بيته، حتى آتيه».

كل هذه الإشارات البسيطة، كان لها دورها في طمأنة الناس، لقد استقام ظن

قريش بأن النبي الذي خرج من بينهم قبل عقدين من الزمان كان صادقًا حينما أخبرهم أنه يملك طموحًا أكبر مما يظنون، وأن الأمر بالنسبة إليه دين ورسالة، وليست مُلكًا ولا عصبية ولا نزوعًا للبروز وطلبًا للمكانة.

من دون إحرام طاف النبي بالكعبة وقد كان يحيط بها ستون وثلاثمئة صنم، كان يطعن الصنم بقوس يحمله في يده فيسقط على وجهه، وهو يردد: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا».

سقطت كل أصنام قريش تحت قدميه دون أن يتحرك أحد من قريش! الآلهة التي زعموا أنها كل ما لديهم، وأنهم يحاربون دفاعًا عنها تسقط في هوان وهم شهود!

هل يعني هذا شيئًا؟

إنه يعني الكثير، يعني أن هؤلاء القوم لم يحاربوا يومًا من أجل عقيدة، ولم يكن تعنُّتهم السابق وشدتهم في التعامل مع النبي وأصحابه من باب الدفاع عن آلهة يعبدونها أو يحترمونها، وإنما كانت حربًا من أجل مكانة مادية وشرف قَبَلي وحسابات المصلحة... لا أكثر.

أسقط النبي آلهتهم ثم دخل إلى الكعبة...

مر على جوانبها آمرًا بأن تُطمس الصور المنحوتة على جدرانها من الداخل،

وأغلق الباب عليه وقد كان معه أسامة وبلال، فطاف في جنباتها مُكبِّرًا، ثم استقبل الجدار المقابل للباب وصلًّى، وما إن انتهى من صلاته وفتح الباب إلا ورأى قريش مُتجمعة في ساحة الحرم تنتظر أمره الصريح فيهم.

الجميع يعلم أن موت قريش وحياتها بين يدي هذا الشيخ، ومصيرها أسير بين شفتيه...

المشهد مهيب لا غرو في ذلك...

هذا رجل غارق في النصر، عشرة آلاف سيف مشحوذة تنتظر أمره، والبلدة التي رفعت عليه السيف، وآذته، وسلقته بالسباب والاتهامات لعقدين كاملين تنتظر انفراجة شفتيه...

خرج النبي محمد من باب الكعبة، آخذًا بعضادتي الباب وهو يردد:

«لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده...».

ثم التفت إلى قريش قائلًا: «يا معشر قريش، إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظيمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب».

ثم سألهم: «ماذا تظنون أني فاعل بكم؟!».

فقالوا: «أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم».

فقال لهم في صدق: «وإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء».

تأمل النبي صيحات الابتهاج، وملامح الطمأنينة التي ارتسمت على وجوه الناس فشعر بالغبطة، لقد كان هدفه الأهم دخول مكة من دون قتال أو دم، وها قد تحقق سعيه بشكل مثالي.

من علٍ يراقب «حراء» صديقه القديم، ينظر إلى صاحبه الذي دخل جوفه ذات يوم حائرًا وخرج نبيًّا وقد نال مراده بعد طول صبر وعناء، ينظر إلى مكة من دون أبي جهل، وأبي لهب، وأُميَّة بن خلف، يطالع معذَّبي الأمس وهم يُكبِّرون لله الواحد الصمد...

«حراء» لم ينسَ ارتجافة الرجل ولا حيرته وهو يهبط مُسرعًا بعد اللقاء الأول مع جبريل، كان شاهدًا على معاناة هؤلاء الشرفاء، وها هو يشهد نصرهم الأهم، ويرى انهيار منظومة كاملة من الطغيان والكفر والجبروت...

يتأمل صاحبه بدقة... شاعرًا بالفخر - يقينًا - وهو يرى هذا النموذج الفريد من القادة، والذي كلما بلغ درجات من الانتصار والاقتدار قفز فوقهما إلى مراتب التواضع، والرحمة.

«حراء» ينظر، ويدقق... ولعله يبتسم!

ويبدو أن أقدام التاريخ تثاقلت فلم تحمله بشكل جيد في هذا اليوم، التاريخ الذي لطالما انحاز للمنتصرين يقف متعجبًا من نصر لا يُشبه ما تعود عليه في ملاحمه الماضية، فلا ثأر حاضر ولا تنكيل، المُنتصر هنا يؤمِّن الناس، ويزيل بكلماته الحانية من ثِقل هزيمتهم، ويحفظ لهم مكانتهم مع ما فعلوه به سابقًا.

بلا شك، دوار عنيف أصاب التاريخ في هذه اللحظة، ليس منطقيًّا أن يواسي المنتصرُ المهزومَ، ولا مفهومًا بالنسبة إليه ما يقوم به النبي العربي.

يقف التاريخ منتبهًا فجأة، يقترب في شغف حينما يرى عثمان بن طلحة الذي يملك مفاتيح الكعبة.

لدينا هنا مشهد سابق يحفظه التاريخ جيدًا، ذلك أن النبي محمدًا قد أتى لعثمان بن طلحة يستأذنه أن يفتح له الكعبة في أثناء فترة اضطهاده السابقة، فرد عليه الرجل ردًّا غير طيب وأغلظ له، غير أن النبي محمدًا كان حليمًا يومها، وأخبر عثمان ـ كأنه يقرأ من كتاب القدر ـ أن هذا المفتاح سيكون في يده يومًا ما، وأنه سيضعه حيث يشاء!

حينها سخر منه عثمان، وقال له: «لقد هلكت قريش يومئذٍ وذلَّت».

غير أن النبي قال له وهو ينصرف عنه: «بل عَمرت وعَزَّت يومئذٍ».

وها قد دار الزمان دورته، ودخل النبي منتصرًا، ونادى على عثمان بن طلحة، إنها

الفرصة التي يريدها التاريخ كي يُسجلها في باب الانتقام وتصفية الحسابات.

اقترب عثمان من النبي، فأمره أن يأتيه بالمفتاح، وبخطوات أثقلها الهوان ذهب عثمان وأحضر مفتاح الكعبة ودفع به إلى النبي. التاريخ يراقب المشهد في إثارة.

ينفث في روع عثمان أن لحظة الذل التي بُشر بها سابقًا قد أتت، وأن أسوأ كوابيسه قد تحقق.

بيد أن النبي محمد أرجع المفتاح إلى عثمان مرة ثانية قائلًا: «خذوها خالدة، تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم يا عثمان، إن الله تعالى استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف».

ينظر التاريخ مندهشًا إلى وجوه بني هاشم والذين ظنوا أن مفاتيح الكعبة ستؤول إليهم لتنضم إلى شرف السقاية التي يقومون بها، غير أن النبي كان حازمًا في قراره، رافضًا أن يتم سحب هذا الشرف من عائلة عثمان بن طلحة، والذي ظل في حوزتهم حتى اليوم!



تسعة نفر تم استثنائهم من قرار العفو العام...

تسعة أشقياء سماهم النبي بأسمائهم وأصدر فيهم حُكم الإعدام، مشددًا على تنفيذ الحُكم وإنْ تعلَّق هؤلاء بأستار الكعبة!

لكل واحد منهم موقف مخزٍ، وطعنة غدر سابقة، ومشهد مؤسف لا مروءة فيه...

أما الأول فهو عبد الله بن أبي السرح، رجل أسلم سابقًا وتبع النبي محمدًا، وكان يكتب الوحي خلف النبي، ثم ارتدَّ وعاد إلى قريش، وأخبرهم أنه كان يعبث في ما يمليه عليه محمد، وأنه كان يكتب غير ما يُتلى عليه.

النبي يحترم الخصومة الشريفة، لكنه لا يتسامح مع وضاعة النفس سيما لو صَاحَبها أذى وتشهير واستهزاء، فما بالك والاستهزاء هنا موجَّه إلى كلام الله، والذي استُؤمِنتَ عليه فاتخذته لعبًا وسخريًّا!

بيد أن عبد الله بن أبي السرح ما إن وصله قرار استثنائه من العفو إلا وهرول إلى عثمان بن عفان، أخيه في الرضاعة، والذي ذهب به إلى النبي يستأمنه على روحه.

لم يكن النبي يريد هذا العفو، ولكن مثل عثمان حريٌّ بألا يُرفض له طلب، فعفا عنه النبي وهو غير راضٍ.

أما الثاني فهو عبد الله بن أخطل، أسلم هو الآخر، ووثق به النبي، بل وأرسله مع مولى له ليجمع الصدقات من المسلمين، فغضب على المولى وقتله ظلمًا، وعاد إلى قريش، وكان له مغنيتان لا عمل لهما إلا هجاء النبي محمد، وسب الإسلام، والسخرية منه في كل جلسة وسهرة.

فكان قرار النبي بقتل الرجل والجاريتين ـ الثالثة والرابعة ممن تم استثناؤهم من العفو ـ وبالفعل تم قتل عبد الله بن أخطل، وإحدى الجاريتين، وتم العفو عن الأخرى بعدما توسط لها أحد المسلمين.

والخامس هو الحارث بن نفيل، الذي كان دائم الأذى للنبي في مكة، غير أن فعلته الأقبح كانت حينما تتبَّع بنتَي النبي «فاطمة وأم كلثوم» في أثناء لحاقهما بالنبي في المدينة بصحبة العباس، فنَخَس جَمَلَهُما فأسقطهما من عليه في بطولة حقيرة.

ولقد قتله علي، زوج فاطمة، وهو أحق الناس بتأديبه جراء مع فعله بزوجته.

السادس كان مقبس بن قتادة، ولهذا الرجل قصة سابقة، ذلك أن أخاه كان مُسلمًا، وفي أثناء عودة المسلمين من غزوة بني المصطلق قُتل أخوه خطأً، فجاء مقبس إلى المدينة وأعلن إسلامه وطلب دية أخيه، والتي دفعها له النبي من بيت المال، وجلس الرجل بين المسلمين إلى أن تحين فرصة فقتل قاتل أخيه وعاد إلى مكة!

وما كان النبي ليتسامح مع كل هذا القدر من الخبث والعبث، فاستثناه من العفو، وتم قتله على يد أحد أبناء قبيلته.

وسابع الأشقياء هو هبار بن الأسود والذي وقف لزينب بنت النبي محمد

وزوجها العاص بن الربيع في أثناء ذهابها إلى المدينة، وتعرض لها، ونخس راحلتها حتى سقطت وهي حامل فسقط حملها، ويقال إن وفاتها كانت من أثر هذه السقطة.

ومثل هذا الرجل ضنين أن تشمله رحمة النبي محمد، فانعدام الشرف والمروءة كان وما زال ثُلْمَة لا تُغتفَر، ومَنْقَصة لا يستسيغها ذوو النفوس المستقيمة.

وكان ثامن القوم هو عكرمة بن أبي جهل، إرث الكراهية الذي ورثه عن أبيه للنبي محمد كان ثقيلًا، حتى إنه في أثناء دخول المسلمين مكة حاول أن يحاربهم ويصدهم، وحاول أن يتواصل مع بني بكر، القبيلة التي خرقت المعاهدة في مبتدأ الأمر، إلا أنه فشل، فسافر إلى اليمن، فلحقت به زوجته وأخبرته أنها أسلمت وطلبت العفو عنه من رسول الله فعفا عنه، وأنه في انتظاره.

وبالفعل عاد عكرمة إلى مكة، واستقبله النبي أحسن استقبال، بعدما شدد على المسلمين ألا يتحدث أحد بسوء عن أبيه حتى لا يؤذيه.

وتم العفو كذلك عن الشخصية التاسعة وهي سارة مولاة عكرمة، والتي قيل إنها حملت الرسالة من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش، ثم هربت إليهم بعدما عُفي عنها، فرأى النبي أن موقفها هذا موقف غدر لا يؤتمن صاحبه، لكنه عاد وقبل شفاعة بعض أصحابه فيها.

نحكي هذا لنوثّق لشيئين، أما الأول فإن الحزم ليس نقيضًا للرحمة، وإن الحلم والأناة اللذين غلبا على طباع النبي المُنتصر لم يمنعاه من بعض القرارات الحاسمة، والتي تُبنى على أدلة اتهام واضحة، ويتم تنفيذها لقلع الجذور الضارة خشية تعكير الأمن العام.

كذلك لم يكن القرار انتقاميًا، ذلك أن الانتقام لو كان حاضرًا لشمل كُثرًا ممن ثبت إيذاؤهم للنبي وأصحابه، لكنه قرار ناضج وبخصوص أشخاص بعضهم أخذ الفرصة وغدر، والبعض الآخر تناول الدعوة والفكرة بالتجريح المبالغ فيه، وظهر حنقهم البالغ تجاه الدين، وتعذر وجود باب لرجوعهم عمّا في أذهانهم.

وحتى من طلب العفو من هؤلاء تم العفو عنه، ومنهم من كان مخلصًا للنبي بعد ذلك، وحَسُن تصديقه للرجل، والإيمان بالرسالة.

وأختم بأن النبي محمد لم يُقِم محاكمات ثورية، ولم يستغل نصره الكبير كي يهين البلدة التي أهانته، ولم ينتقم ممن نال منه، على العكس، كان حريصًا على مكة وتماسكها، ولم يجبر أحدًا على الإسلام.

كان الرجل نبيلًا في خصومته، متواضعًا في نصره، عظيمًا في تأليف قلوب الناس من حوله...

عفا عن هند بنت عتبة رغم ما فعلته في حمزة، وعن صفوان بن أُميَّة على سوء تدبيره ضد الإسلام وأهله، وعن سهيل وعكرمة وغيرهما...

أعاد ترتيب مكة على أساسٍ غير العصبية والقَبلية، مشددًا على أن التقوى هي المعيار الأهم في علوّ قيمة الناس وشرفهم، والتقوى هي مزيج بين حُسن الطَّويَّة وجميل الأدب، مما يعني أن علوّ الناس في هذه البقعة قائم على حسن التعامل، وأدب الأخلاق ومكارمها...

وتلك لو تدري خلاصة رسالته... ومنتهى مطالبه...



المؤمنون والمسلمون

قليلون هم عظماء الدنيا، وقليل من هذا القليل مَن يقدر على تحقيق طموحاته، ويجعلها واقعًا في دنيا الناس.

ولقد كان النبي محمد أحد القليلين الذينْ فتح الله عليهم ليشاهدوا أثر سعيهم ونتاج صبرهم وخراج ما زرعوه.

مكة... أعظم الأحلام، وقِبلة الآمال، ومنتهى الغاية والمطلب، قد طُهِّرت من أصنامها، ومن الساعة لن يُسمع فيها صوتٌ أعلى من أذان الصلاة، يرتفع ليؤكد وحدانية الله، ونبوة ورسالة العظيم محمد...

ومع كل هذا، ما التغيير الذي طرأ على نفسية أقوى حاكم في شبه جزيرة العرب...؟!

لا شيء... لم تتبدل نظرة النبي أو تتغير مذ بدأ مشواره في الحياة، ما زال كما هو، ينام على حصيرة، ويأكل من طعام الناس، ويرفض بحزم قاسٍ أي مظاهر للأُبَّهة، ويؤكد أنه رجل من الناس، وأن نبوّته التي بُعث بها وإن جعلته مُعلمًا ومُرشدًا، إلا أنها لا تضعه فوق عرش المُلك مرتديًا صولجانًا محاطًا بحاشية.

لقد تواضع الرجل بشكل باعث على العجب، تواضعٌ وضعه على عرش القلوب التي أحبته، وامتلك بهدوئه، وتأنّيه، وعبقريته، مجامع النفوس والعقول.

ولقد كان منطقيًّا إذ شاهد الأنصار نبيهم يمشي في موطنه الأول مُغتبطًا أن يستشعروا قلقًا ألا يعود معهم إلى المدينة...

قلقٌ نضح في حوار ضمّ بعضهم، وهم يؤكدون أن النبي لن يرجع معهم وقد فتح الله عليه مكة، إنهم يعرفون جيدًا أهمية تلك البقعة تحديدًا بالنسبة إليه، وأن المنطق يقول إنها ستصبح مستقرًّا له وعاصمةً لرسالته.

رآهم النبي ولعله استشعر من وجوههم ما ذهبوا إليه، فتوجه إليهم وألحّ أن يخبروه بما يدور بينهم، وعندما أسرُّوا له عن شكوكهم وتخوفهم قال لهم في لهجة تحمل دفء المحبين، وامتنان الأوفياء: «معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم».

يا إلهي! النبي يخبرهم أنه معهم حيًّا وميتًا، هم لا غيرهم، بينهم وفيهم ومنهم.

وبالفعل استقر النبي باقي رمضان في مكة يقصر في صلاته ويفطر لا يصوم دلالة على أنه مسافر لا مقيم، وكان مُقام النبي فيها يقارب خمسة عشر يومًا ـ يقال إنها ثمانية عشر أو تسعة عشر ـ قبل أن يخرج من مكة.

بيد أن هذا الفتح المُبين وإن لم يُحدث تغييرًا في نفسية القائد إلا أنه أحدث تغيرًا جذريًّا في طبيعة الكتلة المؤمنة بالإسلام...!

حيث اتسعت الدائرة ودخلها جمع غفير، وأصبح مَن حول النبي ليسوا فقط المؤمنين وإنما المسلمون!

والفرق بين الاثنين جد كبير، فحتى فتح مكة كان النبي يعرف أصحابه واحدًا واحدًا، قريبًا من غالِبهم بشكل شخصي، مُطَّلِعًا على طموحاتهم فكان يوجهها في الاتجاه الصحيح، واعيًا بالعيوب فكان يعالجها سواء بشكل جماعي أو شخصي، ولكن بعد فتح مكة أسلم نفر كثير من قريش والقبائل المجاورة، إسلامًا ليس كله خالصًا لوجه الله، وكان يحيط بالنبي أتباع كثر، لا يمكن الاطمئنان إلى أن قلوبهم ناضحة بالإيمان أو التصديق.

ليس من وظيفة النبي شخصيًّا التفتيش في نيات الناس، ونحن أضعف وأقل منه في طلب ذلك، وعليه سنظل غير معنيين بالتفتيش فيما وراء الظاهر من السلوك، لكن على الجهة المقابلة لسنا من الخيال بمكان كي نظن أن الآلاف

التي دخلت دين الإسلام في أيام وبعدما فرض كلمته على المنطقة قد آمنت بإخلاص، وأن أصابع البعض لم تحاول هدم الدين، ولا اغتيال النبي، ولا خلق عصبيات.

والحقيقة أن هذا الجمهور الكبير بقدر ما هو عزّ وقوة للفكرة، بقدر ما هو مرهق سياسته، ويحتاجون إلى خطة لا يقدر عليها إلا قوي أمين.

وسوف نرى أثر ما نقوله في أول احتكاك حقيقي بعد فتح مكة، وفي أثناء معركة حنين وما تلاها!

نعود إلى النبي محمد ثانيةً، الآن وبعد فتح مكة لم يبقَ من قوى كبرى عربية مناوئة لدين الإسلام إلا هوازن وثقيف في الطائف،؛ هوازن كانت قوة ذات بأس، وكان رأيهم أن سقوط مكة يعني أن دورهم قادم، وعليه تجب مبادرة المسلمين بالحرب، وبالفعل جاء أحد كبرائهم وهو مالك بن عوف النضري، وجمع ثقيف كلها، وفوقهم نضر وجشم كلها، وعدد قليل من قيس بن عيلان، وكان مالك يريدها حرباً فاصلة، فصحب النساء والأطفال والأموال معه، كي يدفع جيشه إلى صدام لا نية فيه لهزيمة أو انسحاب، وكان في قبيلة جشم شيخ حكيم له دراية بالحرب، فما إن عرف هذا حتى ذهب وتكلم مع مالك عن رأيه، فأخبره أنه بهذا يجعل خلف كل رجل منهم أهله وولده وماله كي يدافع عنهم بشراسة!

فنهره الشيخ قائلًا: «لقد أصبحت رئيس قومك، وإنَّ هذا اليوم له ما بعده من الأيام، لكنك لست بمقاتل! وهل يرد المهزوم شيء؟! إنها إن كانت لك لن ينفعك إلا الرجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك».

لم يقتنع مالك بقول الرجل، غير أن كثيرًا من هوازن فعلوا ما أشار عليهم به.

وعندما وصل الخبر إلى النبي، قام من فوره لتجهيز الجيش، وأرسل إلى صفوان بن أُميَّة يستأذنه في استعارة بعض الدروع والأسلحة وقد كان يملك منها كثيرًا.

المدهش أن صفوان لم يكن قد أسلم بعد، فلم يوافق ابتداءً حتى يعرف هل هذا المطلب غصبٌ أم طلب، فأخبره النبي أنه طلب، وأن ما سيعطيه له فهو أمانة لديه، فوافق صفوان.

خرج النبي ومعه اثنا عشر ألفًا من المسلمين، فيهم المهاجرون والأنصار وبعض القبائل، وألفان من قريش.

أحد المسلمين وهو الحارث بن مالك يقول واصفًا الحال الذي كان عليه قريش وقتذاك: «خرجنا مع رسول الله إلى حنين ونحن حديثو عهد بجاهلية» حتى إنهم مروا على شجرة كانت تقدسها قريش فطلبوا من النبي أن يجعلها لهم ذات

أنواط، أي شجرة مقدسة يذبحون عندها، فنهرهم النبي مؤكدًا أن هذا من الشِّرك.

المهم، أن هذا هو حال الجيش الجديد، والوافدين الجدد!



كان على المسلمين أن يجتازوا مضيقًا ضيقًا يسمى «حنين» ليصلوا إلى الوديان الفسيحة الخصبة خلف جبال أوطاس، وكان المضيق موحشًا، تنحدر جوانبه بشكل حاد، ومساحته ضيقه لا تسمح بتقدم الجيش بشكل سلس وتجبره على التقدم بشكل اضطراري لا حرية فيه.

وعندما وصل جيش المسلمين إلى حنين، ناموا ليلًا ـ وفقًا لعادة النبي العسكرية ـ ومع بشائر السحر نهضوا، وتقدموا ليقطعوا وادي حنين إلى الجهة الأخرى متوقعين أن جيش العدو منتظر على الجانب الآخر.

بيد أن جيش الطائف كانت له خطة، حيث اختبؤوا في الطرق، والمخابئ، ومشارف الجبال، مستغلين انحدار الوادي.

وعليه ما إن هبط المسلمون في وادي حنين قاصدين بطنه، حتى بدأ الطريق يضيق بهم، إنهم يمضون في طمأنينة نحو نهاية الطريق، غافلين عن أن الخطر محيط بهم، مستتر خلف كل صخرة ومنعطف.

وفجأة هجمت الكتائب، زلزال هز الأرض من تحت أقدام المسلمين، الشمس ما زالت نائمة لم تظهر بعد، وعليه شعر المسلمون بأنهم محاصرون بين مضيق الوادي الضيق، وظُلمة السَّحَر، وهجمات العدو العنيفة.

انحاز النبي بسرعة إلى يمين الجبل، ونادى في الناس أن «هلمُّوا إليَّ، أنا رسول الله».

ولكنّ الناس يفرّون، وسيوف هوازن تعمل عملها في قتل المسلمين.

دَعُونا لا ننسَ أن الجيش هنا به عدد غير قليل من قريش والذين لم يسكن الإيمان قلوبهم بعد، ولعل منهم من يأمل في أن تُقبر أحلام المسلمين وآمالهم وطموحاتهم في وادي حُنين!

تفرَّق جيش المسلمين، واختار النبي محمد المواجهة!

نعم، لقد كان النبي مُصمماً على اقتحام صفوف العدو، هتف في العباس أن «يا عباس اصرخ» وكان جهير الصوت، فنادى العباس: «يا معشر أصحاب الشجرة، يا معشر أنصار الله وأنصار رسوله، يا معشر الخزرج».

ما هذا...؟!

نداء اختص الأوائل الأوفياء! نداء للمؤمنين لا المسلمين، نداء يعرف جيدًا على أي أُذن سيهبط، وعلى أي قلب سيكون مؤثرًا.

وعليه لبَّى المؤمنون الأوائل نداء العباس، كان الأمر صعبًا حتى إن الواحد منهم ما كان يقدر على أن يعطف بعيره ليذهب حيث الصوت، فكان يرمي درعه، ويترك فرسه، ويؤمّ الصوت ليس معه سوى سيفه وترسه.

وتجمع حول النبي من جيش الاثني عشر ألفًا، مئة رجل!

لكنهم بقية من بقايا بدر... وما أدراك ما رجال بدر.

انكشف ضوء الصباح على القائد ومعه جنده الحقيقيون، خرجت الشمس كي نرى المشهد بوضوح، مشهد النبي محمد وهو يهجم بجيشه المؤمن على هوازن.

لقد جنح المؤمنون إلى نبيهم فجمح بهم على عدوهم...

وبدأت المعادلة تختلف، قوة وبأس وكرامة كانت تحيط بالنبي ومن معه، حتى بدأت جيوش العدو في الارتباك، وهنا صرح النبي أن من يقتل رجلًا من جيش العدو فله سلبه ـ أي ما يملكه.

يبدو أن النبي كان يُرسل تصريحه هذا للأعراب والطلقاء وحديثي العهد بدينه، فعادوا ثانية إلى المعركة!

وأمام ضربات المؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين يحاربون من أجل الله ورسوله، وضربات من يحاربون من أجل الغنيمة تفتتت صفوف العدو، وظهر تراجعهم.

وما هي إلا ساعة من نهار إلا وانهزمت أحزاب العدو، وهربوا سريعًا إلى الطائف، بينما عسكر فريق في «أوطاس»، وتوجه بعضهم نحو نخلة.

فأمر النبي أن يتم تتبع فلول العدو حتى ديارهم...

بدا كأن النبي يريد أن يمحو تمامًا من ذهن قبائل الصحراء فكرة المقاومة المسلحة للمسلمين، لا سيما أن الموقف الحالي مُختلف بالكلية عما سبق، جيش المسلمين الكبير الآن لن يتحمل كبوة ككبوة أُحد، ما ظهر في بداية اليوم يؤكد ذلك، وعليه لا بديل عن النصر الكامل النهائي.



في منطقة تسمى «الجعرانة» أمر النبي أن تُترك كل الغنائم، ورفض أن يتم توزيعها مباشرة، آمرًا بالتقدم للأمام، خصوصًا خلف مالك بن عوف البطل الرئيس لهذه الحرب، والذي احتمى بحصون الطائف المنيعة.

وبالفعل وصل الجيش إلى الطائف سريعًا، غير أن النبال نزلت على رؤوسهم كالمطر، وسقط منهم في أول مواجهة ثمانية عشر رجلًا.

حاول النبي أن يقتحم الحصون بأي طريقة فلم تجدِ نفعًا، حتى مع وجود آلة حربية جديدة «المنجنيق» لم يستطع المسلمون تحقيق أي تقدم، الحصون منيعة وفتحها ليس سهلًا، وجيش المسلمين كبير وحول الطائف لا يوجد طعام

لأكثر من عشرة آلاف مقاتل فضلًا عن علف دوابهم، دَغْدَغَ من بعضهم ممن يريدون العودة إلى «الجعرانة» لتقسيم الغنائم.

صرح النبي محمد أنه سيعفو عمن يخرج من الحصون ويكون مع المسلمين، مؤكدًا أن العبيد سيتم تحريرهم، وبالفعل انضم عشرون رجلًا من القوم، عرف منهم النبي أن ثقيف تمتلك مؤنة تكفيهم عامًا، وذخيرة قادرة على حماية البلدة.

ثم أصدر النبي أمرًا بإشعال النار في أشجار الكرم «العنب»، غير أن ثقيف ناشدته ألا يحرقها ويأخذها إن شاء، فعلم النبي أن عرب ثقيف غير يهود بني قريظة، وأن هذا التهديد لن يجدي نفعًا.

انعدمت الحيل، كل الخيارات صعبة الآن، العودة دون إنهاء هذا الأمر خطر، والاستمرار في الحصار غير ممكن، لا سيما أن الأشهر الحرم قد أقبلت، ودين الرجل - وعادات المنطقة - يُحرم الحرب في مثل هذه الأشهر.

وهنا أعلن النبي أنه سيعود إلى مكة لأداء مناسك العمرة على أن يعود بعد انصرام الأشهر الحرم لمواصلة الحصار!

عاد النبي إلى منطقة «الجعرانة» فوجد غنائم كثيرة، خروج جيش الطائف حاملًا ثروة البلدة جعل الغنيمة فوق مستوى التوقع، وزِيدت عليه ما غنمته الكتيبة التي طاردت الفارِّين إلى «أوطاس» بعدما تمكنت منهم.

تخيَّلْ معي، وفق أقل التقديرات فإننا نتحدث عن أربعين ألف شاة، وأربعة وعشرين ألفًا من الإبل، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف أسير...!

تباطأ النبي في توزيع الغنائم أكثر من عشر ليالٍ كاملة، كان الرجل طامعًا في أن يأتي أهل الطائف مسلمين ويرد عليهم ممتلكاتهم، ومع تتابع الليالي لم يجد النبي بُدًّا من تقسيم الغنائم على أفراد الجيش المُسلم.

دَعُونا نؤكد ثانية أن الغنائم هذه المرة ثروة كبيرة بالمعنى الحرفي للكلمة... بيد أن قسمة النبي أثارت نقاشًا كبيرًا، ورد فعل غير عادي!

لقد نظر النبي إلى جيشه فوجد نفرًا قد أسلم بيد أن الإسلام لم يكن مستقرًا في قلبه بعد، بل ربما كانت مواقفه في محنة مضيق حنين قبل أيام غير جالبة للراحة أو الطمأنينة الكاملة تجاه نياته، ومع هذا أعطى النبي لهذه الفئة من الغنائم الشيء الكثير، بل ربما زادهم عن غيرهم!

نعم... في الوقت الذي يجلس فيه سعد بن عبادة، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، منتظرين إشارة نبيهم، كان النبي يعطي أبا سفيان وولديه «يزيد ومعاوية» ثلاثمئة ناقة، ومئة وعشرين أوقية فضة، وكان هذا بعد طلب من أبي سفيان بالزيادة!

وأعطى حكيم بن حزام مئة من الإبل وسأله مئة أخرى فأعطاه، وكذلك أعطى

النضر بن الحارث، والعلاء بن حارثة الثقفي خمسين، والعباس بن مرداس أربعين قبل أن يزيدها إلى مئة!

وبعدما أعطى لهؤلاء بدأ في تقسيم الغنائم على جيشه بالتساوي، فكان نصيب الرجل أربعة من الإبل، وأربعين شاة، وإن كان فارسًا أخذ اثني عشر بعيرًا ومئة وعشرين شاة!

ما الذي يفعله النبي...؟!

يُعطي لمن وقف بجانبه كتفًا بكتف، وحارب عنه، ولبّى نداء الغوث وضحّى بنفسه أربعة من الإبل بينما يُعطي أبا سفيان وحكيم بن حزام وغيرهما ممن أسلموا بالأمس ولم يحركوا ساكنًا وقت الأزمة مئة وأكثر...!

والمدهش أن المسلمين أطاعوا نبيهم، لم يكن هناك كلمة اعتراض واحدة، غير أنه وبعدما انفضَّ المجلس، جاء سعد بن عبادة زعيم الأنصار إلى النبي وقال له: «إن الأنصار قد وجدوا عليك من أنفسهم يا رسول الله، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظيمة في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء».

نظر النبي إلى سعد ثم سأله: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟».

فرد سعد بصوت خافت: «ما أنا إلا من قومي».

فقال له النبي: «فاجمع لي قومك».

وبالفعل، جمع سعد كل الأنصار فجاءهم النبي، ثم حمد ربه وأثنى عليه، ووقف فيهم خطيبًا، فقال: «يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني، وموجدة وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضُلّالًا فهداكم الله بي؟! وعالةً فأغناكم الله بي، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم؟!».

فقال الأنصار وقد أخذتهم رجفة من خطورة الكلمات: «لله ورسوله المن والفضل».

هنيهة صمتٍ خيَّمت على القوم، قبل أن يقطعها النبي قائلًا: «ألا تجيبوني معشر الأنصار؟».

غرق القوم في صمتهم حتى كاد يبتلعهم، كلمات نبيهم الشديدة بدت كأنها تُخفي غضبًا من موقفهم بشأن تقسيم الغنائم، وها هو يطلب منهم ردًّا على كلماته تلك، فما كان من بعضهم إلا أن همهم قاطعًا سحابة الصمت متسائلًا: «بماذا نجيبك يا رسول الله؟!».

وهنا قال النبي في لهجة بها من عُمق العاطفة، وأصالة النبلاء: «أما والله لإن قُلتم لصدقتم وصُدِّقتم: أتيتنا مُكذَّبًا فصدقناك! ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فواسيناك!».

يا إلهي، أيُّ إنصاف، وأيُّ نُبل، وأيُّ تقدير هذا الذي ينضح في كلمات النبي

محمد! لقد نطق فأنصف، وبيَّن لهم الأرضية التي تحكم علاقته بهم، أرضية ثابتة راسخة فيها تضحية من الجانبين، وتقدير من الفريقين، وود متبادل، وحب راسخ لا يمكن أن يزعزعه سوء فهم أو عدم تقدير.

ثم قال موضحًا ما فعله وغاب مقصده عنهم: «أوجدتم في أنفسكم، وبيننا ما بيننا مما وضحناه من لعاعة الدنيا، تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟! والذي نفس محمد بيده ما تنقلبون به لخير مما ينقلبون، ولولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا ووديًا وسلك الأنصار شِعبًا وواديًا لسلكت شِعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار والناس دثار لهم، اللهمَّ ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار...».

لم تجرِ كلمات النبي محمد على لسانه إلا وقد مرت على قلبه واقتاتت من روحه، وعليه لم تهبط على أذن الأنصار إلا ووجدت طريقها مباشرة إلى قلوبهم، ونضحت في دمع جرى من أعينهم حتى أغرق لحاهم، كانت كلماته منهجًا قبل أن تكون تبريرًا، وختمًا أزليًا بالتقدير قبل أن تكون توضيحًا، وعليه بكى الناس وهم يرددون: «رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا... رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا».

الامتحان

قليلة هي الساعات التي سيطر فيها العدل على وجه الأرض، وأضحى للمستضعفين قبلة يلتجئون إليها...

على رأس تلك الساعات هذه الأوقات الطيبة، التي امتلك فيها النبي الأعظم محمد بن عبد الله مقاليد شبه جزيرة العرب وعَبَّد الأرض لينطلق رجاله ليُسمعوا الدنيا نشيد السماء، ويحكوا للعالم قصة النبي الأخير، والرسالة الخاتمة...

فتح النبي قريش وحرر بيت الله العتيق من قبضة الأوثان، وواجه لحظات عصيبة بعدها في حنين، قبل أن يعود ثانية إلى مكة ليعيد تنظيم أمورها قُبيل عودته إلى داره في المدينة المنورة.

أمر مهم حدث للنبي قبل أن يهمّ بالرجوع، ذلك أنه وبعد توزيع الغنائم أقبل

وفد هوازن مُسلمًا، وسألوا رسول الله أن يردّ عليهم أهلهم الأسرى وثروتهم، فأجابهم أنهم قد تأخروا في ما يختص بالثروة، لكنه رد عليهم السبايا من أبنائهم ونسائهم، بعدما استأذن المسلمين في ذلك، ثم - في دهشة من أصحابه - دعا لثقيف التي تترست في حصونها أن يهديها الله، ويفتح قلبها للإسلام.

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها كثيرًا، وإنْ هي إلا شهور قليلة إلا وأتى وفدها مُسلمًا، مؤمنًا برسالة محمد ونبوته...

عاد النبي إلى مكة وخلف عليها «عتاب بن أسيد» ذا الأعوام العشرين أميرًا للبلدة، وترك أحد أصحابه - بعض الروايات تقول إنه معاذ بن جبل - ليعلم الناس أصول الإسلام ومبادئ الدين.

ثم قَدِم الرسول الأعظم إلى المدينة في الشهر الأخير من السنة الثامنة...

نعم، ثماني سنوات بين خروجه من المدينة متخفيًا وخروجه اليوم مُظفرًا، ثمانية أعوام بين دخوله يثرب غريبًا مستوحشًا يبحث عن مأوى آمن وبين عودته اليوم إلى المدينة وقد دانت له مكة، وأضحت تحت سيطرته وتأتمر بأمره.

أعوام قليلة نعم، لكن فيها من الكفاح والملاحم ما يحتاج إلى تدبر قد يطول، وتأمل وبحث وفهم...

دخل بطلنا إلى المدينة وقد فاضت روحه بالغبطة لتلك البلدة الطيبة، التي

أكرمته، وأحبته، ونصرته، وجدها على حالها من الهدوء، ووجد المنافقين كما هم، يبتسمون له ويحيّونه وقلوبهم مُغلقة على نقمة، يهشون في وجهه وهم يتمنون ألا يروا خياله!

وكان على النبي أن يُكمل مسار دعوته، لا شيء أبقى وأعظم من أن يُنجز المرء منا مهامه التي اختارته السماء من أجلها، وعليه قرر الرجل أن يتوجه بكلّيته إلى البُقعة التي لم ينجز عمله فيها بعد، بلاد الشام التي حدثت فيها معركة «مؤتة» وتم فيها الانسحاب الذي نفَّذه خالد بن الوليد.

الرجل صادق في ما يدَّعيه؛ هذه الدعوة ليست إقليمية، وأهدافه أكبر من بسط سيطرته على رمال شبه الجزيرة، إنه يستهدف الرجال، وفي الشام عرب آمنوا به وتم التنكيل بهم، وتخضع لسيطرة الرجل الذي قتل رسوله المُسالم، وهي قبل كل شيء البقعة الأكثر تهديدًا له.

وكان النبي يدرك جيدًا أن في تحدِّيه لمملكة الروم أمرًا إيجابيًّا، ذلك أن العرب في الجملة يضيقون ذرعًا بهؤلاء العجم، وأن الحمية والعروبة ستفعل فعلها في هذه المواجهة، فهي حرب بين كُفر وإيمان من جهة، وبين العرب والعجم من جهة أخرى.

ثم - وقبل أي شيء - فإنها مواجهة لا مهرب منها ولا محيص؛ كلٌّ من الفرس

والروم تعاملا مع عرب الجزيرة بلا اهتمام، ولقد أعانهم العرب على ذلك بتشتتهم وفُرقتهم، أَمَا وقد صارت لهم دولة، وجيش، وقائد، فهذا مما سيستدعي صدامًا لا محالة، وطريقة النبي محمد كانت تقوم على المبادرة، ثمة قاعدة زرعها الرجل في أتباعه تقول «ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلُّوا».

وعليه كانت كل الظروف تؤكد حتمية المواجهة، كل ما هنالك أن نبيهم قرر أن يختار الموعد، ولقد اختار لهم موعدًا صعبًا!



في رجب من السنة التاسعة أمر النبي بالتهيؤ لحرب الروم، كان الجو في هذا التوقيت لا يُطاق، الحر شديد، والمسافة بعيدة، وفوق هذا كان وقت حصاد الغلال، الأرض مُزهرة بثمرها تملك الألباب وتُبشر بالرزق، وعليه كان الاختبار قاسيًا على نفوس الناس، الحر والمشقة وطول السفر والزرع الذي ينتظر من يجنيه تدفع المرء إلى ترديد سؤال حائر: هل هذا وقت حرب...؟!

وللأسف لقد تساقط نفر كثير في الاختبار، وما بين ضعف الإيمان وضعف العزيمة مضى النبي يختبر أصحابه، ويُطهِّر صفوف أتباعه من خبث في القلب لا تُظهره إلا المواقف الصعبة.

وإحقاقًا للحق والتاريخ فقد كان الاختبار قاسيًا، وأخفق فيه غير قليل من

مجموع المسلمين، وبعض المؤمنين الصادقين الذين لم تحملهم عزيمتهم وأبطأهم هوى النفس.

وهذا درس آخر من دروس التاريخ، بنو آدم ليسوا ملائكة يقفون صفًا واحدًا تنفيذًا للأمر، إنهم بشر تؤثر فيهم عوامل شتى، وتتخطفهم أحاديث النفس طمعًا أو رهبة، ويحتاجون طوال الوقت إلى قائد حازم يكشف لهم ما في أنفسهم من أحاديث، وما في أرواحهم من طمع، وما في خطواتهم من تردد...

وعليه، مضى النبي وسط الناس محفزًا هممهم، يحثهم على أن يُعِين بعضهم بعضًا، وينفقوا في سبيل تجهيز الغزوة، ظهر بقوة عثمان بن عفان الذي كاد يجهِّز الجيش كله لولا أن العدد كان ضخمًا هذه المرة، وتنافس الصادقون على التبرع بما يملكون...

ولك أن ترى مشهدين خياليين هنا: مشهد للمؤمنين وهم يبذلون ما لديهم، حتى لو تمرات بسيطة، ويجلس بعض منهم يبكي لأن النبي لا يملك ما يحملهم عليه، أو يجهزهم به.

ومشهد آخر مغاير لمسلمين يسخرون من همة المؤمنين وعطائهم، يتهمون الناس بالرياء ويتضاحكون من بذل ضعفائهم وقيمة ما يقومون به، وهم فوق هذا يعتذرون عن الخروج معهم لأسباب تافهة غريبة.

وكالعادة، بدا كأنه لا شيء من كل هذا قادرًا على التأثير في خطط النبي ودوافعه، لقد جهز الرجل جيشًا كبيرًا بلغ نحو ثلاثين ألفًا، وبلعبة مكشوفة خرج معهم «عبد الله بن أُبيّ» وبعضًا من المنافقين، ثم رجعوا مرة أخرى، في محاولة لكسر تماسك الجيش وزعزعته، و«ابن أُبيّ» يقول بلهجة ساخرة مُحبِطة: «يغزو محمد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ما لا قبل له، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر لعب؟! والله لكأني أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين في الجبال».

لا شك أنها ضربة في الصميم، لكنها ومع كل خبثها خطوة خسيسة تؤكد أن جعبة هذا الجناح قد أفلست تمامًا، وغالب الظن أن لهم في ذهن النبي محمد خطة ما.

مضى النبي بجيشه حتى وصل إلى تبوك في الشام، رحلة طويلة كانت تقطعها بين الحين والآخر عبارات من نوعية «لقد تخلف فلان» يقولها أحدهم للنبي بعدما اكتشف أن أحدهم قد تخلف عن الجيش، وكان النبي يرد عليهم بعبارة واحدة: «دعوه، فإن يكن فيه خير لحق بنا، وإن يكن غير ذلك فقد أراحنا الله منه».

بدا كأن النبي يريد أن يعي الناس حقائق الحياة. إنّ دعوته تستمد تماسكها من

وضوح أهدافها ومنطقيتها، ولا تحتاج كي يقوى عودها إلا إلى فئة صلبة تؤمن بمبادئها إيمانًا لا يداخله دَخَن الشك أو الريبة، أما ملح الأرض وسوادها فهم تابعون للغالب المنتصر، وبذلهم في نصرة دعوةٍ ما سيكون صعبًا ما لم تجرِ هذه الدعوة في أرواحهم، وتستقر في قلوبهم.

ليس هناك مجتمع مثالي صالح في جُملته، النبي يريد أن يُخبر الناس بهذا، يريدهم أن يلقوا خلف ظهورهم موانع الحياة النفسية وينطلقوا كي يكتبوا هم قصتهم الخاصة، وينشروا في دنيا الناس أفكارهم ورؤاهم، ويعرِّفوهم بدين الإسلام ومنهج نبيه، سيسقط أناس خلال المشوار، لا بأس في كل هذا، ويجب ألا يُحبطنا عن المضيّ في طريقنا، وتحقيق غايتنا.

والمدهش أن المسلمين حينما وصلوا إلى تبوك لم يجدوا جيش الروم هناك، مع تواتر الأخبار عن حشد الروم لقواتها، وخبر أن قيصر الروم أوقف خراجَ عامٍ لتجهيز جيش لمحاربة المسلمين، ظن الجميع أن اللقاء حادث لا ريب، لكن ما حدث كان غير هذا.

لم يُضعِ النبي وقتًا، من فوره أرسل السرايا إلى القبائل المجاورة لتبوك يسالمهم، كان رجاله ينتشرون على أطراف الشام ليرى الناس هناك أن عرب الصحراء قد تغير شأنهم، وصار لهم بعد طول تشتت مَنَعة، ودولة، ودين يدينون به.

يمكننا اعتبار هذه الرحلة الشاقة أول تصادم فكري حقيقي بين الإسلام والمسيحية.

لقد أصبح الإسلام أمرًا واقعًا، لا في شبه الجزيرة فقط وإنما عالمياً كذلك، وعليه تحالفت قبائل كثيرة ممن تسكن شمال شبه الجزيرة وأطراف الشام مع النبي محمد وانضمت لحِلفه، وأصبح الطريق إلى عرش قيصر الروم مسألة وقت!



سيخبرونك بأن مجتمع المدينة كان مجتمعًا مثاليًا فاضلًا، وأن وجود رسول من عند الله في عظمة النبي محمد كافٍ كي تصبح كل الأمور على ما يرام...

وللأسف ليس هذا بالشيء الصحيح!

مجتمع المدينة كان يحتوي فعليًا على نماذج عظيمة نادرة التكرار، استطاع النبي الخاتم أن يصنعها على عينه، ويرتب دواخلها، ويرتقي بها، لكنه ـ وسط كل هذا ـ كان محاطًا بالأعداء الداخليين، أو ما يُعرف بالطابور الخامس، الذين يعبثون بالكيان من الداخل، ويتواصلون مع العدو، ويمهدون له الطُرق كي يضرب ضربته القاصمة.

في أثناء عودة النبي من تبوك حدثت محاولة اغتيال خسيسة، أراد بعض الملثمين من جيش المسلمين أن يدفعوا بالنبي محمد من فوق عقبة في الطريق، علم النبي

بالخبر فأمر الجيش أن يسير في بطن الوادي إلا بعضًا من رجاله القريبين، ثم أمر عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يأخذا بزمام ناقته، وبعد مدة من سيرهم سمع النبي وقع رواحلهم وهمسهم فأرسل حذيفة بن اليمان - بلهجة ظاهرٌ غضبها - كي يعرف له مَن هؤلاء.

وبالفعل فهم الرجل رسالة نبيه، وعاد ليواجه الرواحل وقد أمسك بسلاحه فلما إن انتبه القوم إلى أن ثمة من شعر بهم حتى عادوا سريعًا إلى باطن الوادي لينخرطوا بين الناس.

لا أحد يستطيع مواجهة النبي محمد وجهًا لوجه، أعداء الرجل يهابونه ويتخوفون من قوته، وقوة أصحابه.

وعليه عاد حذيفة إلى نبيه وأخبره أن القوم قد فرُّوا سريعًا، وأنهم ملثمون.

فأمر النبي بسرعة المُضي قُدمًا حتى الاختلاط بالمسلمين في باطن الوادي.

غير أن ذهن النبي لم يتوقف، وجاءت آيات ربه كي تضع حدًّا فاصلًا في التعامل مع هذه الفئة... فئة المنافقين!



ذلك أنه وقبيل خروج النبي إلى اليرموك، وفي أثناء انهماكه في تحفيز أصحابه للتجهز ومعالجته لأزمة تجهيز الجيش جاء إليه بعض الأنصار ليتحدثوا إليه في

نيتهم بناء مسجد يسهِّل الأمر على المرضى ويكون قريبًا من الناس في أثناء الليالي المُطرة، وطلبوا من النبي أن يُصلي فيه، أو كما نقول اليوم... يقوم بافتتاحه!

هكذا، من أنفسهم قرروا أن يقوموا بعمل استثنائي كبناء مسجد، في الوقت الذي لم يكن على سطح الأرض إلا مسجدان للمسلمين - وفق كثير من الروايات - المسجد النبوي ومسجد قباء، قرر هؤلاء أن يقوموا ببناء مسجد ثالث.

فاعتذر إليهم النبي أنه على جناح سفر، وفي شغل من أمره، وأنه حين يعود - إن شاء الله - سيصلي فيه...

تفرس النبي في وجوه داعيه فبان له هدف هذا المسجد وغايته، غير أن مشاغله في الخروج إلى تبوك جعلته يؤجل النظر في أمر هذا المسجد حتى حين، وعندما حدثت محاولة الاغتيال السابقة، عاد أمر المنافقين ومسجدهم وخططهم تطفو في ذهن النبي، حتى إذا ما كان في منطقة تسمى «ذي وان» والتي تبعد عن المدينة قرابة الساعة، خرج النبي على الناس يتلو ما نزل عليه من ربه، ويتعلق بأمر المسجد الجديد، والذي سمّاه القرآن «ضراراً».

كان القرآن واضحًا في كشف أهداف هذا المسجد والتنبيه على عدم الصلاة فيه، فأرسل النبي من فوره رجلين وأمرهما أن يحرقا المسجد ويجعلاه أثرًا بعد عين.

لم يتسبب هدم المسجد في كثير لغط، ذلك أن بناءه كان تمهيدًا لمرحلة قادمة يعود فيها المسلمون ونبيهم منهكين أو مهزومين من تبوك، أو حتى تنجح مساعي الاغتيال الغادر، وعليه فإن قرار الهدم والحرق بدا كأنه إعلان صارم من النبي محمد أنْ لا شيء بعيداً عن سيطرته، وأن خطط الليل وألاعيب الخيانة لن يتم التعامل معها مستقبلًا إلا بهذه الطريقة!



الأمتار الأخيرة

خرج المسلمون إلى تبوك في رجب وعادوا في رمضان، أيام طوال مرت في رحلة هي الأصعب في تاريخ نبي الإسلام من حيث المشقة والجهد والتعب، قبل أن يعود إلى مدينته ليعيد ترتيب البيت بعدما اتسعت دولته، لا سيما أن قطار العمر بدا كأنه يعلن أن ما تبقى من رحلته أمتار قليلة، سيهبط بعدها نبي المسلمين ويترك إرثه العظيم في يد هؤلاء القوم...

حاكَم النبي مَن تخلف عن غزوة تبوك.

أخذ بظاهر القول وترك الباطن لله، وشدد في معاقبة من يعرف أنهم مؤمنون حقًّا، حتى طهَّر نفوسهم، وأبلغهم رسالته التربوية الأهم، أن هذه الرسالة غنية، لا تقف عند أحد، نحن الذين بحاجة ماسّة إلى الالتحام بها، انتهاء الإسلام أمر

مستحيل، هذه الرسالة ستبقى حتى آخر أيام الأرض، ستضعف يومًا ـ هكذا أكد لهم ـ حينما تضيع الهوية، وتختفي الهيبة، وعلى الرغم من أن المسلمين وقتها سيكونون كُثرًا، غير أنهم وقتذاك أشبه بزبد البحر أو غثاء السيل!

ولم تمر أيام قليلة بعد عودته من تبوك حتى جاء وفد ثقيف ليفاوض النبي على دخول الإسلام.

لقد قبل الله دعوة نبيه لأهل الطائف فجاؤوا طائعين، وكان دخولهم الإسلام حدثًا مهمًا، فعليًا أصبحت شبه الجزيرة العربية تحت حُكم النبي محمد.

يقول ابن إسحاق في سيرته: «لما افتتح رسول الله مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه».

مؤكدًا أن فتح مكة وإسلام قريش كان هو كلمة السر وراء انقياد القبائل وإسلامها، ذلك أن قريش كانت إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، عادوا الإسلام ما دامت قريش تعاديه، أما وقد أسلمت قريش فقد علم الجميع أنه لا قِبل لأحد بمحاربة محمد وصحبه، وكانت الطائف تأكيدًا لهذه الحقيقة.

لقد سُمي العام التاسع من الهجرة بعام الوفود، نظرًا إلى طوفان الوفود الذين أقبلوا على المدينة، إما مسلمين وإما متسائلين عن الإسلام وكنهه، أو حتى مبايعين لنبي المسلمين طامعين في جواره.

وعندما هلَّ هلال الحج ـ في العام العاشر ـ أرسل النبي أبا بكر أميرًا على الحج ليقيم بالمسلمين المناسك، لم يذهب النبي بنفسه ربما تحرُّجًا من الحج في وجود حجاج مشركين، خصوصًا أن بعض القبائل كانت تحج من دون ملابس، وعليه أرسل صاحبه وأحد أهم رجاله ليقوم بأول حج في الإسلام.

فخرج الصديق الأمين ملبيًا نداء الله، مُنفذًا أمر قائده، يسوق البُدْن أمامه، مولِّيًا وجهه شطر المسجد الحرام، وبعد خروجه نزل على النبي محمد قرآن من ربه فيه تشريع جديد يختص بمكة، فأرسل علي بن أبي طالب بهذه الآيات من سورة براءة إلى أبي بكر ليقرأها على الناس، وفيها أربعة أوامر مهمة، أولها أنه لا تدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، والثاني ألا يطوف بالبيت عريان، والثالث ألا يجتمع مسلم وكافر في المسجد الحرام، والرابع أن من كان له عهد من النبي فيمكنه المكوث حتى انتهاء العهد، وأن مهلة من ليس له عهد أربعة أشهر.

بوضوحٍ، النبي محمد يصدر قرارًا أنه لا يجوز حج البيت الحرام لغير المسلمين، وفرمانًا واضحًا بعدم السماح بأي طقوس أو شعائر وثنية تجري حول رحاب المسجد الحرام.



يؤكد ابن القيم أن الحج فُرض على المسلمين في العام التاسع، وما كان

قبلها فهو من عادات العرب، وعليه فإن أول حج في الإسلام كان يترأسه أبو بكر الصديق، ثم في العام الذي يليه قرر النبي أن يخرج ليحج بيت الله الحرام، وأشاع الخبر في الناس فتجمع خلق كثير حول النبي يريدون مصاحبته في حجته الأولى.

وفي أحد نهارات شهر ذي القعدة خرج النبي محمد ومن معه قاصدًا البيت الحرام، وأخذ يُعلِّم أصحابه مناسك الحج وفق ما تقتضيه شريعة الله، مشددًا وناهيًا عن أي ممارسة سابقة لا يُقرّها الإسلام، وفي أثناء الطريق كان ينضم إليه معتمرون جدد، فكان النبي يعيد تعريفهم بمناسك الحج، بدءًا من كيف يكون الإحرام، ومواقيت الحج، وأنواع الإحرام، وكيفية السعي، وغيرها من تعاليم الحج ونسكه.

مضى النبي ومعه كل نسائه، وأصحابه، وأكثر من مئة ألف مسلم...!

تحرك الجمع فرددت الصحراء نشيد السماء... لبَّيك اللهمَّ لبَّيك.

وكعادته لم يأتِ التاريخ بعد...!

وإلا لَرَوَى للعالم قصة هذا اليوم، ولم يحتج إلى كاتب بارع كي يصوغ معالمه، وأحداثه... فالمشهد يحكي نفسه!

عشرات الألوف يلبسون البياض، يرددون ذات الدعاء، والشمس من فوق

رؤوسهم تنظر متعجبة، فهذه الصحراء لم تجتمع يومًا على أمر، فكيف صارت لها قِبْلةً واحدة، وما هذا الزي الأبيض المتواضع الذي صبغ الرمال فأخفى صفارها؟!

أين كُبَرَاء القبائل، أين زعماء العشائر، أين العبيد، بل أين السادة؟

ثم، أليس لهذا الجمع من قائد؟

لو اجتمع أهل الأرض جميعًا ما وسعهم أن يهتدوا لقائد هذه الجموع!

النبي بين الناس، أقوى رجل في الجزيرة يمضي حاسر الرأس كغيره، لا يميزه عن بلال وصهيب وياسر شيء...

لبَّيكَ لا شريكْ لك لبَّيك...

الكل يردد والنبي معهم، أنْ لا شريك لله، الكلمة التي بدأ من عندها كل شيء...

رجْعُ الصدى يشهد أن نبي الله قد أدى الأمانة، العرق المتناثر على الرمال التي شهدت ذات يوم على مسير رجلين يتلفتان وخلفهما ألف عين تشهد اليوم أن نبي الله أدى الأمانة...

ومن بعيد تقف الكعبة لتنتظر التحام المؤمنين بحرمها، لقد تحررت أخيرًا من

أصنام المخابيل، هذه هي الحَجَّة الأولى منذ قرون التي تستقبل زائريها وقد رفعت رأسها غير حزينة، فالحرم طاهر والزائرون أطهار.

ستشهد هي الأخرى أن محمدًا قد أدى الأمانة، ستشهد بما رأت، ستحكي قصة الرجل النبيل، الذي لاقى من العنت، والضيق، والأذى الشيء الكثير.

كانت شاهدة على حديث الشامتين عن أذاه ووجعه، ابنها البار لم يستطع أن يودِّعها يوم خروجه من مكة متخفيًا، قبل أن يعود إليها بأجمل هدية، بمعول أزاح به الأصنام التي أحاطت بها فخنقتها، ودنَّست حرمها الطيب الطاهر.

وها قد جاء اليوم ليُعظم مقامها على مِلة أبيه إبراهيم، ومعه آلاف الأطهار...

وخيرًا أنها لم تعلم أن هذا هو اللقاء الأخير... والنظرة الأخيرة...

لبَّيك إنَّ الحمد لك...

لقد انتهت الرسالة... وقرر بطلنا أن يُطل على الناس إطلالته الأخيرة...

لا... إنه يطل علينا جميعًا، يقف على جبل عرفة وهو ينظر إلى المستقبل... إلينا.

لم يعد في جعبة الرجل أي سهام إضافية يصوِّبها إلى معسكر الشر... قرآن ربه اكتمل، منهجه أصبح أمرًا واقعًا، المهمة الآن سيحملها هؤلاء، ومَن بعدهم.

نظرة «بانورامية» ربما تلك التي مسح بها النبي الأعظم الفضاء الذي اكتظ بالحجيج، مشاعر الرضا والغبطة كانت تكتنفه، وبعض مشاعر الخوف!

نعم، العظماء يخافون على أتباعهم إذ يرحلون وهم في قمة نصرهم، خوف من غدٍ ربما تدور دوائره ويصبح البأس بين الأتباع شديدًا... خوف من أن تتزين الدنيا فيخطف بهرجها الألباب، وتصبح السيوف موجهة إلى الداخل، وتأتي الفتنة بعدما اطمأننّا إلى انتهاء الخطر البعيد!

يروي ابن إسحاق تفاصيل الخُطبة الأخيرة فيقول:

«مضى رسول الله على حَجَّته، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بيَّن ما فيها ما بيَّن، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري، لعلّي لا أراكم بعد عامي هذا في هذا الموقف أبدًا...

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلَّغت، فمن كان عنده أمانة، فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها.

وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون، قضى الله تعالى أنه لا ربا، وإن ربا عمي العباس بن عبد المطلب موضوع كله».

كان المُبلغون يرفعون صوتهم كي يصل كلام نبيهم إلى القاصي والداني في عرفه، والنبي ماضٍ في إخبارهم بما يجب عليهم عمله...

«أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يُعبَد في أرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يُطَع في ما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم».

الرجل يتحدث عن المستقبل، لقد انتهى زمن الأصنام المصنوعة من الحجارة، والخوف كل الخوف من أصنام تُصنع في الأفئدة، لقد خسر الشيطان معركة الكُفر الواضح وسيلجأ إلى خطط بديلة، سيدخل إلى النفوس، سيعمل وفق خطة أخرى، لقد يئس من أن ينال فوزه على أتباع النبي محمد من خلال الضربة القاضية، لكنه سيلجأ إلى ربح حربه من خلال كسب مجموع الجولات، جولات الذنوب الصغيرة، التي لا ننتبه إليها غالبًا!

«أما بعد، أيها الناس، فإنَّ لكم على نسائكم حقًّا، ولهن عليكم حقًّا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن

ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإنْ فعلن، فإن اللهَ قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس قولي».

اعقلوا أيها الناس قولي! تُرى أكان يعلم الأستاذ أن تلامذته ستحفظ النص دون فهم... دون عقل... دون وعي؟!

في آخر إطلالة له على الناس يتحدث النبي عن النساء... عن حقوق متبادلة، عن احترام منهن لرجولة الرجل، وتخويف للرجل من ظُلمهن.

يهمس في أذن حواء، ويُغلظ القول للرجال، ويختم مقالته بالتشديد على أن يعقل الجميع ما يقول.

اضربوهن! هل قالها حقًّا...؟

نعم قالها؛ قالها لآدم حينما يكتشف أن زوجته قد أتت بفاحشة مبينة، قالها ليس تصريحًا بالضرب، وإنما تقييدًا له، هذا أعظم حديث عقلاني يختص بالمرأة في التاريخ، والمدهش أنه موجه إلى رجال حديثي عهد بالشفقة والرقيّ والاحترام في ما يختص بالمرأة.

لقد طلب منها النبي ألا تتحدى زوجها وأن تحترم رغباته، وضرب مثلًا بألا تُدخل بيته أحدًا يكرهه، وألا ترتكب الفواحش - مثل الرجل تمامًا - ولكن يبدو أنه كان يرى بعين بصيرته جرائم الشرف التي سيختال بها الرجال في ما بعد، مؤكدين أنهم قد «غسلوا عارهم»، فشدد عليهم أن أقصى ما يمكن أن يقوموا به حال الغضب والصدمة هو ضرب لا يؤلم، لا يكسر ضلعًا، ولا يصفع وجهًا، ثم يشدد ثانية على أن يعود الرجل سيرته إذا ما انتهت الزوجة وتابت، وأن يعطيها حقها كاملًا، سواء ماديًّا أو أدبيًّا «رزقهن وكسوتهن بالمعروف»!

أَمْسِكْها بالمعروف إنْ أحببتها وصدَّقتها وسامحتها... وطلِّقها بالمعروف إنْ كرهتها.

المهم أن يكون... بالمعروف.

ثم يُصدر أمره الحاسم، وتأكيده الأهم، أن نستوصي بالنساء خيرًا، مؤكدًا أنهن أمانات عندنا نحن الرجال، أمانة من عند الله، لقد أخذناهم من بيوت آبائهن بكلمة الله وعهده، وهن مَن هن...؟! «لا يملكن لأنفسهن شيئًا» مهما كانت المرأة قوية، فجبروت الرجل أقوى، وطغيانه عليها سيكون بمباركة مجتمع معتلّ، لا يعرف عن محمد شيئًا، غير أنه يتفاخر بحبه!

هل فهم الناس هذا؟ لقد حفظوه لكنهم للأسف لم يعقلوه!

«أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، المسلم أخو المسلم، وإن المسلمين إخوة، فلا يحل لمسلم من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تَظْلِمُنَّ أنفسكم... اللهمَّ هل بلغت؟».

فردد الناس بصوت هادر: «اللهمَّ نعم...».

فقال النبي وقد رفع بصره إلى السماء: «اللهمَّ فاشهد».



غربت الشمس... واستحكم غروبها، فاتجه النبي إلى المزدلفة، يُصدر أوامره للناس بالسكينة والهدوء، مُلبيًا كلما علا أو انحدر، قبل أن يجمع بين المغرب والعشاء في وقت العشاء، ثم أكمل شعائر حَجِّه، وكان دائم التوجيه للناس، ينصحهم، ويُعلمهم، ويترك بينهم أثرًا طيبًا وهديًا جميلًا.

انتهت حَجّة النبي الأولى والأخيرة، فعاد من فوره إلى المدينة ليقوم بمهمة أخيرة...

مهمة أخيرة! ألا يستريح هذا الرجل!

وهل يستريح الشر كي يستريح أهل الخير...؟!

إن غرور الروم ونزقهم دفعا النبي إلى الإسراع بإصدار قرار عسكري حازم وسريع، ذلك أن أحد ولاة الروم على بعض المناطق في الشام ويسمى «فرو

بن عمر الجزامي» كان قد أسلم، وأرسل إلى النبي يُعْلِمه بأمر دخوله الدين الجديد، غير أن الخبر وصل إلى قيادة الروم فأرسلت حملة إليه أَسَرَته وسجنته حتى أصدرت حكمها بقتله، وصلبته تاركة جسده مصلوبًا في فلسطين، إرهابًا لمن يريد أن يدخل الإسلام.

وعليه أمر النبي بتجهيز جيش كبير، بيد أن الأمر المدهش كان في قرار النبي الحازم والنهائي بأن يتولى قيادة الجيش شاب لم يتجاوز ثمانية عشر عامًا وهو «أسامة بن زيد» ابن بطلنا «زيد بن حارثة» الذي قُتل في أثناء محاربة الروم في معركة «مؤتة»، ولقد اعترض بعض المسلمين على تولية شاب قيادة جيش المسلمين في معركة حاسمة كهذه لا سيما أن في الجيش شخصيات كبيرة مثل أبي بكر وعمر...

غير أن النبي كان مدركاً أن الاعتراض ليس فقط من أجل سن أسامة، وإنما لأن أسامة لا ينتمي إلى بطون قريش، وليس من كُبَرَاء القوم، وأنه ابن عبد سابق كان يباع ويشترى!

ما زال سلم الطبقات الاجتماعية ضاربًا في أذهان الكثير، وما زال النبي محمد يستخفّ به في كل مناسبة، ويهزأ بالطبقية كلما سنحت الفرصة!

لقد كان النبي يعرف جيدًا أن الأخطر من الروم هو بقايا جاهلية ما زالت

ساكنة في نفوس البعض، يظهر هذا جليًّا في حديثه الغاضب لهم: «لئن طعنتم في تأميري أسامة، لقد طعنتم في تأميري أباه من قبل، وأيمُ الله إن كان لخليقًا بالإمارة، وإنّ ابنه من بعده لخليقٌ بها، وإن كان من أحب الناس إليّ».

انتدب الناس يلتفون حول «أسامة» ويصطفون وراءه، غير أن الأخبار المُقلقة عن مرض النبي دفعتهم إلى التريث حتى يطمئنوا على قائدهم، وكانوا قد تجمعوا في معسكر خارج المدينة باتجاه الشمال في منطقة تُدعى «الجرف».



النبي يموت

نحن الآن في أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة.

ثمة صداع حاد يؤلم النبي محمدًا، حاول الرجل أن يتحمل وجعه غير أنه زاد عليه فمنعه من الخروج ولقاء الناس...

فطلب ممن حوله أن يأتوه بماء يتبرَّد به... ماء كثير!

فجاؤوا إليه ـ وفق أوامره ـ بسبعة قرب من الماء جمعوها من آبار شتى، ثم أقعدوه في مخضب وصبوا عليه الماء، لم يتوقفوا حتى أمرهم بذلك قائلًا: «حسبكم... حسبكم».

وما إن استشعر النبي شيئًا من العافية، وأن حرارة جسده قد انخفضت قليلًا حتى استدعى ابن عمه «الفضل بن العباس» وقال له: «خذ بيدي».

معصوب الرأس خرج به الفضل حتى دخل المسجد، فجلس النبي على المنبر، ثم قال له: «نادِ في الناس».

اجتمع القوم ليروا نبيهم وقد أنهكه التعب، الرجل الذي لطالما أشعل دنياهم حماسًا، يجلس وقد انهزمت العافية في جسده، بدا كأنه مودِّعٌ عن قريب...

جلس الناس ينظرون إليه وكلهم طمع في أن يُطمئنهم الرجل أن ما يرونه ليس هو كل الحقيقة، وأنه سيعيش إلى الأبد، أنه لن يرحل، أنه نبيٌّ مُخلَّد...!

نعم، كلنا نتناسى أن الموت قريب منا، نتناسى أننا ومن نُحب في جدوله، كل ما هنالك أن الدور لم يأتِ بعد!

جلس النبي على المنبر منتظرًا حتى اجتمع الناس، ثم قال لهم ما لم يتوقعوا سماعه... الرجل يريد أن يرحل وليس لأحد عنده حق أو حاجة، وهكذا العظماء، دائمًا يُضربون صفحًا عما قدموا وينشغلون بما يجب أن يقدموا، منهمكون في العطاء، يودُّ الواحد منهم أن يكون له فوق عمره عمرًا كي يعطي كثيرًا، يعطي في بذخ وطيب خاطر.

قال النبي: «أما بعد، فإني أحمد الله إليكم... الله الذي لا إله إلا هو... فمن كنت جلدت له ظهرًا، فهذا ظهري فليستقد منه! ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه!».

نظر القوم إلى بعضهم في ذهول... أيُّ ظهرٍ هذا الذي جلده، وأيُّ عِرض هذا الذي شتمه!

فأكمل النبي يستحثهم على الكلام: «ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإنّ أَحبَّكم إليَّ مَن أخذ مني حقًّا! إنْ كان له، أو أحلَّني منه فلقيت الله وأنا طيّب النفس»!

جاء أوان الصلاة فقطع النبي كلامه، ثم هبط من منبره وصلى الظهر، وعاد ثانية للمنبر، وكرر كلامه والناس تتقطع قلوبهم شفقة، وحبًّا وخوفًا على حبيبهم، هذا خطاب مودِّعٍ لا ريب.

عاد النبي إلى بيته ثانية، وبدأت العافية تزور جسده لساعاتٍ ظنها الناس نهاية الوجع، وأن أملهم في عودة النبي لمواصلة كفاحه قد تم، حتى إنَّ الناس سألوا علي بن أبي طالب وقد خرج من عند النبي عن صحته فقال: «أصبح بحمد الله بارئًا».

بيد أن الوجع عاد ليضرب من جديد، فاطمة تنظر إلى أبيها في شفقة وتقول: «واكرب أبتاه»، فيهدِّئ روعها الأب الحنون قائلًا: «لا كرب على أبيك بعد اليوم».

وترامت الأخبار الحزينة إلى جيش أسامة المتأهب فشاع بين الناس حزن

وشجن، فذهب إليه أسامة ليطمئن عليه، دخل ومعه بعض المسلمين فوجد النبي صامتًا لا يقدر على الكلام، اقترب منه فإذا بنبيه يرفع يده إلى السماء ويضعها عليه، فعرف أنه يدعو له.

وصل الأمر إلى عدم قدرة النبي على الصلاة في المسجد، فأمر أن يصلي صاحبه أبو بكر بالناس، وبالفعل صلى أبو بكر إمامًا بالناس سبع عشرة صلاة.

والحقيقة أن تلك الأيام كانت من أشد الأيام ثقلًا على النبي، غير أنه ومع اشتداد الحمَّى عليه كان ذهنه يقظًا غير غائب، وكلماته التي كان يُخرجها بصعوبة من بين شفتيه كانت تحمل دائمًا توجيهًا ما، يرى أهمية أن يُبلغه قبل أن يرحل!

وحدث أن غلبه الشوق إلى الصلاة جماعة بأصحابه، فخرج إليهم وصلى بهم وهو قاعد...



فجر الاثنين الذي توفِّي فيه النبي محمد...

ما زال الحبيب يتوجَّع، غير أنه سمع حركة الناس في مسجده فأراد أن ينظر إليهم نظرة أخيرة...

الرجل معلق القلب بهؤلاء القوم، لا سيما مَن جاهدوا معه حتى يُصبح أمر الدين واقعًا في دنيا الناس، وعليه تحامل النبي على وجعه وقام ليلقي النظرة الأخيرة...

رُفع الحجاب الذي يفصل بين الغرفة التي يرقد فيها وبين المسجد فرأى أتباعه يصطفّون في خشوع خلف أبي بكر وهو يؤمُّهم في الصلاة، انتبه القوم فحاولوا أن يُفسحوا له مكانًا كي يمر إلى المحراب، غير أنه أشار بيده أن اثبتوا على حالكم...

تبسم النبي مغتبطًا من المشهد، حتى إن أنس بن مالك قال: «ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة».

عاد النبي إلى غرفته ثانية، وقد ظن الناس أن نبيهم يتحسن، وأنه قد أفاق من وجعه، حتى إن أبا بكر الذي لم يتركه أبدًا خُدع هو الآخر وظن أن صاحبه قد تعافى، فقرر أن يمضي لزيارة زوجته التي تسكن بعيدًا في ضواحي المدينة.

لكن الواقع كان غير ذلك...

لقد دخل النبي إلى غرفته فوضع رأسه على حِجر عائشة، وما هي إلا لحظات حتى سمعته يتمتم بكلمات، أصاخت السمع فوجدته يردد: «**بل الرفيق الأعلى... بل الرفيق الأعلى**».

ثم أغمض عينيه...

لقد مات النبي...!



خاتمة حكاية لا تنتهي

فلم يزل في الأمر أمر...

وما زالت المسيرة مستمرة...

لقد تحدثنا عن جانب واحد من حياة بطلنا، ولا بد أن نترك الباب مفتوحًا والمصباح مُضاءً كي نُكمل ما بدأناه، ونتحدث عن جوانب لا تقلّ عظمة عما ذكرناه...

عن أبناء النبي الذين ماتوا جميعًا في حياته ـ باستثناء فاطمة ـ وكيف احتمل وجع الفقد ومضى يُكمل مشواره في صمود يليق بعظمة روحه.

لقد تزوج كثيرًا حتى رأى بعضهم في هذا ثُلْمَة يمكن أن يخصم بها من رصيد عظمته ونبوته، فكيف حدث هذا، وكيف تعامل مع ملف المرأة، في مجتمع لم يكن للمرأة فيه قيمة أو شأن؟

كان صديقًا لغالب أتباعه، كيف تحمَّل ضعفهم البشري، وارتقى بأرواحهم، وفتح لهم أبواب التاريخ ليسطروا فيها بطولاتهم الحقيقية؟ تخيل أبا بكر وعمر وعلي وعثمان ومصعب وأبا ذر وخالد، لو لم يُلقي بهم القدر في تلك الحقبة الزمنية، وكيف نُحتت شخصياتهم بهذا الشكل العجيب...؟!

عن فلسفة نبينا في الحياة، وكيف تعامل مع حكمة القضاء والقدر، وفلسفة الرزق، والمحنة، والابتلاء...؟!

الكثير الكثير مما لم يُروَ بعد، غير أنني لم أكن قادرًا على الحديث عنه، إلا بعدما أصحبكم في تلك الجولة ابتداءً، وكل أملي أن نرى الرجل عن قُرب، ونعيش مع الإنسان إذ تُحتم عليه الأقدار أن يتصدر الأمر، ويُلقى إليه بالنبأ العظيم...

كنت بحاجة إلى أن أفهم لماذا وكيف فعلها... قبل أن نقترب أكثر لنغوص في حياته وندقق النظر في كثير من الملفات التي لا نعرف عنها إلا القليل...

فإلى لقاء قريب ـ إن شاء الله ـ لنتحدث عن النبي الإنسان.

كريم الشاذلي



أهم المراجع

اسم الكتاب	المؤلف
السيرة النبوية	محمد بن إسحاق
خاتم النبيين	محمد أبو زهرة
فقه السيرة	محمد الغزالي
دراسات في السيرة	عماد الدين خليل
محمد... منهج ورسالة	محمد الصادق إبراهيم عرجون
مطلع النور	عباس محمود العقاد
محمد نبي لزماننا	كارين أرمسترونج
محمد خاتم النبيين	علي شريعتي
سيماء محمد	علي شريعتي
الرسول القائد	محمود شيت خطاب
محمد في مكة	مونتجمري وات

الحكمة طائـــر..
والقلم صيـــاد

ملحق التعقيبات والتأملات الشخصية:



الحكمة طائر..
والقلم صياد

ملحق التعقيبات والتأملات الشخصية:



....

....

الأعظم
THE GREATEST

لقد قررتُ أن أحكي لك عن الرسول في رحلة كفاحه...

أنفاسي اللاهثة ستسمعها يقينًا وأنت تجمع جهدك وتنظر بعين مُدققة إلى ذلك الشاب اليتيم الذي لطالما رعى غنم قريش في صحرائها، وكيف هبط ذات ليلة من أعلى الجبل ليعلن الحرب على تجار الرقيق في مكة، وأرستقراطيي الطائف، وقيصر الروم وكسرى الفرس...!

يحمله عزمه ويقينه، ويحيط به الشرفاء، بلال وأبوبكر، صهيب وعمر، علي وعمار.

عقد لا يقدر على غزل حباته سوى عظيم..

ستشاهده -بعين عقلك- وهو يمزق دثار الخوف والحيرة والرهبة التي اكتنفته بعد لقاء الوحي، ثم يمضي بعدما اطمأن إلى كُنه الرسالة وطبيعتها، متخطيًا الأزمة تلو الأخرى، ضاربًا قيم الجاهلية في مقتل، صانعًا انقلابًا جذريًا على أبجديات العصر وطبيعة الواقع ومفردات القوة والجبروت القائمين.

ستراه، بعين قلبك، وهو يحمل أصالة في روحه يكمل بها حكمة أخيه لُقمان، وعزمًا في سيفه فتتعجب من القوة إذ تحكمها أناة لطالما غابت عن أخيه موسى، فضلًا عن منطق لسانه الذي لم يحتجْ إلى هارون يعضده...

سترى رحمته وقد فاضت على أعدائه قبل أصحابه فيذكّرك بأخيه عيسى، بيد أنها رحمة المقتدر لا عديم الحيلة..

سترى الكمال متجسدًا في إنسان...

لكنه -ويالل‍عجب!- كمال باعث على التأسي والتعلم!

Cover by #ahz_art



ISBN 977773067-5



DAR AJIAL
دار أجيال